

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر - باتنة -

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

الشخصيات في السيرة الشعبية

دراسة لبنياتها وخصائصها

سيرتي سيف بن ذي يزن و عنتره العبيسي نموذجا

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الشعبي

إشراف الدكتور:

محمد حجازي

تقديم الطالب:

شوقي زقادة

أعضاء لجنة المناقشة

- الدكتور محمد

منصوري.....

... رئيسا.

- الدكتور محمد

حجازي.....

.. مقررًا.

- الدكتور عيسى

مدور.....

. عضوا.

- الدكتور محمد

عزوي.....

... عضوا.

- الدكتور عبد الرزاق بن

السبع..... عضوا.

السنة الجامعية: 1428 هـ - 1429 هـ

2007 م - 2008 م

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الإهداء

أهدي هذا العمل:

- إلى أبي، أمي، وإخوتي.

- إلى كل الأشخاص الذين يرون أنهم جديرون بأن يكون اسمهم مدرجا على هذه الصفحة، أقول: تعرفون أن وجودكم في القلب والذاكرة أهم من وجودكم هنا.

- إلى كل من يحاول أن يتعرف على نشاط الشعب الروحي ويحيط بلغته وأدبه وتاريخه وعاداته وتقاليده ومعتقداته وأساليب سلوكه.

شكر وتقدير

أقدم شكري الجزيل للدكتور محمد حجازي على قبوله الإشراف على هذا العمل أولاً، وعلى جميع النصائح والإرشادات العلمية التي وجهها لنا على طول مدة انجاز هذا البحث، كما أشكر من خلاله كل الأساتذة الكرام الذين درسوني، وعلّموني أشياء كان يجب أن أعرفها، فعرفتها ...

المقدمة

الأدب الشعبي وجه من وجوه التراث الشعبي الذي يستغرق جميع مظاهر الحياة الشعبية، قديمها وحديثها ومستقبلها، وهو أبقاها على طول الزمن، لأن اللباس يتلف والآلة الموسيقية تتحلل، والصناعات الخشبية والفخارية وما إليهما تزول، بينما الكلام يبقى طريا نديا، لا يزيده الزمن إلا حياة وقيمة وأهمية، إذ هو ثابت لا يحول، تتناقله الألسنة وتحفظه الصدور، وتتسلمه الأسماع والأفهام، بوصفه أمانة عزيزة وارثا تسري فيه أرواح الآباء والأجداد.

وحيث نعلم أن العرب كانوا في أغلبهم أميين، ينتشرون في هذه البقاع الفسيحة من الأرض بصحرائها ووديانها، بهضابها وسهولها، بجبالها وجروفها، بمدنها وقراها فان تعبيرهم عن أنفسهم وأوضاعهم وأحاسيسهم لابد أنه كان معاصرا لوجودهم، من هنا فان المنطق يقضي بسبق الأدب الشعبي على هذا الأدب التقليدي الرسمي، ذلك أن الأدب الشعبي، الذي يقوله سواد الناس من متقنين وأميين، وزراع وصناع، صبيان وشيوخ، رجال ونساء، هو الذي يصور الحياة بتفصيلاتها ووقائعها، لا الأدب الرسمي الذي تحكمه التقاليد الفنية والرسوم الشكلية، والآداب الاجتماعية ومجالس الشيوخ والملوك. ولا عبرة هنا باللغة، إذ أنها كانت واحدة في كل الطبقات، ولم يتخلل بناؤها إلا بعد أن تسرب اللحن إليها في أواسط العصر الأموي وأوائل العصر العباسي بفعل الظروف المعروفة، لعل أهمها ذلك الاختلاط الذي حدث بين شعوب المعمورة تحت راية الإسلام، مما أدى إلى اختلاط اللغات والألسن، وكانت حاجة المجتمع إلى التحكم في هذه الظاهرة، وحفظ اللغة العربية من الإسفاف واللحن، فجاءت قوانين النحو والصرف وضوابط التعبير، التي كونت حاجزا بين عهد وعهد وسدا بين بيئة وبيئة، فأنكشف الأدب الشعبي في شكله البدوي والحضري، وارتفع الأدب الرسمي، بوصفه الآخذ بالضوابط الجديدة، فغطى بظله على ما عداه، وعني به الناس، وتسلمته المجتمعات، وعينت به الطبقات، وسجله الرواة والمصنفون وظل الأدب الشعبي في حاله هذه، مستوحشا - بالقياس التقليدي - ينتظر الرعاية والاهتمام والتسجيل. وقد نال مثال ذلك من السيرة الشعبية على اعتبار أنها جنس أدبي شعبي، لكن هذا لم يمنعها من أن تكون أعظم ديوان لشعوب الشرق، وسجلا حافلا يخلد مآثرهم، حيث ظل الناس يتناقلونها شفاهها ويروونها ويبتثون فيها ما يعتلج في صدورهم من نقمة على الظلم والفساد وقسوة الغزاة، وينثرون فيها قيمهم وحكمتهم وخبراتهم التي حصلوها بالتعليم والأسفار الكثيرة. وكل هذه الأمور وغيرها تجعل السيرة الشعبية من أخصب مجالات البحث والدراسة، وقد جاء الاختيار لسيرتي "سيف بن ذي يزن وعترة بن شداد" كمتن للدراسة والتحليل ليس من قبيل المصادفة أو لهوى نفسي، وإنما جاء كرد فعل لذلك الإحساس العميق بأن لهاتين السيرتين قيمة

ثقافية وأدبية وسردية لدى جميع من يعشقهما عبر كل الأزمان، فهما بالرغم من ضراوة الحاضر وشراسته بقيتا حضا دافئا خالصا للماضي التليد، ونبراسا يضيء عتمة الحاضر بمستقبل أكثر تفاؤلا وإشراقا.

هذا، وقد جاءت الأسباب الدافعة لدراسة هذا الموضوع تحت المسميات التالية:

أولا: قليلة هي الدراسات الأكاديمية التي تناولت شخصيات سيرتي "سيف بن ذي يزن وعترة بن شداد" بالدراسة والتحليل خاصة من الوجهة التي تبينها في هذا البحث. والدراسات المتوفرة حاليا عبارة عن دراسات أو كتب وضعها مؤلفوها خارج الإطار الأكاديمي، مما يلقي على عاتقنا - كأكاديميين - مهمة التعريف بالسيرتين أولا ودراسة جانب من جوانبها المتعددة (الشخصيات) ثانيا.

ثانيا: الرغبة الملحة في مد جسور التواصل بين التراث، المتمثل هنا في جنس السيرة الشعبية، والحدثة، من خلال النظريات والمناهج النقدية الحديثة، وذلك لكي يصبح الحاضر والمستقبل امتدادا طبيعيا للماضي.

ثالثا: الرد على معتنقي الأفكار التجزئية التي ترى أن هناك تعارضا ومجافاة وغربة تامة بين المنجزات الثقافية المنقولة كتابيا بلغة فصحي، والمنجزات الثقافية المتناقلة شفاهيا بلغة عامية، وبأنه لا ازدهار للوحدة إلا بتردي الأخرى، ذلك أن تراثنا الثقافي لا ينفصل في المكان والزمان عن مفاهيم الجماعة الشعبية العربية، وعن منجزاتها وتصوراتها وأفكارها وأنماطها النفسية والسلوكية، فهي تحمل ثقافة ذات جذور واحدة وتحركها عوامل مشتركة، وتتطلق في توجهاتها الخاصة والعامية من منطلقات متشابهة.

رابعا: جاء الاختيار لهاتين السيرتين بالذات لأن أحداثهما تقع في نفس الحقبة التاريخية، وهي حقبة ما قبل الإسلام، مما يتيح لنا فرصة التعرف على بنيتها القيمية والتاريخية.

أما فيما يخص الإشكاليات التي سيحاول هذا البحث الإجابة عنها، فيمكن تقسيمها إلى قسمين، رئيسية وفرعية، فالإشكالية الرئيسية أثرنا أن تكون على الشكل التالي: هل يمكن لنا أن نقوم بضبط وحصر شخصيات سيرتي سيف بن ذي يزن وعترة بن شداد ضمن بنيات واضحة ومحددة؟ وما هي الحدود الفاصلة بين التاريخ الرسمي والخيال الأدبي الشعبي فيما يتعلق بشخصيتي سيف وعترة؟ أما عن الإشكاليات الفرعية فهي مجموعة من الأسئلة التي تتفرع تلقائيا عن الإشكالية الرئيسية، وذلك من أجل تدعيم وإثراء البحث وتمكينه أكاديميا من الإجابة عن الإشكالية الرئيسية، وهذه الأسئلة هي: هل نستطيع أن نقدم مفهوما عاما لجنس السيرة الشعبية في ظل ذلك التداخل الحاصل بين مختلف مفاهيم الأجناس الأدبية الشعبية؟ ما هي البنيات التي تبني عليها أحداث سيرتي سيف بن ذي يزن وعترة بن شداد؟ من

هو سيف بن ذي يزن التاريخي؟ وكيف صورت السيرة الشعبية شخصية عنتر بن شداد التاريخي؟.

وللإجابة على هذه الإشكاليات، أثرنا أن نقسم البحث إلى تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة، حاولنا أن نحدد في التمهيد مفهوم السيرة الشعبية وذلك بمقارنته مع جملة من مفاهيم بعض الأجناس الأدبية الشعبية السردية، وتناولنا في الفصل الأول تقسيم أحداث سيرتي سيف بن ذي يزن وعنتر بن شداد إلى بنيات محورية لتمكين قارئ هذا البحث من فهم جوهر الحكاية فيهما كلا على حدا، ثم قمنا في الفصل الثاني بدراسة وتحليل شخصيات السيرتين، محاولين إيجاد أهم البنيات التي تتشكل منها، وكذا إبراز العلاقات التي تجمع وتفرق بين هذه الشخصيات، وانتقلنا في الفصل الثالث لدراسة الخصائص التاريخية لبطلتي السيرتين "سيف بن ذي يزن وعنتر بن شداد"، أما في الخاتمة فقد حاولنا فيها بلورة وتلخيص النتائج الرئيسية المرجوة من هذا البحث.

كما يهدف هذا البحث في مجمله إلى إبراز مجموعة من الأهداف، هي:

أولاً: محاولة الربط بين النظريات السردية الحديثة بوجه من وجوه الموروث السردى الشعبى العربى المتمثل فى جنس السيرة الشعبية.

ثانياً: الكشف عن الجماليات السردية للسيرة الشعبية، وإبراز مكانتها وحضورها الدائم في الذهنية الثقافية الشعبية العربية.

ثالثاً: إبراز أن الحوار والامتزاج بين الموروث السردى الشعبى والنظريات النقدية الحديثة هي المجال الحقيقي للدراسة والبحث.

رابعاً: محاولة تطوير التصورات السردية النظرية انطلاقاً من تطبيقها على السيرتين محل الدراسة.

خامساً: إبراز بعض المقومات السردية للسيرة من حيث مميزاتها الفنية والنوعية.

سادساً: فتح آفاق فكرية جديدة للبحث في الذهنية العربية من خلال إبداعها الأدبي الشعبى.

سابعاً: التعرف على جانب إبداعى شعبى عربى قديم، لطالما حاول بعض النقاد طمسها أو إشاحة النظر عنه.

كما تجدر الإشارة إلى أن هذا البحث لا يتضمن - بأي حال من الأحوال - مقارنة سيرة سيف بن ذي يزن بسيرة عنتر بن شداد من أي جانب من جوانبهما.

واستخدمنا لتحقيق هذه الأهداف مجموعة من المناهج تتمثل أساسا في المنهج النبوي والسيميائي في الفصل الأول والثاني، والمنهج التاريخي والنفسي في الفصل الثالث.

لعل أهم مشكلة واجهتنا أثناء انجاز هذا البحث تتمثل أساسا في ضخامة السيرتين المعتمدين للدراسة من حيث الكم، فسيرة سيف بن ذي يزن تتكون من سبعة عشرة مجلدا، أما سيرة عنتر بن شداد فتتكون من ثمانية مجلدات. ناهيك عن ذلك العدد الهائل من الشخصيات التي تضطلع بالأدوار فيهما، مما يجعل دراستها وتحليلها في غاية الصعوبة والإجهد.

وإذ نقوم بهذا الجهد المتواضع، الذي نرى أنه يصب في خانة المعرفة العلمية عموما، والذاكرة الشعبية خصوصا، فإننا نقدم شكرنا الجزيل للدكتور محمد حجازي على قبوله الإشراف على هذا العمل أولا، وعلى جميع النصائح والإرشادات العلمية التي وجهها لنا على طول مدة انجاز هذا البحث، كما أشكر من خلاله كل الأساتذة الكرام الذين ساهموا بأي شكل من الأشكال في إخراج هذا البحث بهذه الصورة، عسى أن يكون سندا للباحثين في مثل هذا النوع من الدراسات.

تمهيد

في المباني والمفاهيم الدلالية للسيرة الشعبية

إن البحث في مختلف المراجع العربية والأجنبية التي خصت جنس السيرة الشعبية العربية بالدراسة والنقد، يضعنا أمام معضلة شديدة؛ وهي صعوبة تحديد مفهومها خاصا بها نظرا لتداخله مع مفاهيم أخرى تشترك معه في بعض الخصائص مثل: الأسطورة، الخرافة، الحكاية الشعبية، الملحمة، لذلك سنحاول أن نستعرض بعض هذه المفاهيم باختصار وبطريقة تساعد على الوصول إلى مفهوم واضح للسيرة الشعبية.

وسنلاحظ مع عبد المالك مرتاض أن ((المستعملين للغة العربية في مألوف العادة يلبسون معنى الخرافة بمعنى الأسطورة، وربما معنى الأسطورة بمعنى الحكاية الشعبية ذات الأصول التاريخية. ويعود ذلك - في رأينا - إلى قصر التجربة العربية حول هذه المفاهيم بالذات، كما أن أدب الخرافة في الأدب العربي قليل إذا قيس بالأدب الواقعي، أي الأدب القائم على الخيال المطبوع بما يشبه الواقع. أما الأساطير فقد قضت عليها تعاليم الديانة الإسلامية بما صقلت من عقيدة، ورققت من تفكير...))¹.

ويبدو أن هذا الباحث على صواب في قضية " قصر التجربة العربية حول مفاهيم "الأسطورة والخرافة والحكاية الشعبية"؛ إذ أن العديد من البحوث العربية التي تتناول مثل هذه المواضيع - على محدوديتها كما ونوعا - لم تصل إلى تحديد دقيق أو شبه دقيق لمفهوم "السيرة الشعبية"، الذي يتداخل بشكل كبير مع مفاهيم أخرى. على أنه من الملاحظ وجود هذا التداخل أيضا في أبحاث وأعمال غير عربية، الأمر الذي سيدفعنا إلى توضيح مفهوم الأسطورة أولا بطريقة شاملة وشبه دقيقة، والانطلاق منه لتوضيح مفهوم "السيرة الشعبية"، ولكن أولا سنلقي نظرة على ما تقوله بعض المعاجم والموسوعات في هذا الصدد، ونقول "بعض" لأن المواد المتعلقة بالمفاهيم التي نود توضيحها هنا، تتوزع على عدد كبير من المعاجم والقواميس، لذا سننتقي منها ما يناسب وجهة هذا البحث تحديدا، ولنبدأ من مفهوم السيرة.

السيرة في لسان العرب من مادة "س ي ر"، ولها معان متعددة: ((فالسيرة هي السنة، وقد سارت وسرتها، والسيرة الطريقة، يقال سار بهم سيرة حسنة، والسيرة الهيئة، وفي التنزيل العزيز: (سنعيدها سيرتها الأولى). وسير سيرة: حدث حديث الأوائل. وسار الكلام والمثل بين الناس: شاع، ويقال هذا مثل سائر.))². والسيرة بهذا المعنى الذي أورده ابن منظور في القرن الرابع عشر ميلادي، يبدو محدودا جدا على المستوى الدلالي بالنسبة للمصطلح، فهو لا يفيد إطلاقا في تحديد

¹ - مرتاض عبد المالك، الميثولوجيا عند العرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص: 16.

² - ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب المحيط، دار صادر، بيروت، 1990، مج 4، مادة: س ي ر، ص: 390.

مفاهيم تبدو معاصرة إلى حد كبير، كالسيرة الشعبية، والسيرة الذاتية، وبدرجة أقل معاصرة: السيرة النبوية، والتراجم والمناقب.

وبالتالي، فإننا حين نقرأ مادة "سيرة" في الموسوعة العربية الميسرة مثلا، نلاحظ - بوضوح - آثار هذه المحدودية على شكل تخبط في تحديد معنى السيرة بشكل دقيق، فهي تضع: ((السيرة النبوية، وترجمة حياة رجل أو امرأة أو كليهما معا، والسيرة المحفورة على جدران القبور والمعابد عند قدماء المصريين والأشوريين...، وترى السير في محاورات أفلاطون، وفي أعمال بلوتارك، وتلاحظ وجود كتب رائعة عن سير الأبطال والقادة والملوك وغيرها...))¹ فهي تضعها كلها في خانة واحدة.

بينما يتحدث معجم مصطلحات الدراسات الإنسانية والفنون الجميلة والتشكيلية عن نوع واحد فقط من "السيرة" هو: السيرة الشخصية BIOGRAPHY:" ((تعطي السيرة الشخصية وضعا كاملا لحياة الفرد بوصف وتحليل شخصيته وطريقة سلوكه وبيئته. وهي تفيد الدراسات العلمية في دراسة الحالة، وفي المنهج العلمي الاجتماعي على وجه العموم... وينبغي قبل الاعتماد على هذا النوع من الوثائق وتحليلها تحليلا دقيقا للتأكد من صدقها))².

ويبدو أنه لا يوجد أي توجه حقيقي فيما اطلعنا عليه من بعض الدراسات والبحوث المختلفة لتحديد مفهوم السيرة بشكل دقيق. فدارسو السيرة النبوية مثلا يتحدثون عن هذا النوع من السير، دون أي محاولة لمناقشة مفهوم السيرة، وكأن هذا المفهوم محدد دلاليا بشكل واضح، وكذلك الأمر بالنسبة للمناقب والتراجم، بينما نجد أن كثيرا من دارسي السيرة الشعبية، وخاصة من العرب، يمزجون بين هذا المفهوم، وبين غيره من المفاهيم التي يمكن أن تتقاطع معه مثل الملحمة والأسطورة والحكاية الشعبية دون أن يحاولوا بشكل دقيق فصل هذا المفهوم عن غيره، وتحديد دلالاته بشكل دقيق.

ويمتد هذا الخلط ليشمل بعض دارسي السير العربية من الأجنبي، إذ نجد أن أحدهم قد اكتفى بالإشارة على هامش الصفحة الأولى من دراسته إلى أن: ((السيرة جمعها سير، تترجم في أوربا بطرق مختلفة، هي: *épopée, folk épics, folk book, folk roman, folk romance saga*)³. ونجد باحثا آخر يقول: ((يستخدم الباحثون العرب - عادة - المصطلح الكلاسيكي: سيرة أو القصة

¹ - الموسوعة العربية الميسرة، دار الجبل، بيروت، القاهرة، تونس، ط2، 2001، مج 3، مادة سيرة، ص: 1423.

² - بدوي أحمد زكي، معجم مصطلحات الدراسات الإنسانية والفنون الجميلة والتشكيلية، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط1، 1991، مادة: سيرة شخصية - BIOGRAPHY، ص: 47.

³ - MADEYSKA DANUTA. THE LANGUAGE AND STRUCTURE OF THE SIRA. QUADEMI DI STIDI ARABI. 9. 1991. p.193.

للدلالة على ما نقترح تعريفه بالملحمة "الشعبية" (...)¹. وفي ثنايا نفس الدراسة نجد أن المؤلف يتحدث عن "التقاليد الملحمية الشعبية العربية" للدلالة على مجموعة من السير بينها سيرة سيف بن ذي يزن وسيرة عنتر بن شداد².

إذا، تجدر للإشارة من خلال الملاحظات السابقة إلى نقطتين، الأولى: هي عمق الانزياح الدلالي الحاصل على مستوى مفردة "سيرة" في اللغة العربية، أثناء الفترة الفاصلة بين ابن منظور وأحدث الدراسات المعاصرة. والأخرى: هي ذلك الغموض الكبير على مستوى الدلالة الدقيقة لمفهوم السيرة في العصر الحاضر.

وقبل الشروع في نحت مصطلح "السيرة" بالطريقة التي تناسب بحثنا هذا. يجدر بنا أن نشير إلى نقطة عساها أن تكون هامة، هي أن نفس الغموض على مستوى المفاهيم والمصطلحات يمتد ليشمل مفاهيم أخرى سنتحدث عنها هنا. ذلك أن أحد أهم المفاهيم والمصطلحات التي سنستخدمها بكثافة في هذا البحث هو مفهوم الأسطورة.

إذ نجد أن مادة "سَطَرَ" يسطر، في لسان العرب مثلا تقول: ((السطر: الخط والكتابة، وهو في الأصل مصدر، وقال الزجاج في قوله تعالى: ((وقالوا أساطير الأولين...))، معناه سطره الأولون، وواحد الأساطير أسطورة كما قالوا لأحدوثه وأحاديث. وستر: يسطر إذا كتب، قال الله تعالى: ((ن والقلم وما يسطرون))، أي وما تكتب الملائكة. وقد سطر الكتاب يسطره سطرًا... كتب. والأساطير: الأباطيل، والأساطير: أحاديث لا نظام لها... وسترها: ألفها.))³. بينما نجد "مادة الأسطورة" في الموسوعة العالمية تتحدث عن الأسطورة في البداية على أساس أن ((الجميع يهتمون بدراسة الأسطورة، ولكن الأسطورة - حتى وإن تم تعريفها أو تحليلها بمائة طريقة - إلا أنها تظل بعيدة كل البعد عن الوضوح. وبالطريقة نفسها، فإن السؤال حول معنى الأسطورة ووظيفتها، خاصة بالنسبة للمجتمعات البدائية أو القديمة، قد جوبه بعدة إجابات، وإجابات جد متعددة، إلى درجة أنه لا يمكن لإحداها فرض نفسها، وإقصاء باقي الإجابات))⁴. وبالتالي فإن واضع مقالة "الأسطورة" في هذه الموسوعة قد حاول مقارنة مفهوم الأسطورة من زوايا مختلفة: فلسفية لسانية، اثنو- سيكولوجية...، بحيث نكتشف فعلا أن هناك عدة استخدامات لمفهوم الأسطورة ينسجم كل منها مع الإطار العلمي الذي يقترحه.

¹ - GIOVANNI CANOVA. ASPECTS DE LA TRADITION EPIQUE VIVANT EN EGYPTE ET SYRIE. ACTES DE LA 1ERE TABLE RONDE INTERNATIONALE SUR LA GESTE DES BENI HILAL. 1980. INSTITUT NATIONAL D'ARCHEOLOGIE ET D'ARTS. TUNIS. p.29.

² - *Op.cit.* p.p.29-39.

³ - ابن منظور، لسان العرب المحيط، مج 4، مادة: (س ط ر)، ص: 263.

⁴ - RICOEUR P. MYTHE. ENCYCLOPAEIA UNIVERSALISE. VOL.11. pp.526.

وبالتالي، فإن هذه الاستخدامات قد تكون مختلفة عن بعضها قليلا أو كثيرا، إلا أننا لا نستطيع أن نفضل أحدها على الآخر إلا من خلال الزاوية التي ننظر منها إلى تعريف الأسطورة. ((فصراع التأويلات على أشده فيما يتعلق بالأسطورة، إذ نجد طرحين لرأيين يتواجهان: أحدهما يقول أن حقيقة الأسطورة، وكل حقيقة، ما هي إلا نتيجة للدلالة أو المعنى، والآخر يقول أن خلق الأساطير أو إنتاجها، ما هي إلا تنوع منطقي، وتمارين في التنظيم، ونشاط تجمعي. وللأسطورة طريقتها في التعبير، وهي طريقة منطقية تقوم على التمييز، التقابل، التوافق، كأى تفكير منطقي. والأهم ليس الطريقة بل هو الشكل وهو الأساس: فالأسطورة تقول شيئا ما لشخص ما عن شيئا ما ((¹.

وإذا كانت هذه الملاحظة تساعدنا على تثبيت فكرة الانزياح الدلالي - التي أشرنا إليها قبل قليل - على مستوى بعض مفردات اللغة العربية، فإنها تساعدنا أيضا على ملاحظة أن نفس المفهوم أو المصطلح يستخدم بأشكال وطرق تختلف عن بعضها أحيانا حسب السياق الدلالي المعاصر الذي توجد فيه.

إن تعدد واختلاف السياقات التي تستخدم المصطلحات مثل: السيرة، الأسطورة الخرافية، الملاحم، والحكاية الشعبية، يفرض على أي باحث فرقا دلاليا يصل إلى حد الاختلاف في تحديد نوع عمل محدد على المستوى النظري، فسيرة "سيف بن ذي يزن" مثلا حكاية خرافية بالنسبة لفراس السواح²، ونفس السيرة تقع بين الأسطورة والحكاية الشعبية ذات الأصول التاريخية لدى باحث آخر³، وهي "سيرة ملحمة" في موسوعة الفلكلور والأساطير العربية⁴، بينما يعنون باحث آخر مقال له بـ: "La geste du roi Sayf"⁵، وكلمة "La geste" جمعها "Les gestes"، وهنا تأتي بمعنى ((المأثر، أو المفاخر))⁶، وفي النهاية نجد باحثا آخر يعتبر أن ((السيرة الشعبية العربية فن مستقل بذاته، وله بناؤه الفني الخاص به، وله أهدافه الفنية والاجتماعية والسياسية التي تميز بها))⁷.

وإذا كانت إشكالية المفاهيم تمر بدون تحديد في بعض الدراسات الأدبية الحديثة كالمواد الموجودة في الموسوعات، أو في بعض المقالات، وتأخذ حيزا كبيرا في دراسات أخرى، فإن الإشكاليات التي المشار إليها سابقا ستجبرنا على أن نكون انتقائيين - أكثر من اللازم أحيانا - بحيث نقطف من جميع الدراسات المتوفرة بين أيدينا أبرز العناصر التي تساعدنا على حصر المفاهيم التي سنستخدمها في هذا

¹ - Ibid. p. 526.

² - الأسطورة والمعنى: دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، دار علاء الدين سورية، ط2، 2001، ص: 16.

³ - مرتاض عبد المالك، الميثولوجيا عند العرب، ص: 11-17.

⁴ - عبد الحكيم شوقي، موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، مادة: سيف بن ذي يزن، دار العودة، بيروت، ط1، 1982، ص: 410.

⁵ - CHILHOD J. La geste du roi Sayf. p.181.

⁶ - إدريس سهيل، عبد النور جبور، المنهل: قاموس فرنسي - عربي، دار الآداب، دار العلم للملايين، بيروت، 1983، ص: 484.

⁷ - خورشيد فاروق، أدب السيرة الشعبية، الشركة العالمية للنشر، لونغمان، مصر، 1994، ص: 94.

البحث، وخاصة مفهومي السيرة والأسطورة، دون التوغل في تفاصيل كثيرة قد لا تكون لها جدوى فعلية في هذا المقام.

ويبدو أن تحديد مفهوم الأسطورة على تشعبه، يظل أسهل من تحديد مفهوم الملحمة، إذ أن مؤلف مادة الملحمة¹ أو " Epopée " في الموسوعة العالمية، على سبيل المثال، يحاول أن يقول كل شيء عن الملحمة دون أن يحاول تحديد خصائصها، فهو يتحدث عن ضرورة إعادة النظر في التعريفات المعطاة لهذا المفهوم، دون أن يعطي تعريفاً جديداً له. كما تحدث عن الإشكاليات التي تحيط به وعن وظائف " الملاحم " في المجتمعات القديمة وتلك الأحدث منها، وابتعد قدر الإمكان عن تحديد هذا المفهوم، رغم أنه أشار إلى أن الشكل الشعري هو واحد من ملامح الملحمة الأساسية، خاصة في الحضارات القديمة، إذ ((يجب أن نقر أنه بسبب ازدهار الشعر الملحمي في الشرق الأدنى، ظهر هذا الصنف في اليونان))² وفي مكان آخر، فإن: ((الملحمة قصة شعرية طويلة ذات اهتمامات بطولية وقد تكون الملحمة مدونة أو شفاهية، كما قد تجمع بين الخصيصتين أو المجالين... وعادة ما تولد الملحمة من التقاليد الأدبية الشفوية...))³.

وإذا كان الشكل الشعري أحد ملامح الملحمة فعلاً، فإنه يمكن القول - بشكل أو بآخر - أن الملحمة تختلف عن السيرة الشعبية العربية من حيث الشكل على الأقل، إذ أن السيرتين التي سنتناولهما بالدرس في هذا البحث تحديداً، تحتويان على كثير من المقاطع المصاغة شعراً، ولكن القراءة الأولية للسيرتين جعلنا نعتقد أن حذف كل المقاطع الشعرية منهما لن يؤثر على بنية السيرتين وحبكتهما، إلا تأثيراً طفيفاً يمكن تجنبه بالاستعاضة عنها بالمقاطع الشعرية الهامة - وهي قليلة - بعدة أسطر. وبالتالي فإنه يمكن استبعاد هذا المفهوم من إطار الدراسة، إلى أن نعثر على أدوات أكاديمية أفضل تمكنا من مناقشة علاقة الملحمة بالسيرة الشعبية العربية.

بعد الاطلاع على العديد من الدراسات الأدبية التي تناولت ثلاثية "الأسطورة الخرافية، والحكاية الشعبية"، ارتأينا هنا تثبيت مفهومنا للأسطورة عرضه الباحث فراس السواح في كتابه⁴، والانطلاق منه لتوضيح مفهوم السيرة الشعبية على اعتبار أن هذا المفهوم يحتوي على عدد كبير من العناصر المهمة التي يمكن اعتبارها مادة خامة جديرة بالذكر والدراسة. إذاً، يتحدث عن الأسطورة، على الشكل التالي:

1 - من حيث الشكل، الأسطورة هي قصة، تحكمها مبادئ السرد القصصي من حبكة وعقدة وشخصيات، وما إليها، وغالباً ما يجري صياغتها في قالب شعري

¹ - YOSMIDA A. EPOPEE. VOL.6. E.U. PP. 375-380.

² - Op. cit. p. 378.

³ - عبد الحكيم شوقي، موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، مادة: الملاحم تعريفها وخصائصها، ص: 622.

⁴ - الأسطورة والمعنى: دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، ص: 12 - 14.

يساعد على ترتيبها في المناسبات الطقسية وتتداول شفاهة، كما يزودها بسلطان على العواطف والقلوب لا يتمتع به النص النثري.

2 – يحافظ النص الأسطوري على ثباته عبر فترة طويلة من الزمن، وتتناقله الأجيال طالما حافظ على طاقته الإيحائية بالنسبة إلى الجماعة، غير أن خصيصة الثبات هذه لا تعني الجمود أو التحجر، لأن الفكر الأسطوري يتابع على الدوام خلق أساطير جديدة ولا يجد غضاضة في التخلي عن تلك الأساطير التي فقدت طاقتها الإيحائية، أو تعديلها.

3 – لا يعرف للأسطورة مؤلف معين؛ لأنها ليست نتاج خيال فردي، بل ظاهرة جمعية يخلقها الخيال المشترك للجماعة وعواطفها وتأملاتها، ولا تمنع هذه الخصيصة الجمعية للأسطورة من خضوعها لتأثير شخصيات روحية متفوقة، تطبق أساطير الجماعة بطابعها وتحدث انعطافا دينيا جذريا في بعض الأحيان.

4 – تؤدي الآلهة وأنصاف الآلهة الأدوار الرئيسية في الأسطورة، فإذا ظهر الإنسان على مسرح الأحداث كان ظهوره مكملا أو ثانويا لا رئيسا.

5 – تتميز الموضوعات التي تدور حولها الأسطورة بالجدية والشمولية، وذلك مثل التكوين والأصول، والموت والعالم الآخر، ومعنى الحياة وسر الوجود، وما إلى ذلك من مسائل التقطتها الفلسفة فيما بعد. إن هم الأسطورة والفلسفة واحد، ولكنهما تختلفان في طريقة تناول والتعبير، فبينما تلجأ الفلسفة إلى المحاكمة العقلية وتستخدم المفاهيم الذهنية كأدوات لها، فإن الأسطورة تلجأ في أغلب الأحيان إلى الخيال والعاطفة والترميز وتستخدم أيضا الصور الحية المتحركة.

6 – تجري أحداث الأسطورة في زمن مقدس هو غير الزمن الحالي، ومع ذلك فإن مضامينها أكثر صدقا وحقيقة - بالنسبة للمؤمن بها - من مضامين الروايات التاريخية. فقد يشكك هذا المؤمن بأية رواية تاريخية، ويعطي لنفسه الحق في تصديقها أو تكذيبها.

7 – ترتبط الأسطورة بنظام ديني معين وتعمل على توضيح معتقداته وتدخل في صلب طقوسه. وهي تفقد كل مقوماتها كأسطورة إذا انهار هذا النظام الديني، وتتحول إلى حكاية دنيوية تنتمي إلى نوع آخر من الأنواع الشبيهة بالأسطورة.

8 – تتمتع الأسطورة بقدسية وبسلطة عظيمة على عقول الناس ونفوسهم.

اعتمادا على ما سبق أعلاه، استطاع "فراس السواح" أن يخلص إلى التعريف التالي حيث يقول: أن ((الأسطورة هي حكاية مقدسة، ذات مضمون عميق يشف عن معاني ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان))¹.

سوف يساعدنا هذا التعريف على تمييز النص الأسطوري عن غيره من النصوص المشابهة له، والمتداخلة معه، كما أنه يصلح - من خلال السرد المفصل لمكونات الأسطورة- لأن يكون نقطة انطلاق جيدة لتحديد مفهوم للسيرة الشعبية، وسوف نقوم بمقارنة مكونات الأسطورة بالسيرة الشعبية نقطة بنقطة:

1 - تتفق السيرة الشعبية العربية مع الأسطورة من حيث الشكل: فهي قصة تحكمها مبادئ السرد القصصي من حبكة وعقدة وشخصيات، وما إليها، ولكنها تصاغ عادة في قالب نثري يتخلله الشعر.

2 - السيرة الشعبية تحافظ - كالأسطورة - على ثباتها عبر فترة طويلة من الزمن وتتناقلها الأجيال طالما حافظت على طاقاتها الإيحائية.

3 - السيرة الشعبية مجهولة المؤلف أيضا، ويمكن اعتبارها نتاج خيال جمعي. رغم نسبة بعض السير الشعبية إلى رواة محددين، غالبا ما يكونون مجهولي الهوية. وربما تنسب إلى شخص معروف تاريخيا، مثل نسبة سيرة عنتر بن شداد إلى الأصمعي.

4 - تختلف السيرة الشعبية عن الأسطورة بأن الإنسان هو البطل الرئيسي أو صاحب الأدوار الرئيسية، وحتى الثانوية، وإذا وجدت الآلهة، فإن دورها مكمل يكاد ينحصر في الدعم والتوفيق.

5 - لا تعتمد السيرة الشعبية في موضوعاتها وأهدافها على موضوعات الأصول: من أين؟ وإلى أين؟ ومعنى الحياة والوجود، بقدر ما تركز على بطل نموذجي تسرد وقائع حياته، وتجعل مضامينها مرتبطة بأهداف البطل، وكيفية وصوله إليها.

6 - إذا كان الزمن في الأسطورة مقدسا، ومختلفا عن الزمن الحالي، فإنه ليس كذلك في السيرة الشعبية؛ فالزمن المقدس بالنسبة للأسطورة هو زمن الأصول والبدائيات، وهي إما بدايات أو أحداث تحدث لمرة واحدة، بل أن بعض الأساطير ((لا يجب أن تتلى إلا في زمن مقدس))². وهو زمن يبدو مفارقا للزمن الحالي أو الزمن الدنيوي العادي، وإن احتوت على أحداث لا تاريخية. بينما نجد أن زمن السيرة الشعبية لا يفرض على مسامعها تصديق المضمون تصديقا إيمانيا أعمى. فالسيرة تروى - في نهاية المطاف - لأخذ العبرة منها وكذا الترفيه عن متلقيها. كما أن

¹ - المرجع السابق، ص: 14.

² - الياد ميرسيا، مظاهر الأسطورة، تر: نهاد خياطة، دار كنعان، دمشق، 1991، ص: 13.

أحداث السيرة وأهدافها تتدرج وتتأطر ضمن الزمن العادي دون أن تأخذ صفة الحضور الدائم كما هي الحال مع الأسطورة.

7 - قد ترتبط السيرة الشعبية بنظام ديني معين، ولكنها - على عكس الأسطورة - ليست جزء من البنية الاعتقادية للدين، كما أنها لا ترتبط بأي نظام طقسي ديني، وهي قصة دنيوية بامتياز، وإن كانت تعتمد في حبكةها على عناصر دينية. وبالتالي، فإنها لا تكتسي لدى القارئ أو المروي له أي نوع من القداسة الدينية، ولا تتطلب أي نوع من الاعتقاد الجازم بصحتها. ولدينا في إطار المنظومة الدينية الإسلامية ما يصلح أساساً للمقارنة من زاوية هذه النقطة: إنها السيرة النبوية. فهي كأبي سيرة أخرى تتحدث عن مولد النبي (صلى الله عليه وسلم) وحياته ومماته، وتتناول كذلك نسبه، ونشأته، ونزول الوحي عليه... إلى غاية انتقاله إلى الرفيق الأعلى. ولكن هذه السيرة تتميز عن بقية السير الشعبية الأخرى، خاصة تلك التي تناولت أشخاصاً محددين ومعروفين تاريخياً مثل: سيف بن ذي يزن وعترة بن شداد... بما يلي:

(أ) الراوي أو الرواة معروفون ومحددون: "ابن إسحاق، ابن هشام، الطبري، ابن كثير" وجميعهم خضعوا بشكل وبآخر لدراسة شخصياتهم، بحيث أن رواية هذه السيرة لا يمكن أن تقبل من أي كان، عل عكس السيرة الشعبية.

(ب) نظراً لقداسة الشخصية التي تناولتها السيرة النبوية، فإن أحداثها والمعلومات الواردة فيها قد خضعت لدراسة وتمحيص جيدين، يجعلها حتماً تتدرج ضمن إطار التاريخ - الديني خصوصاً - مما يجعلها "مقدسة" بشكل أو بآخر، ليس بنفس قداسة القرآن الكريم وكتب الحديث، إنما مقدسة على كل حال، لأنها تدخل في إطار السنة النبوية الشريفة. وقد يساعدنا الاستشهاد التالي على فهم الفكرة أكثر ((وقد دس في كتب السيرة الكثير من الأخبار الباطلة، خاصة فيما يتعلق بحياته صلى الله عليه وسلم، في مكة قبل البعثة وبعدها، ولعل المبرر لإيرادها كما أشرنا هو تقديس شخصية الرسول وحبّه. فكان هذا السبب مانعاً لنقد تلك الأخبار وتنقيتها مما علق بها من مرويات واهية، وهي إلى الأدب وفن القصص أقرب منها إلى الأخبار الصحيحة، بيد أن علماء السيرة منذ ابن إسحاق حتى اليوم، يقدمون كتبهم في الصورة التي كانوا يرتضونها لهذه السيرة، فهذا يفضل بعض الأحداث عمداً، والآخر يذكرها باختصار...، إذ تبدو شخصية الرسول في هذه الكتب بين كونه إنساناً واعتباره نبياً، أو توفيق بين نبوته وإنسانيته، أو تجنح إلى اعتباره نبياً فتؤله وتقدسه، أو تجعل منه عبقرياً لا غير))¹.

لا يعني هنا التلميح إلى أن السيرة النبوية هي سيرة أسطورية، ولكن إذ نستثنى من حقل السيرة الشعبية العربية، نشير إلى طابع القداسة الذي يحتويها:

¹ - العربي علي، أضواء على السيرة النبوية: قراءة نقدية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 2، 1995، ص: 11، 12.

فرواتها معروفون وهي تروي سيرة الشخص الأكثر قداسة في الإسلام رواية تاريخية. على عكس السير الشعبية العربية الأخرى التي لا تحمل بين طياتها أي نوع من القداسة.

إذا، نحن هنا أمام مفهوم مبدئي للسيرة الشعبية: هي - من حيث الشكل - قصة تحكمها مبادئ السرد القصصي، وتحافظ على ثباتها - كوحدة دلالية - عبر فترة طويلة من الزمن - الزمن "الحالي" الخطي - الممتد من الماضي فالحاضر فالمستقبل. وهي مجهولة المؤلف، ويمكن اعتبارها نتاج خيال شعبي غالباً، الإنسان هو بطلها الرئيسي، قد تتضمن السيرة معطيات دينية، ولكنها لا تؤلف بالأساس لتجيب على أسئلة "الأصول"، بل لتسرد وقائع سيرة شخص ما، أو أشخاص متعددين. وهي قصة طويلة حجماً، وإلا تحولت إلى حكاية شعبية، وهي قصة منزوعة القداسة بالضرورة.

هذا تعريف مبدئي جداً، مشتق من تعريف الأسطورة، ويحتاج إلى تدقيق ودراسة وبحث. إذ يمكن التساؤل هنا: ما الفرق بين السيرة الشعبية والخرافة؟ ماذا عن عنصر الغريب والعجيب في السيرة؟ ما مدى ارتباط السيرة بالتاريخ؟ وأسئلة أخرى كثيرة.

فلنبدأ الإجابة عن هذه الأسئلة مع ديرلاين: ((وعلى هذا فان الحكاية الشعبية والخرافية وأسطورة الآلهة وحكاية البطولة تتألف في عمومها من نفس الموضوعات. ومن ثم فان الفرق بين الأنواع المختلفة للرواية الشعبية لا يتمثل في الموضوع ذاته، فلا يحق لنا أن نتحدث عن موضوعات الحكاية الشعبية وموضوعات الحكاية الخرافية وهكذا، وإنما يجب أن تقوم التفرقة على أسس أخرى.))¹.

يبدو أن ديرلاين جانب الصواب حين ضم أساطير الآلهة إلى مجموعة الحكايات الشعبية والخرافية والبطولية على مستوى الموضوع، إلا أنه يقترب من الصحة عندما يقول بتقارب الموضوعات في هذه المجموعة، ويبدو أنه ركز على التعريف بالقوانين الشكلية للحكاية الخرافية، مقارنة إياها - بتوسع - بالحكاية الشعبية خاصة، وبالرغم من أن تحليله لن ينته على شكل نقاط واضحة نظرياً، ورغم أنه يربط الحكايات بالإطار الحضاري الذي جمعت منه فإننا نستطيع الاستفادة من بعض الحدود التي استخدمها لتمييز الحكاية الخرافية عن الحكاية الشعبية:

• - الخرافة لغة: " الحديث المستملح من الكذب " - ابن منظور، لسان العرب، مج 9، مادة (خ ر ف)، ص: 65.
1 - ديرلاين فريدريش فون، الحكاية الخرافية: نشأتها، مناهج دراستها، فنيها، تر: إبراهيم نبيلة، مكتبة غريب، مصر، 1959، ص: 139.

1 - أن للحكاية الشعبية بنية بسيطة، أما الحكاية الخرافية فهي مركبة ذات شكل معين. فهي في العموم لا تؤخذ مأخذ الحقيقة، في حين أن الأولى تؤخذ هذا المأخذ.

2 - أن الحكاية الخرافية بكل ما فيها من عناصر تعد أدبا، أما الحكاية الشعبية فهي تمتزج بالواقع الحقيقي في أعماق أعماقه، وليس لها طابع أدبي صرف.

3 - أن الحكاية الشعبية تصور الإنسان الوحيد، الذي يتصل بالعالم الآخر وكثيرا ما يخضع له، أما الإنسان في الحكاية الخرافية فيتصل بمحض اختياره بقوى العالم الآخر. والحكاية الخرافية ذات طريقة تجريدية في العرض، كما أنها تسمو بالموضوع والصور إلى درجة المثالية، أما الحكاية الشعبية فحسية، تصور فيها العوالم الأخرى في دقة وتفصيل. وهي لا تحكي عن العالم الآخر من أجل أن تثير في النفوس تصورا له كما هو الحال في الحكاية الشعبية، وإنما نجد في هذا العالم القوى التي تكون مساعدة أو معادية للبطل، وأن تكن لها وظيفة محددة دائما، وهي أن تقود البطل إلى الهدف المحدد من قبل.

4 - أن الحكاية الشعبية جادة في طابعها، أما الحكاية الخرافية فهي تتحرك بين ما هو جاد وما هو هزلي.

ويبدو أن هذه المحددات يمكن تلخيصها في فكرة رئيسية حاور فيها ديرلاين باحثا آخر اسمه "ماكس لوتي". إذ نورد عن "لوتي" الاقتباس التالي: ((الحكاية الخرافية لا ترتبط بالآلهة أو الأرواح العلوية بالطريقة التي ترتبط بها الحكاية الشعبية. إن الحكاية الشعبية تعرف كائنات العالم الآخر من شياطين ومردة وسحرة إلى غير ذلك. وفي استطاعة الإنسان فيها أن يتصل بشخوص العالم الآخر، في حين أن الأمر في الحكاية الخرافية على خلاف ذلك، فهي وإن كانت تحكي كذلك عن المردة والسحرة والأقزام، فإنها لا تنشئ علاقة مع عالمنا الممكن إدراكه، إذ أنها ذات بعد واحد. وهي كذلك لا تعرف التركيب المنطقي الدقيق، كما أن شخوصها غير مجسمة، بلا عالم داخلي أو خارجي، بل ينقصها كذلك عالم المشاعر، وتظل المشاعر والروابط وصلة القربى ذات مغزى إذا كانت هناك ضرورة لاستخدامها في سياق الحكاية. حتى العنصر الزمني لا تعرفه الحكاية الخرافية، كما أن الحكاية الخرافية لا تحتل أي تصوير وزخرفة أو تعليق ينتشر في أثنائها. وكلما ازداد سرد الحكاية الخرافية وضوحا، كان ذلك ضمانا لوصولها إلى هدفها وتأكيدا لأصالتها.))¹ ثم قال: ((قصاصي الشرق يميلون كثيرا إلى زخرفة الحكاية الخرافية وتصويرها، وكذلك يصنع بعض القصاص الألمان في العصر الحاضر))².

¹ - نقلا عن: ديرلاين فريدريش فون، الحكاية الخرافية: نشأتها، مناهج دراستها، فنيتها، تر: إبراهيم نبيلة، ص: 65-66.
² - المرجع نفسه، ص: 66.

وهذا ما يتفق إلى حد ما مع وجهة نظر طرحها الباحث فراس السواح، الذي قسم الحكايات إلى: حكاية خرافية. وهي حكاية ((تقوم على عنصر الإدهاش وتمتلى بالمبالغات والتهويلات، وتجري أحداثها بعيدا عن الواقع حيث تتحرك الشخصيات بسهولة بين المستوى الطبيعي المنظور، والمستوى فوق الطبيعي، وتتشابك علائقها مع كائنات ما ورائية متنوعة مثل الجن والعماريت والأرواح الهائمة))¹. وحكاية بطولية: ((تختلف عن الخرافة في أمرين: أولهما أن أحداثها أقرب إلى الواقع رغم المبالغة والتهويل. وثانيهما، وهو الأهم، أن البطل فيها يشكل صورة مثالية عن الإنسان وعن ما هو إنساني، وهي تثير الرغبة في السامع إلى تحقيق هذه الصورة المثالية... وأبطالها بشر عاديون يتحركون في جو إنساني، وأعمالهم هي نموذج سام ومتفوق لما يمكن للأفراد أن يطمحوا إليه...))².

ويورد هنا مثالين لتوضيح الفرق بين الخرافة والحكاية البطولية ((وفي الخرافة العربية نجد سيف بن ذي يزن يصرع عشرات الجن بسيفه الذي انتهى إليه من سام بن نوح، ويقضي على الغيلان في واديهم بريشة ديك مسحور، وتلتقطه العماريت الطائرة في الهواء كلما احكم عليه الأعداء حصار.))³. بينما يسوق مثال عنتر بن شداد كمثال عن القصص البطولي. ثم ينتقل إلى صنف آخر وهو الحكاية البطولية الإخبارية التي تعتمد على عدد من الواقع التاريخية، مثل الحروب الطروادية، وتغربية بني هلال في الأدب الشعبي العربي.

ثم ينتقل إلى الحكاية الشعبية التي يقول عنها: ((إن ما يميز الحكاية الشعبية بشكل رئيسي عن الحكاية الخرافية والحكاية البطولية هو هاجسها الاجتماعي. فموضوعاتها تكاد تقتصر على مسائل العلاقات الاجتماعية والأسرية منها خاصة. والعناصر القصصية التي تستخدمها الحكاية الشعبية معروفة لنا جميعا. وذلك مثل زوجة الأب الحقودة ... أو غيرة الأخوات من أخيه الأصغر المفضل لدى الأب. والذي تجتمع له خصائص الشجاعة والنبالة في مقابل الخسة والحسد والغيرة لدى أخواته. وما إلى ذلك، والحكاية الشعبية واقعية إلى أبعد حد وتخلو من التأملات الفلسفية والميتافيزيقية، مركزة على أدق التفاصيل وهموم الحياة اليومية. وهي رغم استخدامها لعناصر التشويق، إلا أنها لا تقصد إلى إبهار السامع بالأجواء الغريبة أو الأعمال المستحيلة، ويبقى أبطالها أقرب إلى الناس العاديين الذين نصادفهم في سعينا اليومي، ففي مقابل القوة الخارقة للبطل في الحكاية البطولية وتصرفاته الفروسية، فإن البطل في الحكاية الشعبية يلجأ إلى الحيلة والفتنة والشطارة للخروج من المأزق والتغلب على الأعداء. وبنية الحكاية الشعبية هي بنية بسيطة تسير في

1 - الأسطورة والمعنى، ص: 15.

2 - المرجع نفسه، ص: 16.

3 - المرجع السابق، ص: 15.

اتجاه خطي واحد، وتحافظ على تسلسل منطقي ينساب في زمان حقيقي، على عكس الحكاية الخرافية ذات البنية المعقدة التي تسير في اتجاهات متداخلة ولا تتقيد بزمان أو مكان حقيقيين¹.)

بعد هذا كله يصل السواح إلى نتيجة مشابهة لكثير من النتائج التي توصل إليها آخرون وهي: ((إن الحدود بين هذه الأجناس الأدبية التي صنعناها خارج زمرة الميثولوجيا، ليست على درجة كافية من الدقة والوضوح))².

ويبدو أن تعريف السيرة الشعبية لا يخرج عن ما طرح من تعاريف رأينا بعضها هنا رغم أنه يجب أن يكون هناك تعريف أو مفهوم واضح ومحدد لصنف قائم بذاته في الأدب العربي هو السيرة الشعبية*. لذلك يمكن أن اقتراح المفهوم التالي مبدئياً، لتسهيل مهمتنا في هذا البحث:

السيرة الشعبية هي - من حيث الشكل - قصة تحكمها مبادئ السرد القصصي وتحافظ على ثباتها - كوحدة دلالية - عبر فترة طويلة من الزمن، الزمن "الحالي" الخطي الممتد من الماضي فالحاضر فالمستقبل، وهي مجهولة المؤلف، ويمكن اعتبارها نتاج خيال شعبي غالباً، الإنسان هو بطلها الرئيسي، وقد تتضمن السيرة معطيات دينية، ولكنها لا تُولف بالأساس لتجيب على أسئلة "الأصول"، بل لتسرد وقائع سيرة شخص ما يكون بطل السيرة الأوحده، بالإضافة إلى أشخاص متعددين تتفاوت أهميتهم حسب قربهم من البطل. وهي تحتوي أساساً تاريخياً يقوى ويضعف حسب السيرة، وحسب الظرف الحضاري المقوم الذي وجدت فيه، وهي قصة منزوعة القداسة بالضرورة. وتحتوي على مبالغات تبدأ من مقدرة البطل على قتل عشرة مقاتلين بضربة سيف واحدة مثل عنتره بن شداد لتصل إلى المشي فوق الماء بواسطة خاتم مطلسم كما في سيرة سيف بن ذي يزن، وهي قصة طويلة حتماً بالضرورة - وإلا تحولت إلى حكاية شعبية، كما أن السيرة الشعبية في الإطار الحضاري العربي، تختلف عن أنواع أخرى من السير: كالسيرة الشخصية، السيرة النبوية، المناقب والتراجم وسير الأبطال والقادة المعاصرين.

ويجدر بنا، بعد تحديد مفهومها خاصاً للسيرة الشعبية العربية، تقديم السيرتين كل على حدا، وأن نتعرف على البنيات المحورية لأحداثهما، وذلك ليسهل في ما بعد التعرف على بنيات الشخصيات فيهما، ولكي لا يكون أيضاً قارئ هذا البحث في معزل عن معرفة أحداث السيرتين.

¹ - السواح فراس، الأسطورة والمعنى، ص: 17، 18.

² - المرجع نفسه، ص: 18.

* - راجع: خورشيد فاروق، أدب السيرة الشعبية، الذي أشار إلى أن السيرة صنف قائم بذاته دون أن يخلص إلى تعريف واضح.

الفصل الأول:

البنىات المحورية لأحداث سيرتي "سيف بن ذي يزن وعترة بن

شداد"

أولاً: مفهوم البنية وخصائصها.

ثانياً: البنىات المحورية لأحداث سيرة سيف بن ذي يزن.

ثالثاً: البنىات المحورية لأحداث سيرة عترة بن شداد.

أولاً - مفهوم البنية وخصائصها:

لم تنل أية ظاهرة معرفية من الاهتمام والدراسة قدر ما ناله مفهوم البنية في القرن الحالي، حيث أصبح هذا المفهوم يحتل مكان الصدارة في مختلف الدراسات الإنسانية الحديثة، سواء كانت هذه الدراسات نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو لغوية أو رياضية أو غيرها. وأصبحنا نجد الباحثين العاملين في إطار هذه المفاهيم يتحدثون عن بنية نفسية وأخرى رياضية ومنطقية ... الخ.

وهذا ما يشير إلى أن مفهوم البنية لم يعد يقتصر على الدراسات الأدبية وتشعباتها وإنما امتد ليشمل مختلف العلوم الإنسانية دون استثناء. وإن كان هذا المفهوم قد انطلق بالمستوى المتداول من خلال البحوث الجادة المكثفة والمعمّقة في علوم اللغة وتفرعاتها التي اغتنت بها مؤخراً الدراسات الأدبية بمختلف فروعها واتجاهاتها.

وسنحاول هنا، عرض مفهوم البنية كما عرفه علماء اللسانيات والبنويون.

يرى عالم النفس السويسري " جان بياجيه " أن البنية ((نظام تحويلات له قوانينه من حيث إنه مجموع، وله قوانين تؤمن ضبطه الذاتي))¹. فالبنية هي علاقات العناصر الداخلية في إطارها، ودخولها في نظام هو الذي يحفظ لها استقرارها ويضمن لها حركتها وتفاعلاتها داخل النظام ذاته، ويتيح لها أن تتوازن وتتعلق مع بنيات أخرى تحكمها أنظمة خاصة بها. ويمكن اكتشاف طبيعة هذه البنية بنتيجة التحليل الدقيق لموقع العناصر التي تتشكل منها، ولطبيعة العلاقات التي تقيمها حركة هذه العناصر. وبقدر النشاط الفعال الذي تمارسه هذه العناصر بدخولها في علاقات بعضها مع بعض، بقدر ما تمتلئ البنية غنى وحيوية. وهذا ما أشار إليه "بياجيه" عندما قال: ((تبدو البنية مجموعة تحويلات، تحتوي على قوانين كمجموعة (تقابل خصائص العناصر) تبقى أو تغتني بلعبة التحويلات نفسها، دون أن تتعدى حدودها أو تستعين بعناصر خارجية))².

إن العناصر المشكلة للبنية محكومة دائماً بقوانين صارمة، ترسخ نظام هذه العناصر وتضفي على هذا النظام خصائص كلية. والبنية لا يمكن التعرف إليها إلا

¹ - ، البنيوية، تر: عارف منيمنة وبشير أوبري، منشورات دار عويدات، بيروت، ط 3، 1982، ص: 81.

² - المرجع السابق، ص: 8.

من خلال العلاقات التي تحكم عناصرها ذاتها، وليس من خلال هذه العناصر منفصلة. وهذا ما يؤكد ضبط البنية استناداً إلى حركتها الذاتية وإلى تحولاتها. فالتحولات لا توجد أبداً إلا عناصر تنتمي للبنية ذاتها، وتخضع لقوانينها وتحافظ عليها، ولا تعود إلى ما هو خارج حدودها. وبهذا المعنى نجد أن البنية تتغلق على ذاتها. وهذا ما دفع " لالاند " لكي يقدم في معجمه تعريفاً للبنية يؤدي إلى الفهم المشار إليه، إذ يقول: ((إن البنية هي كل مكون من ظواهر متماسكة يتوقف كل منها على ما عداه، ولا يمكن أن يكون ما هو إلا بفضل علاقته بما عداه))¹. وهذا التعريف يمكن أن ينطبق على جميع البنيات مهما كان نوعها.

ثم إن زعيم حلقة كوبنهاجن الألسنية " هيلمسليف " يشير إلى أن ((البنية كيان خاص ذات ارتباطات داخلية))²، وهذا ينفي عنها أيضاً أية علاقة مع عناصر خارجية لا تنتمي إليها، أو لا تنضوي في نظامها. وهذا ما دفعه أيضاً إلى القول باستقلالية البنية. وهذه الاستقلالية تؤكد على أن عملية تحليلها يجب أن تتم من خلال علاقات عناصرها دون أية اهتمامات خارج هذا الإطار. وهذا ما يدفعنا إلى الحديث عن خصائص البنية التي تسمح لها بالاحتفاظ بقدراتها الذاتية داخل نظامها الداخلي المحكم. حيث يمكن حصرها في ثلاثة خصائص هي: الكلية، التحولات، الضبط الذاتي (التحكم الذاتي).

1 - الكلية:

وتعني أن البنية تتكون من عناصر داخلية، تقوم بينها علاقات، وتحكمها قوانين تميزها عن غيرها. وهذه العلاقات التي تقوم بين عناصر البنية لترسخ - في النهاية - مفهوم البنية لا تنتهي عند حد معين، وإنما هي تتواصل بشكل مستمر لتكوين مزيد من البنيات التي لا تنضاف إلى البنية الأساسية بشكل تراكمي، وإنما تتمفصل معها في علاقات تنبثق - في الأصل - من مقدرة البنية الهائلة على التحول إلى بنيات أخرى متعاقبة معها وفقاً لقوانينها الذاتية، ودون أن تفقد أيّاً من خصائصها. مع الإشارة إلى أن البنية تتكامل بحركة عناصرها وتحولاتها، وأن أي قطع لحركة هذه العناصر هو قطع لحركة البنية ذاتها واخللة لنظامها.

2 - التحولات:

وتعني حركة البنية المستمرة، أو حركة عناصرها، ونفي جميع مظاهر السكون عنها وذلك لكي تلبي الرغبة بما يتفق وإنتاج عدد لا نهائي من البنيات انسجاماً مع الحاجات الاتصالية للتعبير. ولو لم تكن البنية قادرة على ذلك، لفقدت اللغة حيويتها وانكفأت على ذاتها ثم تحجرت، دون أن تكون قادرة على التعبير عن

¹ - نقلا عن: إبراهيم زكرياء، مشكلة البنية، دار مصر للطباعة، د ط، د ت، ص: 43.

² - نقلا عن: بياجيه جان، البنيوية، ص: 67.

أية فعالية إنسانية متنامية. وتعد النظرية التوليدية والتحويلية في علم اللغة، والتي أسس لها "تشومسكي" أفضل ما يعبر عن خاصية التحولات.

3 - الضبط الذاتي (التحكم الذاتي):

تشير هذه الخاصية إلى قدرة البنية على التماسك الداخلي من جهة ثم العمل على ضبط هذا التماسك من جهة ثانية، الأمر الذي يؤدي بالبنية إلى نوع من الانغلاق الذي يُظهر استقلاليتها، دون أن تعني هذه الاستقلالية تجريد البنية من قدرتها على الدخول في علاقة مع بنية أخرى، ودون أن يكون هناك إلغاء لأي منهما، وإنما يتم هذا الدخول بشكل يضمن لكلتا البنيتين المتعلقتين حضوراً أكبر وثراءً أشد، لأن أيّاً من البنيتين لا تلحق بالأخرى بشكل تراكمي وإنما يتحدان في إطار النظام الجديد الذي يترابطان من خلاله.

إن خواص البنية التي تم ذكرها، هي خواص دائمة ومشاركة لأية بنية من البنيات وتعد بمثابة القانون العام الذي يحكم عمل مختلف البنيات مهما كانت طبيعتها. ويمكن أن نشير هنا إلى أن العالم الاجتماعي البنيوي "كلود ليفي ستروس" كان قد رأى أن النماذج المصوغة من العلاقات الاجتماعية والتي تستحق أن يطلق عليها تسمية "بنية"، يجب أن تلبى حصراً شروطاً محددة، منها: اتصاف البنية بطابع النظام، لكونها تتشكل من عناصر يستتبع تغيير أحدها تغيير العناصر الأخرى، وأن مجموعة التحولات التي يشكل كل منها نموذجاً معيناً يجب أن تشكل مجموعة من النماذج، مع النظر إلى أن تغيير أي عنصر من عناصر النموذج يجب ألا يمر دون إثارة ردود فعل على هذا التغيير. أما الشرط الأخير فيتعلق ببناء النموذج ذاته، بحيث يتوجب بناؤه بطريقة يتمكن عمله من تسويغ جميع الوقائع الملاحظة. وهذا ينسجم مع خواص البنية وطبيعة حركتها وعلاقاتها وقوانينها، من حيث اتصاف البنية بالكلية والتحول وال ضبط الذاتي.

ووفق هذه الخصائص سنحاول في هذا الفصل أن نحدد البنيات المحورية لأحداث السيرتين، ثم الانتقال بعد ذلك إلى تحديد بنيات الشخصيات في الفصل الثاني.

ثانياً - البنيات المحورية لأحداث سيرة سيف بن ذي يزن:

الفكرة الرئيسة التي تدور حولها قصة السيرة هي عملية نشر الإيمان والقضاء على الكفر، على يد فارس حميري يدعى سيف بن ذي يزن. بمعنى آخر نستطيع الجزم بأن الإطار العام والرئيسي للسيرة هو الإطار الديني بالأساس، فمع بداية الصفحة الأولى يعلن رواة هذه السيرة أن ((هذه قصة الأمير سيف بن ذي يزن مبيد

الكفرة أهل الشرك والمحن في سائر الأمصار والدمن ومخمد الأسحار والفتن))¹. وبعد أن يفرغ سيف من القضاء على الكفر، يولي أولاده وأتباعه على كل الأمصار التي فتحها ونشر الإيمان فيها، وفي ثنايا السيرة التي تحتوي على حوالي ألف ومائة صفحة تقريباً لا تكاد تخلو قصة رئيسية من وجود صراع بين مؤمن وكافر.

يمكن طبعا العثور على قصص أو أحداث فرعية داخل السيرة، لا تندرج تماماً ضمن الإطار الديني العام، وغالبا ما تكون هذه القصص أو الأحداث موجودة في السيرة لهدف ما، إما جمالي أو وظيفي. ولكننا إذا فكرنا في حذفها أو الاستعاضة عنها بجمل بسيطة فإن ذلك لن يؤثر بشكل كبير على مسار الحكيم، فملاعب الحكماء في عرس "عبروض" مثلا تروي قدرات الحكماء على إيهام أنظار الحاضرين بأشياء غير موجودة أصلا بهدف تسليتهم وإمتاعهم، وإذا حذفنا هذه "الملاعب" من السيرة فإن شيئا لن يتغير. وهذا ما يفسر وجود طبقات أخرى للسيرة أقل حجما، إذ أن العديد من الطبقات قامت بحذف أجزاء محددة، ولم يؤثر هذا الحذف على البنية الأساسية للسيرة.

والواقع أن كثافة الأحداث التي تشتمل عليها السيرة، تجعل عملية تقسيمها إلى بنيات محورية عملية محفوفة بالمخاطر. ولكن هذا لا يحد من إرادتنا خاصة بعد القراءة المتأنية الجادة للسيرة، حيث نجد عدة بنيات محورية، لكل واحدة منها منطقتها الخاص، ونقاط قوة وضعف.

أ - البنية المحورية الأولى: مرحلة ما قبل ميلاد البطل:

تبدأ السيرة وفق الطبعة التي نستخدمها، بالنص التالي:

((الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل وهو وكيلنا ونعم الأمين، ونعم المولى ونعم الحصين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، سبحانه وتعالى في كل وقت وحين، وأشكره شكر عبد خائف خاضع مسكين، واستغفره من كل ذنب ظاهر أو كمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنجي قائلها من العذاب المهين، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله سيد المرسلين وأمام المتقين، ورسول رب العالمين، وقائد الغر المحجلين، المخصوص بالشفاعة العظمى في يوم الدين، الذي أنزل الله تعالى عليه في كتابه العزيز من كلامه القديم. إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين - أما بعد - فهذه قصة الأمير سيف بن ذي يزن مبيد الكفرة أهل الشرك والمحن في سائر الأمصار والدمن ومخمد الأسحار والفتن، وهي قصة غريبة الوجود، والمستعان بالله تعالى الواحد المعبود الذي جعل سير الأولين عبرة للقوم الآخرين، وأخبار الأمم الماضين اعتبارا

¹ - سيرة فارس اليمن ومبيد أهل الكفر والمحن الأمير سيف بن ذي يزن، م 1، المطبعة المحمودية، مصر، 1317 هـ، ص:3.

للباقين وفضل دين الإسلام على كل ملة ودين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سائر الأنبياء والمرسلين، ونسأل الله الإعانة والتمكين والتيسير في هذا الأمر للطالبيين، ورضي الله عن سائر أوليائه الصالحين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

(قال الراوي) أبو المعالي راوي سيرة أبي الأمصاري وسائق النيل من أرض الحبشة إلى هذه الديار وبالله التوفيق، انه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان ملك من الملوك السابقين ذو عز وتمكين وهيبة عند أهل القرى والمدن. وسكان تلك الأرض والدمن لأن جميع الخلق تخشى من سطوته، والملوك تفرع من هيئته لأنه قوي الأركان شديد البطش والسلطان، ولم يوجد له مثال في ملوك الزمان. وهو من بني حمير الذين أخبرهم بين جميع الخلق شائعة، وأفعالهم عند الملوك معروفة، وكان اسمه ذا يزن، وهو ساكن بأرض اليمن، وكان له وزير عاقل عارف بالأمور، ليس جاهلا، واضح البيان، فصيح اللسان، ذو أدب وكمال، وكان عزيزا عند هذا الملك على كل حال، مرفوع الرتبة، مقبول الكلمة في عين الرضا، وهو المشير على جميع الجيوش مع حسن الدقة والفتانة، وجميع الجيوش له مطيعون ولقوله سامعون، وليس له نظير في مشرق الأرض ولا في مغربها، وكان اسمه يثرب، وقد قرأ الكتب القديمة والملاحم العظيمة، فوجد في التوراة والإنجيل وفي صحف إبراهيم، وفي مزامير داوود عليهما السلام، اسم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو من آل قريش من بني هاشم، ووجد صفته، وأنه يظهر الإسلام والإيمان ويبطل الأديان التي لأهل الكفر والطغيان في جميع الأرض ذات الطول والعرض. (قال الراوي) فلما قرأ هذه الكتب وعرف ما فيها من الباطل والحق، وترك الباطل واتبع الحق، وصدق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رسول الحق وسائر الأنبياء والرسول عليهم الصلاة والسلام، وعلم أنهم على الحق واتبع اليقين، وصار من عباد الله الصالحين وكنم إسلامه عن قومه أجمعين ولم يعلم أحد بإسلامه وما هو عليه من أتباع النبيين))¹.

نجد في هذا النص الافتتاحي للمرحلة الأولى من السيرة أن الراوي يبدأ بحمد الله والشهادة له بالوحدانية، ولرسوله محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة. وفي هذا تأكيد واضح على إسلامية السيرة. ثم يقوم بتقديم القصة على أنها قصة الأمير سيف بن ذي يزن: "مبيد الكفرة أهل الشرك، ومخمد الأسحار والفتن".

أول شخصيات هذه السيرة ظهورا هما شخصيتا "ذي يزن" الملك القوي الشديد البطش والسلطان، ووزيره "يثرب" الذكي الفطن المنقطع النظير المؤمن بالله ورسوله.

¹ - السيرة، م 1، ص: 2، 3.

هذا على مستوى التقديم للقصة- السيرة، أما الحدث الافتتاحي فيتمثل في أن "ذا يزن" استعرض عساكره أثناء الاحتفال بأحد الأعياد، ((فوجدهم عالما لا يحصى بعدد الرمل والحصى، فأمر بعرضهم عليه، وأمر بعدهم وإحصائهم))¹. فعدوهم، وعرضوا نتائج الإحصاء على الملك الذي فرح فرحا شديدا، وقال: ((وحق الأصنام، واللات والعزى ما أحد ملك مثل هذا العسكر الجرار من الملوك الكبار من مشرق الأرض ومغربها))². ثم التفت إلى وزيره "يثرب" وسأله إن كان سمع عن ملك آخر يضاهيه عزا وقوة، فأخبره عن ملك ((في بلاد المشرق يقال له بعلبك صاحب همة وبأس وقوة ومراس، عنده عساكر ورجال وفرسان وأبطال...))³. فصار الضياء في عين "ذي يزن" ظلما وحلف باللات والعزى أنه لا بد من السير إلى هذا الملك الكبير والقضاء عليه.

ورحلة "ذي يزن" للقضاء على "بعلبك" هامة في التمهيد للسيرة، نظرا لما يتمخض عنها من نتائج حاسمة، يمتد بعضها حتى آخر السيرة. فأتثناء مسيره ووزيره "يثرب"، وجيشه إلى مملكة "بعلبك" يمرون بالبيت الحرام، وإذا بالوزير "يثرب" يترجل عن حصانه فينزل ويتجه نحو بيت الله الحرام ويسجد لله تعالى، ويستغرب الملك "ذو يزن" تصرف وزيره فيروي له "يثرب" قصة البيت الحرام ويدعوه للطواف حوله... إلى آخر القصة⁴.

على اثر هذه الحادثة، يسلم "ذو يزن" على يدي وزيره يثرب، وينطق بالشهادتين على الشكل التالي: ((أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن إبراهيم خليل الله))⁵، ويأمر العساكر بالإسلام، فيسلمون جميعا، ثم يأتيه هاتف يأمره بكساء البيت فيكسوه أول مرة فيأتيه الهاتف مرة أخرى ويأمره بإعادة كسوة البيت فيعيد، وكذلك الثالثة والأخيرة، إذا النتيجة الأولى لرحلة الملك "ذي يزن" لمحاربة "بعلبك" هي إسلامه مع عساكره.

وتسير جيوش "ذي يزن" مرة أخرى نحو "مملكة بعلبك" ((مقدار سبع فراسخ وفي الفرسخ الثامن أشرفوا على واد أخضر نضر أشجره باسقة ... فيأمر الملك ذو يزن بالنزول إلى تلك الأرض للاستراحة))⁶، وفي هذا الوادي يخبر "يثرب" ملكه بالنبوءة "الموجودة في الكتب القديمة والتواريخ والملاحم العظيمة" والتي تقول بظهور سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعن هجرته صلى الله عليه وسلم من مكة إلى هذا الوادي، ويقنعه ببناء مدينة في هذا المكان، فيوافق "ذو يزن"،

1 - المصدر نفسه، ص: 3.

2 - المصدر السابق، ص: 3.

3 - المصدر نفسه، ص: 3.

4 - المصدر نفسه، ص: 4، 5، 6 و7.

5 - المصدر نفسه، ص: 6.

6 - المصدر نفسه، ص: 7.

وتبنى المدينة وتسمى باسم الوزير "يثرب"، وهذه هي النتيجة الثانية لرحلة "ذي يزن" للقضاء على "بعلبك".

يتابع "ذو يزن" وجيوشه مسيرهم إلى "بعلبك"، ويحاصر مدينته، ويتعرف عليه ويشاهد معالم مملكته، فيعجب بها، ويقول للملك "بعلبك": ((أيها الملك السعيد إنني نظرت إلى عسكري ورجالك وأموالك وذخائرك فبقي عليك حاجة أخرى وهي شجاعتك، فإما أن تقهرني أو أقهرك، وكل من قهر صاحبه استولى على ملكه))¹. فيجيبه "بعلبك" إلى ذلك، ويغلب "ذو يزن" ويهرب "بعلبك"، ((فيستولي على المملكة ووقفوا راجعين))².

وما زالوا سائرين حتى وصلوا إلى "أرض خضرة، وعيون جارية" فيأمر "ذو يزن" جيشه بالنزول، ويقرر بناء مدينة في هذه الأرض، ويستشير وزيره "يثرب" فيوافقه، ويتم بناء المدينة التي ستسمى "الحمراء" لاحقاً، وهذه هي النتيجة الثالثة من نتائج الحملة على "بعلبك" وهذه المدينة ستكون إحدى أهم المدن في السيرة مستقبلاً.

وبعد أن بنى "ذو يزن" المدينة، وأحضر جميع أهله وأقاربه وعشيرته وفرسانه وقبيلته إليها واستقروا فيها، بعد ذلك يقرر "ذو يزن" أن ((يسطو على جميع الخلق، حتى لا يبقى لي مقاوم ... وتصير الحبشة لي ... ويعطوني الخراج))³. ويستشير وزيره "يثرب" في ذلك، فيطلب "يثرب" من ملكه أن يضرب له ((تخت الرمل وأولد لك الأشكال وأنظر ما يجري لك من الأحوال، وأشير إليه بالشعر والنظام والمقال لأنني قد وجدت في الكتب القديمة والملاحم العظيمة أنه لا بد لملك من ملوك التبابعة الكرام أن يكون على يده إنفاذ دعوة نوح عليه السلام، وربما يكون أنت أيها الملك الهمام والأسد الضرغام))⁴.

وينشد "يثرب" قصيدة تتألف من سبعة وثلاثين بيتاً مفادها أن ((ملكا يملك الأرض كلها، يكون حميرياً تبعياً ومسلماً، وهذا الملك ليس ذو يزن، بل واحد من نسله يأتي عاجلاً، وعلى يدي هذا الملك تتحقق عدة نبوءات هي: إنفاذ دعوة سيدنا نوح، ومقاتلة أبطال الجيوش بعزمه وينقذهم من ظلمة الكفر والعمى، وفي عصره تخريب بلدتكم هذه "الحمراء"، وتعمر في أيامه مصر كلها ويجري بها النيل المبارك، وإقليمها يبقى مدى الدهر عامراً، ويسكنها عرب تصاحب أعجماً...))⁵.

1 - السيرة، م 1، ص: 9.

2 - المصدر نفسه، ص: 11.

3 - المصدر نفسه، ص: 2، 3.

4 - المصدر السابق، ص: 12.

5 - المصدر نفسه، ص: 12، 13.

هنا يجد القارئ نفسه أمام تلخيص المحرك الرئيسي لأحداث السيرة، فبطلها سيقوم بإنفاذ دعوة سيدنا نوح - عليه السلام -، وينقذ أبطال الجيوش من الكفر، ويعمر مصرا ويجري فيها نهر النيل. وعلى إيقاع هذه النبوءات ستتحرك كل أحداث السيرة. وهذه هي النتيجة الرابعة لحملة "ذي يزن" على "بعلبك".

وعند هذه النقطة ينتقل راوي السيرة إلى ((ملك الحبشة والسودان الحاكم على هذه البلاد والأوطان، وكان يقال له "الملك سيف أرعد"، لأن له صوتا كأنه الرعد إذا رعد ولأنه أيضا كان جبارا عنيدا وشيطانا مريدا لا يصطلى له بنار ولا يعدى له على جار... وكان ملك ملوك الحبش والسودان... تخافه جميع الفرسان والأبطال... وكان عدد عساكره ستمائة ألف فارس من كل مدرع ولابس في الحديد غاطس، وكان عنده حكيمان شيطانان ملعونان وكان أحدهما اسمه سقرديون النحيس والآخر سقرديس، وكان له وزير يقال له بحر قفقان الريف قد قرأ كتب المتقدمين وعلم علم الأمم الماضيين فوجد في الكتب العظيمة والملاحم القديمة أنه يظهر في آخر الزمان نبي قرشي يختم الله به الرسل والأنبياء الأوائل فأسلم ذلك الوزير وكنم إسلامه، ولم يبين لأحد ما هو مخفيه من إيمانه عن جميع الحبشة والسودان والأهل والجيران، وكانوا في ذلك الزمان يعبدون الكواكب من دون الملك الغالب وبالخصوص زحل من دون الله))¹.

وسبب هذا الانتقال إلى ملك الحبشة هو أن "ذا يزن" عندما قام ببناء مدينته بناها في أراضي الحبشة التابعة لـ "سيف أرعد"، الذي وصله الخبر، فجمع مستشاريه، وأبلغهم قراره بقتال ((هؤلاء العرب عدماء العقل و الأدب الذين نزلوا في أرضنا ولم يستأذنونا في ملكنا))²، فنصحه "الحكيم سقرديس" بعدم قتالهم لئلا تنفذ على يديهم دعوة سيدنا نوح، فقال له "الملك سيف أرعد": ((ما تكون دعوة نوح يا حكيم الزمان ... فقال له سقرديس: اعلم يا ملك السودان وفريد العصر والأوان والحاكم على جميع الحبشة والسودان أنه كان في قديم الزمان نبي يقال له نوح فأمر قومه أن يتبعوه في قوله وأمره ونهيه فخالفوه، فدعا عليهم، فنزل من السماء مطر ونبع من الأرض ماء وقطر فأغرق الله تعالى كل من خالف في قومه ونجا هو ومن تبعه، ففي يوم من الأيام نام في القيلولة، وأولاده سام وحام جلوس عنده، فهب الهواء على نوح فانكشفت عورته لأجل بيان سره وقصته فتقدم سام وغطى عورة أبيه. فلما نظر حام عورة أبيه لم يستره وضحك عليه، فانتهبه نوح في منامه وما كان فيه من لذيذ أحلامه، فوجد الولدين يتشاجران ويتخاصمان. وكان حام جالسا على رجليه وولده سام جالسا عند رأسه، وكان في ذلك الزمان لم يعرفوا لبس السراويل، فلما انتهبه نوح من منامه وجد حاما مبتسما، ووجد ساما غاضبا، فقال لهما مالكما

¹ - السيرة، م 1، ص: 13، 14.

² - المصدر نفسه، ص: 14.

تتخاصمان، وما الذي أنتما فيه تتشاجران، فذكر له ولده سام ما وقع من أخيه حام وكيف ضحك على كشف عورته، ولم يستره (قال الراوي) فنظر نوح إلى ولده حام وهو مغضب ودعا عليه وهو مجاب الدعوة وقال له سود الله وجهك ونسلك، وجعل نسلك وذريتك خدما وعبيدا لذرية أخيك سام ابن أمك وأبيك ...)¹.

وينصح "الحكيم سقرديس" ملكه بالقضاء على ذي يزن بالحيلة، حيث يرسل له مجموعة من الهدايا والجواري، ومن بينهن جارية تقتل "ذا يزن" وتريحهم منه من دون حرب ولا قتال، وهكذا صار. وتم إرسال الهدايا والجواري ومن بينهن ((جارية ذات حسن وجمال وبهاء وكمال، وقد واعتدال وطرف كحيل وخصر نحيل وردف ثقيل... وكان أصلها من بلاد العجم، ومن تلك الأراضي والاكم من بلد يقال له قمرا. وكان لما جاء بها جلابها استسمى الملك سيف أرعد على بلادها فقال له الجلاب قمرا واسم الجارية تحفة النار، فسماها سيف أرعد قمرية، وكانت اللعينة صاحبة مكر واحتيال ونصب وتحسن الكذب وتزخرف الضلال ...))².

كان الوزير "بحر قفقان الريف" حاضرا في مجلس الملك "سيف أرعد". فلما رأى ما حدث فيه، أرسل أحد خدامه إلى الملك "ذا يزن" يحذره مما قد يقع له من خطر. وحدث أن وصلت الهدايا قبل رسول "بحر قفقان الريف"، فشك "يثرب" في القصة وأخذ يحذر الملك ويلهيه عن الهدايا إلى أن أتى التحذير، فتم القبض على "قمرية" واستجوبها فاعترفت، ولكن الملك "ذا يزن" أحبها فتزوجها ودخل بها فحبلت منه... ، وبعد أن حبلت منه مات لأسباب لم توضحها السيرة بعد أن:

1 – أسلم ذي يزن وعساكره.

2 – بنى ذو يزن مدينة لوزيره يثرب سماها على اسمه.

3 – بنى مدينة الحمراء.

4 – ومات بعد أن عرضت النبوءات الرئيسية التي ستحرك أحداث السيرة

لاحقا والتي من أهمها: مجيء ملك من نسل ذي يزن " من قمرية " ويكون على يديه:

أ – القضاء على الكفر والشرك بالله.

ب – جريان نهر النيل.

ج - تعمير مصر.

د – تنفيذ دعوة سيدنا نوح عليه السلام.

¹ - المصدر السابق، ص: 14.

² - المصدر نفسه، ص: 15.

ب - البنية المحورية الثانية: مرحلة ميلاد البطل وتعرفه على مهامه:

تبدأ البنية المحورية الثانية لأحداث السيرة عندما ترمي "قمرية" ابنها في مكان يبعد خمسة أيام عن "مدينة الحمراء"، وذلك للتخلص من منافسته لها في الحكم لاحقاً¹. حيث وضعت ابنها تحت شجرة من أشجار ذلك المكان، ووضعت معه عقداً ثمينا من اللؤلؤ وكيساً فيه ألف دينار، وتصادف أنه عند تلك الشجرة يوجد "جر غزاة" أخذت ترضع الطفل لمدة ثلاثة أيام إلى أن أتى صياد حاول اصطياد تلك الغزاة التي نجحت في التخلص منه، فعثر على الطفل، وأخذه معه إلى داره. وكان هذا الصياد يسكن في مدينة ملكها يسمى "أفراح"، وهو أحد الملوك التابعين لملك الحبشة "سيف أرعد".

أخذ الصياد الطفل إلى "الملك أفراح"، حيث يحتفظ الملك بالطفل والعقد ويعطي الألف دينار للصياد ويصرفه². وينظر "أفراح" إلى وجه الصبي، فيحبه، وقد لاحظ وجود شامة خضراء براقية على خده الأيمن، فتعجب من ذلك، وتصادف ذلك مع قدوم "الحكيم سقرديون" لزيارته.

فلما علم "سقرديون" بقصة الطفل، ونظر إلى الشامة التي على خده فكرهه ونصح "الملك أفراح" بقتله لئلا تنفذ على يده دعوة سيدنا نوح - عليه السلام - قائلاً: ((وأعلم أيها الملك السعيد والحاكم على تلك البلاد والبيد، أنني وجدت في الكتب العظيمة والملاحم القديمة، أنه يظهر من نسل حام سودان ويسمون العبيد ويظهر في نسل سام ولد يقال له السيد اللبيد، ويظهر من نسله ولد يقال له التبغ جار الغزال، ويظهر الأهوال. ويظهر من نسلهم رجل يقال له سيف بن ذي يزن، ويكون أبوه من بلاد اليمن وتصويره بحمراء الحبش وتلك الأرض والدمن، فيعظم منه الحبشة والسودان والسحرة والرهان، ويظهر له شأن وأي شأن، ويحكم على الإنس والجان بسر سيف آصف بن برخيا وزير نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام. وأن آصف بن برخيا بنى له قصراً في أرض خراب وزخرفه بسائر الألوان وخدم فيه الجان... ولما دنا أجله وقرب من الدنيا مرتحلته قد علا سريره، وكان قد علق سيفه فوق رأسه، وكان قد أوصى خدمة القصر أنه لا يملك هذا السيف المكين... إلا رجل يقال له الملك سيف بن ذي يزن...))³. ثم أن "سقرديون" قص لـ "الملك أفراح" سبب سواد بشرة أولاد حام، وأعاد تحذيره من ترك هذا الطفل حياً.

وفي تلك اللحظة، علت الزغاريد في قصر "الملك أفراح"، وإذا بزوجته تلد طفلة وعلى خدها شامة مثل التي على خد الغلام، ويقول "سقرديون" له: ((أعلم يا

¹ - السيرة، م 1، ص: 22.

² - المصدر نفسه، م 1، ص: 23، 24.

³ - المصدر السابق، ص: 25.

ملك أنه متى اقترنت هاتان الشامتان نفذت دعوة نوح عليه السلام...))¹ فيرفض "أفراح" قتل الطفل، ((وأفرد له أمراض ودادات يخدمونه صباحا ومساءً، وقد سماه وحش الفلا... وفي يوم من الأيام إذا بحاضنة وحش الفلا تملأ ما يشرب منه من المزيرة وإذا هي تسمع قائلاً يقول: يا جارية هاتي وحش الفلا يتربى عندي مدة من الزمان والأيام حتى يكبر ويصير له من العمر ثلاثة أعوام. (قال الراوي) فما ردت الجارية عليها جواب وما أبدت من خطاب فنادتني ثاني مرة وقالت لها ذلك المقال، وثالث مرة قالت لها إذا لم تضعيه في هذا المكان يا ابنة الشيطان إن لم آخذه طوعيا آخذه كرها...))²، فوضعتة الجارية، واختفى الطفل. وبعد ثلاث سنين، أعاد الهاتفف الطفل وقد بلغ ثلاثة سنوات من العمر إلى "الملك أفراح" وحذره من أن يلمسه أحد بسوء. والسبب في ذلك - كما تقول السيرة - أن "قمرية" لما رمت الطفل في البرية رآته ملكة من الجان ومعها ابنتها "عاقصة" وزوجها "الملك الأبيض"، فأعجبت بالطفل وأستغربت وجوده في الخلاء، وحدثت زوجها عنه، فبأمرها بتبنيه، فتأخذه وتتبناه وترضعه حتى صار من العمر ثلاث سنوات. واستمر "أفراح" في تربية الطفل، وحين يكبر قليلا يعلمه الفروسية وفنون الحرب والقتال إلى ((أن اشتد ذراعه واشتد باعه... ويبادر الأقران ويقهر الشجعان... واشتهر بالفروسية... حتى بلغ في العمر أربع عشرة سنة وبلغ مبالغ الرجال... وله شامات على خده كأنها أقراص عنبر.))³.

ويرجع "سقرديون" لزيارة "الملك أفراح" مرة أخرى فيجد أن "وحش الفلا" قد كبر وصار فارسا، فيكرر نصيحته "لأفراح" بقتله أو التخلص منه، فيرسل "أفراح" "وحش الفلا" إلى واحد من فرسانه الشجعان المشهورين، اسمه "عطمطم خراق الشجر" الذي استقبله لمدة أيام وعلمه كل فنون القتال والحرب، حتى فاقه "وحش الفلا" في ذلك وأصبح أفضل منه في هذا المجال، فيطرده "عطمطم خراق الشجر".

فيخرج "وحش الفلا"، وهو غاضب حزين لا يدري إلى أين يسير، وسار في "البراري والقفار". وفي اليوم الثالث رأى مغارة فيها إنسان، فدخله، ((فرأى رجلا أعجميا شنيع المنظر يطير من عينيه الشرر... فقال له الأعجمي: اعلم يا ولدي أنني يقال لي عبد لهب، وقد قرأت شيئا كثيرا من الكتب القديمة فرأيت في ذلك الغار كنزا، وهو في ذلك المكان من قديم الزمان، وعليه الخدم من الجان، وفيه سوط من الجلد المطلسم... ولا أحد يأخذ ذلك السوط من دون المملأ إلا غلام يقال له وحش الفلا يأتي في ذلك البر والخلا... وما منفعة ذلك السوط?... فقال له ذلك العجمي: ... إنني أفهم

1 - المصدر نفسه، ص: 28.

2 - السيرة، م 1، ص: 28.

3 - المصدر نفسه، ص: 29، 30.

علوم الأقاليم، وأعرف ما يتأتى من الأحكام، فرأيت في بعض الكتب التي عندي وهي عن أبي وجدي صفة كنز... وفيه سوط مطلسم شغل الحكماء الكبار، وهو أمضى من السيف البتار، وان ضرب به شخص قتله لوقته وساعته...¹

يحصل "وحش الفلا" على السوط، ويهرب باتجاه مدينة "الملك أفراح"، فيجد أبواب المدينة مقفلة، ويجد أمام المدينة "كومين"، كوم فيه خيمة تدل أن داخلها عروسا والآخر يدل أن فيه حزنا وبؤسا، يدخل خيمة العروس فيجد "شامة"، وقد جهزها أبوها لتتزوج جنيا قبيح المنظر. يخلصها من هذا الجني بضربه بالسوط المطلسم، ويظهر أن هذا الجني أراد الزواج بـ "شامة بنت الملك أفراح" غصبا، ولم يستطع "الملك أفراح" ولا أهل مدينته رفض طلبه، وحين خلص "وحش الفلا" "شامة" أعلنت الأفراح في المدينة وتعرف "أفراح" على "وحش الفلا" وقربه منه.

"وحش الفلا" يحب "شامة"، و"شامة" كذلك تحبه، ويقرر الزواج بها، وكان "سقرديون" حاضرا في مجلس "الملك أفراح" عندما طلب "وحش الفلا" يد "شامة". يوافق الملك، ويرفض "سقرديون"، ثم يطلب منه مهرا تعجيزيا وهو رأس ((الفارس الشديد والبطل الصنديد والقرم العنيد "سعدون الزنجي"))². يوافق "وحش الفلا" ويتوجه إلى قلعة "سعدون الزنجي"، وتلحقه "شامة"، وبعد حوادث متتالية يتأخى "وحش الفلا" و"سعدون"، ويتوجهان إلى قصر "الملك أفراح" الذي خاف كثيرا من "سعدون" نظرا لقوته، وظنا منه أنه قادم ليحاربه، ولكنه يطمئن بوجود "وحش الفلا" معه.

يعيد "وحش الفلا" طلب يد "شامة" من والدها "الملك أفراح"، بحضور "سقرديون" الحكيم، يوافقان على اعتبار أنه قد أحضر المهر "سعدون الزنجي". ولكن "سقرديون" يطلب "الحلوان"، وكان "الحلوان" الذي طلبه تعجيزيا كذلك: "كتاب النيل"، وكتاب النيل هذا هو أحد الأدوات التي ستساعد "سيفا" في تنفيذ النبوءة المتعلقة بجريان نهر النيل فيما بعد.

وفي رحلته لإحضار كتاب النيل، يتعرف "وحش الفلا" على شخصيته الحقيقية والمهام الملقاة على عاتقه ((... سار يقطع البراري والآكام مدة ستين يوما بالتمام، وهو يقطع الطرقات في البراري المقفرات، ولم يجد في طريقه أحدا من المخلوقات، فأشرف على جبل عال، وحوله روضة نزهة للناظرين، بها أشجار باسقة وأنهار دافقة، وأغصان مورقة ومياه متدفقة... وفي جانب ذلك الجبل من أعلاه صومعة، فسار حتى وصل إلى تلك الصومعة وهو يقول لعل الله تعالى أن يجعل في ذلك المكان منفعة. ولما وقف على باب تلك الصومعة سمع في داخلها حس إنسان

¹ - المصدر السابق، ص: 33.

² - المصدر نفسه، ص: 41.

يذكر الرحيم الرحمن، وهو يقول: يا حنان يا منان ارحم عبدك الفان أنت الباقي وكل ما عليها فان. فلما سمع وحش الفلا حس ذلك الإنسان اطمأن قلبه، ولكن ما يعلم إن كان هذا من الإنس أو الجن، فتقدم وحش الفلا إلى باب الصومعة ودموعه على خدوده متتابعة، وصاح: السلام عليكم أيها الساكن في هذا المكان إن كنت من الإنس أو من الجن، لأنني ما رأيت غيرك في هذه الوديان. وإذا ذلك الشخص قال له عليه السلام ورحمة الله وبركاته، أهلاً وسهلاً بملك اليمن وغيرها من الأمصار والدمن والحاكم على هذه الأقطار، وسائق النيل من بلاد الحبش الى أراضي الأمصار مانع الظلم والفتن، وحاكم صنعاء وعدن، وصحاري الحبش وما يتبعها من القرى والمدن الملك سيف بن ذي يزن. انزل يا ملك عن الحصان واربطه تحت الصومعة في تلك الصخرة واصعد إلي في هذا المكان يا ملك الزمان حتى استأنس معك بالكلام وأريح نفسك من كرب السفر والآلام فانك تعبت وأنت سائر شهرين بالتمام. فلما سمع وحش الفلا ذلك المقال قال يا عمي لمن تقول هذا المقال وأنا اسمي وحش الفلا بين الرجال؟ فقال له صدقت يا ملك الزمان في هذا المقال، واعلم أن هذا الاسم سماك به الملك أفراح، أما اسمك الأعلى فهو سيف من عمد الملك المفتاح، فأطمأن وحش الفلا ونزل عن حصانه وخلع منه لجام وتركه يرعى في تلك الأراضي المتسعة ... فأخذه العبد وأجلسه إلى جانبه، فقال وحش الفلا: يا سيدي هذا الاسم الذي سمعته منك ما سمعته من غيرك، فقال: يا ولدي اسمك الحقيقي سيف بن ذي يزن الذي يقضي على الكفر والمحن لأنك تقيم العدل في الأحكام وتؤيد دين الإسلام وعلى يديك نفاذ دعوة نبي الله نوح عليه السلام،... يا ولدي لا يعبد بحق إلا الله عز وجل الذي خلق الأرض والسماء وأجرى البحار وفجر الأنهار وهو الله الواحد القهار، فقال له: يا سيدي ماذا أقول من القول المبين حتى أكون من الفائزين. فقال له: يا سيف يا ولدي قل أشهد أن لا اله إلا الله وأن إبراهيم خليل الله وأن محمد رسول الله وهو آخر الأنبياء وختامهم الذي يبعث في آخر الزمان من نسل معد بن عدنان صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه. ... أني خطبت شامة بنت الملك أفراح وبعدها طلب مني حلوانها وهو كتاب النيل وها أنا مسافر كما تراني ولا أحد دلني عليه ولا هداني فقال له الشيخ جواد وأنت إذا طفت الدنيا من المشرق إلى المغرب لا تعرف طريق هذا الكتاب إلا إذا كانت لك عناية من الملك الوهاب، ولكنك حيث أنك دخلت في دين الإسلام يلزم من مساعدتك يا ابن الملوك الكرام أقم عندي هذه الليلة حتى تبلغ المرتبة الجليلة ونصير لك على المساعدة وسيلة، فقال سيف: يا عم افعل بي ما تريد فأنا عن رأيك لا أحميد . فقام الشيخ وأتى به إلى العين وقال له: توضع معي وصار يعلمه حتى توضعاً وبعدها أجلسه للذكر والعبادة والتضرع لله صاحب المشيئة والإرادة (...)¹.

عند هذه النقطة تنطلق فعليا أحداث السيرة. إذ يحصل البطل على اسمه واسم أبيه، ويدخل في الإسلام، وتكون رحلته المخصصة للحصول على كتاب النيل فاتحة رحلات وتنقلات كثيرة وطويلة، يتمحور أغلبها حول فكرة القضاء والقدر، ومظاهر الشرك مستعينا في ذلك بمجموعة من الأنصار والأدوات السحرية، التي ترفعه إلى مقام أعلى من مقام البشر العاديين. وعند هذه نهاية هذه الأحداث تبدأ البنية المحورية الثالثة.

ج - البنية المحورية الثالثة: مرحلة تخلص سيف من أمه الشريرة وزواجه

الأول:

وهي المرحلة التي يتحول فيها البطل من شخص مجهول الهوية والانتماء والدين بارعا في فنون القتال، إلى ملك محدد الهوية والانتماء والدين، تناط به عدة مسؤوليات أهمها تحقيق النبوءات.

يتابع سيف رحلته المخصصة للحصول على "كتاب النيل"، وفي هذه الرحلة يتعرف على "الحكيمة عاقلة" التي ستكون إحدى أهم حكمائيه السحرة لاحقا. وعلى ابنتها "طامة" التي ستكون إحدى زوجاته، كما يتعرف على "عاقصة الجنية" أخته من الرضاعة، ويحصل على "كتاب النيل"، وعلى قلنسوة "الحكيم أفلاطون" التي تخفي لابساها عن الناظرين. ويتعرف كذلك على "ناهد بنت ملك الصين" التي ستكون إحدى زوجاته لاحقا أيضا. ويعود إلى مدينة "الملك أفراح" فيجد صاحبه "سعدون الزنجي" يقاتل أتباع "الملك سيف أرعد" الذي خطب لنفسه "شامة بنت الملك أفراح" تقاديا لزواجاها المحتمل من "سيف"، ونتيجة لمؤامرة حاكها "سقرديوس" وأخوه. ينتصر "سيف وسعدون" على أتباع "سيف أرعد" ويعطيان "كتاب النيل" لـ "الملك أفراح" كمهر لـ "شامة".

يتابع "سقرديوس" وأخوه حياكة المؤامرات لمنع زواج "سيف" من "شامة". وتكون النتيجة افتعال حرب بين "الملك أفراح" و"سيف وسعدون" من جهة وبين "قمرية" من جهة أخرى، أثناء الحرب تتعرف "قمرية" على ابنها وتحاول قتله مرة أخرى وتفشل. وفي هذه الأثناء يحصل "سيف" على لوح استخدام "الجني عيروض بن الأحمر"، وسيف "الملك سام بن نوح عليه السلام" على يد "الحكيم أخميم الطالب".

وبعد سلسلة من الحروب والاحتكاكات مع جيش "الملك سيف أرعد"، يتمكن "سيف بن ذي يزن" من الزواج من "شامة" في "مدينة الحمراء" على يد أمه. وستظل "قمرية" تحاول قتل ابنها لتتمكن من الانفراد بالحكم، وستكون لها سبع محاولات تبوء كلها بالفشل إلى أن تقتل على يد "عاقصة الجنية".

وإذا كانت "قمرية" في المحاولة الأولى للتخلص من ابنها قد رمته في الخلاء وحاولت قتله بالسيف في المرة الثانية ونجا، فإنها في المحاولات الخمس الأخيرة تسلك سلوكا آخر. إذ تسرق منه لوح استخدام "الجنى عيروض بن الأحمر" وتستدعيه في كل مرة وتأمره برمي "سيف" في مكان أفقر خال قاتل عله يموت فيه. وهو أسلوب يمكن راوي السيرة من التنقل بالبطل إلى أماكن مختلفة لأهداف تخدم عملية الحكى من عدة نواح:

أولها: إدخال عنصر التشويق على القصة، وثانيها: القضاء على مظاهر الكفر والشرك بالله؛ إذ ينتصر "سيف" على كل هذه المظاهر التي يصادفها في الأماكن التي ترسله إليها أمه ليموت، وثالثها: تيسير حصول البطل على مساعدين أو أدوات سحرية، مثل تلك المرة التي أمرت فيها "قمرية" "عيروضا" برمي "سيف" في "واد السحرة وفج النار" ليقته السحرة، فإذا به يهرب منهم ويتعرف على "برنوخ الساحر" الذي يكون أول ساحر يدخل إلى الإسلام على يد "سيف"، وأحد أبرز معاونيه لفترة طويلة من زمن الحكى في السيرة.

وتنتهي البنية المحورية الثالثة من السيرة، وقد تزوج "سيف بشامة" وحصل على "كتاب النيل"، وتعرف على مجموعة من أبرز معاونيه أهمهم: "سعدون"، "الملك أفراح"، أخته الجنية "عاقصة"، "عيروض بن الملك الأحمر"، "أخميم الطالب"، "الحكيمة عاقلة"، و"برنوخ الساحر". وجلس على عرش أبيه بعد مقتل أمه "قمرية".

وفي هذه المرحلة أيضا وصف مثير لأول حرب يخوضها "سيف بن ذي يزن"، إذ يبالغ راوي السيرة في وصف أحداثها، حيث يجمع "سيف أرعد" كل طاقاته لمحاربتة، وينتصر "سيف" في هذه الحرب وتكون إحدى أهم مكاسبه في هذه الحرب دخول ثلاثة من كبار فرسان السيرة إلى معسكر الإسلام وهم: "ميمون الهجام"، "دمنهور الوحش" و"سابك الثلاث"، كما أن هذه المرحلة تتضمن زواجه بـ"منية النفوس" التي ستكون سببا في بنية من بنيات السيرة الهامة.

إن الهدف من استعراض البنيات المحورية الأولى والثانية والثالثة لأحداث هذه السيرة بشكل مفصل نسبيا، فذلك لما تكتسبه هذه البنيات من تأثير حاسم على بقية السيرة، إذ تحدد الجو العام للسيرة، والمحرك الرئيسي لأحداثها.

ولكن من الآن فصاعدا، سيكون من الصعب استعراض مراحل تطور "الحكي" في السيرة بشكل مفصل نسبيا كما فعلنا سابقا، نظرا لطول السيرة وتشعب حكاياتها من جهة، ولأن الأهمية الحقيقية التي تمحور عليها بحثنا تكمن في الشخصيات المرافقة لحكايات السيرة وليس في الحكايات نفسها. لذا سنتابع تحديد البنيات المحورية الكبرى للسيرة بشيء من الاختصار. وبما أن عملية الحكى في

السيرة تعتمد بشكل رئيسي على تقنية الانتقال بالبطل من مكان إلى مكان، كما ألمحنا إلى ذلك سابقا، انتقالا جزئيا وسريعا في بعض الأحيان، وقد يكون مطولا في أحيان كثيرة. فإننا سنقسم ما تبقى من السيرة إلى أربعة بنيات محورية أو رحلات رئيسية هي التي ستحدد السياقات المفصلية، التي تنبني عليها الأحداث لاحقا:

د- البنية المحورية الرابعة: رحلة سيف لإعادة زوجته "منية النفوس":

رحلة "سيف بن ذي يزن" إلى بلاد زوجته "منية النفوس" لإعادتها هي وابنها بعدما فرت من "مدينة الحمراء" على خلفية الحنين لأهلها، وبلاد "منية" تبعد مسافة طويلة تقدر بالسنين لقاصدها من "مدينة الحمراء".

هـ - البنية المحورية الخامسة: مرحلة رحلة عيروض لجلب بذلة بلقيس:

يطلب "عيروض بن الملك الأحمر" (جني) خادم "سيف بن ذي يزن" يد "عاقصة بنت الملك الأبيض" (جنية) أخت "سيف بن ذي يزن" من الرضاعة. وتشترط الأخيرة - التي ترفض الزواج منه - الحصول على "بذلة بلقيس" التي زفت بها إلى نبي الله سليمان - عليه السلام -، هذه البذلة موجودة مع كنوز سليمان التي تبعد مسافة طويلة جدا عن مدينة "الحمراء"، يذهب "عيروض" لإحضار البذلة فيحتجزه حراس الكنز ويسافر "سيف" لإنقاذ خادمه وإحضار البذلة.

و - البنية المحورية السادسة: مرحلة تعمير مصر وجريان نهر النيل:

يشكل كثرة أتباع "الملك سيف بن ذي يزن"، وكثرة الناس التي دخلت الإسلام على يديه، ورضيت بأن يكون ملكها، عاملا حاسما في تعمير بلاد مصر، وجريان نهر النيل فيها، وهذا العنصر الهام من عناصر السيرة يتطلب رحلات كثيرة تنتهي بإتمام تعمير مصر وجريان نهر النيل فيها.

ز - البنية المحورية السابعة: مرحلة تتويج عفاشة ملكا على الجان:

يتزوج "عيروض" بـ"عاقصة"، وينجبان "عفاشة أبو يد" الذي يساعد خاله في كثير من رحلاته لنشر الإسلام، وينقذه من العديد من المآزق. ونظرا لقدراته الخارقة يطالب "عفاشة" بالسلطنة على جميع الجان، ويطلب مساعدة خاله الإنسي "سيف" على ذلك بصفته الحاكم على الإنس والجن معا. وتكون عملية تتويج "عفاشة" سببا في رحلة طويلة ذات تفاصيل كثيرة.

وتنتهي السيرة بأن يكبر أولاد "سيف"، وتخضع له عديد من الأمم، وتنفذ على يديه النبوءات المتعلقة به فيوزع أولاده ومن تبقى من أتباعه على أماكن حكمهم. ثم ((سار وسكن هذا الجبل الذي خلف القلعة وقصد يعبد الله هو ومن معه من الناس الذين من أقرانه، وهم من الملوك والحكماء الذين تبقوا معه، والملك مصر حكم مدينة مصر وأطاعته الولاية برا وبحرا وكذلك دمر وإطاعته وارتاحت الناس. وأما الملك

سيف ومن معه فأقاموا يعبدون الله تعالى حتى أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات. عند وفاة الملك سيف حضره ولده الملك مصر وواراه التراب. وكتب على قبره: هذا قبر الملك الجيوشي رحمة الله عليه وعلى من مضى من أموات المسلمين، وأقام مصر يحكم بالعدل والإنصاف إلى أن نزل به كأس الحمام سبحانه من لا يموت، وهو الدائم على الدوام.

حمدا لمن جعل في سير الأولين عبرة للآخرين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه قدوة المهتدين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. (أما بعد). فقد تم طبع قصة فارس اليمن الملك سيف بن ذي يزن، وقد اشتملت هذه القصة على ما يحض على التحلي بمكارم الأخلاق والتخلي عما يشين من خدمات السوء كالكبر والحمق والشقاق، وتكسب الجبان ملكة بها يقتدر على التحيل في تحصيل المطلوب، وتبعث الشجاع على الإقدام في صعاب الأمور، والجرأة على الغارات في الحروب، فهي بديعة في بابها جمة من الفوائد لطلابها وكان هذا الطبع اللطيف المعتبر لدى أرباب الخبرة والنظر بالمطبعة المحمودية بمصر، بشارع الصادقية إدارة الراجي عفو اللطيف محمود موسى شريف وذلك في منتصف شهر سفر سنة 1318 هجرية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى تحية. تمت))¹.

هكذا إذا تنتهي "سيرة الملك سيف بن ذي يزن". الملك الذي عاش - حسب السيرة - حياة مليئة بالعجائب والمنعرجات، والذي تحققت على يديه عدة نبوءات ما كانت لتتحقق على يد إنسان آخر، فقد قضى على جميع مظاهر الكفر والفتن وساهم في التمهيد لظهور نبي آخر الزمان "سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم"، وعمر بلاد مصر وأجرى مياه النيل فيها، ودانت له مدن وممالك كثيرة بالولاء، وكان حاكما على الإنس والجن.

ثالثا - البنيات المحورية لأحداث سيرة عنتر بن شداد:

أ - البنية المحورية الأولى: مرحلة التكوين والفروسية:

تبدأ السيرة* في حديثها عن عنتر بما اسماه الباحثين "فاروق خورشيد" و"محمود ذهني" ب "التأصيل"²، وهي المرحلة التي يقع فيها تأصيل نسب شداد والد عنتر و قبيلة عبس، ثم اثبات نسب أمه زبيبة أيضا؛ إذ يذهب بها الراوي إلى نسب النجاشي ملك الأحباش نفسه، وفي هذه المرحلة مهدت السيرة لحادثة طريفة وهي أن "شدادا" وهو من أعيان "بني عبس" لما خرج هو ومجموعة من الفرسان للغارة على "بني قحطان" وبالتحديد على قبيلة "بني جديلة" ((التي كانت تملك مضارب

¹ - السيرة، م 17، ص: 57.

* - سيرة عنتر بن شداد، المكتبة الشعبية، بيروت، دت.

² - أنظر: فاروق خورشيد ومحمود ذهني، فن كتابة السيرة الشعبية، منشورات اقرأ، بيروت، 1980.

وخياما وعبيدا وغلمانا وفرسانا وخيولا رأوا في مراعيهم ألف ناقة ترعى. ومع تلك النوق أمة سوداء وهي قائمة ترعى في تلك البقاع، وهذه الأمة عريضة الأكتاف، غليظة الأطراف، مائسة الأعطاف، مائلة الأرداف، مليحة الاعتدال كأنها غصن البان إذا مال، ونهدها مقعد وثناياها مثل البرد، وخدودها كأنها برق يتوقد، ومع تلك الأمة ولدان أطفال وهم يعينوها على رعي الجمال))¹.

((وعند ذلك لاحت من الأمير شداد التفاتة إلى تلك الأمة التي كانت تسوق النياق فجلت في قلبه، واحتوت على سرائره ولبه، وذلك لأجل ما رأى من نعومة أطرافها ولين أعطافها، وحسن لونها وغنج عيونها، وسحر جفونها وميل قدها وسماحة وجهها، ولميع خدها وحلاوة لفظها، وحسن شكلها، لها عيون احد من المنايا وبرق ثناياها المع من المرايا ومبسمها عذب وقوامها معتدل كما وصف ذلك بعضهم حيث قال:

وَفِي السُّمْرِ مَعْنَى لَوْ عَرَفْتَ بَيَانَهُ	لَمَّا نَظَرْتُ عَيْنَاكَ بِيضًا وَلَا حُمْرًا.
لِيَأَقَّةُ أَعْطَافٍ وَغُنْجٍ لَوَاحِظٍ	يُعَلِّمُنَ هَارُوتَ الْكَهَّانَةَ وَالسِّحْرًا.
وَلَوْلَا سَوَادُ الْخَالِ فِي خَدِّ أَبْيَضٍ	لَمَّا عَرَفَ الْعُشَاقُ يَوْمًا لَهُ قَدْرًا.
وَلَوْلَا سَوَادُ الْمَسْكِ مَا أَنْبَاعَ غَالِيًا	وَلَوْلَا سَوَادُ اللَّيْلِ مَا طَلَعَ الْفَجْرُ.
وَلَوْلَا سَوَادُ الْعَيْنِ فِيهَا لَمَّا زَهَا	مَحَاجِرُهَا فِي عَيْنِ عَاشِقِهَا جَهْرًا.

فلما نظر الأمير شداد بن قراد إلى ما في هذه الأمة من أوصاف زهت في عينيه، وهناك أوماً شداد فسار فتبعته إلى مكان بعيد ولم تعلم ما يريد فهناك طلب أن يغشاها فمانعته عن نفسها ولم ترض الأمر بذلك النكير لأنها كانت من بيت كبير فقال لها: ويلك أنت بقيت زوجتي وأولادك عندي ، وأنا أكرمك طاقتي، فهناك طاوعته على مراده، وقضى وطره وبرد فؤاده، وذلك لما هو عند أهل ذلك الزمان وجهل فرسان جاهلية العربان من اعتقادهم أن كل من اكتسب شيئاً فهو له حلال لكثرة الجهل والضلالة))².

أول ما نستخلصه من هذه المرحلة أنها أثبتت جذور "عنتره" وأصلت عراقه أصله وشرف نسبه، فكل من أبيه وأمه من بيت كبير، وهذا يثبت مسبقاً شرف البطل بالنسب قبل أن تثبت الأحداث بعد ذلك شرفه بأفعاله، وفي هذا المرحلة تظهر النبوءات برسالة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم). وسيختار الله "عنتره" ليقمع به الجبابرة الفاسقين في زمن الجاهلية حتى يمهد الأرض ويطهرها قبل ظهور الإسلام.

¹ - السيرة، م 1، ص: 70، 71.
² - السيرة، م 1، ص: 72، 73.

أما عن ولادة "عنتره"، فقد سبقتها إرهابات تؤكد كلها مدى أهميتها؛ فـ "زبيبة" أمه تحلم حلما رهيبا يفسر لها بأنها ستلد ولدا عجيبا متميزا، ومتفوقا على جميع أقرانه. وهذا شبيهه إلى حد ما بأمر الرسول (ص) "أمنة" التي رأت هي أيضا في منامها حلما ينبئها بميلاد الرسول (ص).

وتروي السيرة أن أمه قد ظهر عليها الحمل وكبر بطنها، وقل نشاطها وتداولت عليها الأيام والشهور حتى حان وقت الولادة، ((فلما كانت تلك الليلة أخذها الطلق كما يشاء خالق الخلق فما زالت من أولها تصرخ إلى وقت السحر حتى ولدت مولودا ذكرا اسود أدغما مثل الفيل، أفطس المنخر، واسع المناكب، واسع الحاجر معبس الوجه، مففل الشعر، كبير الأجداق، متسع الظهر، كما قال فيه الشاعر هذه الأبيات:

وَأَسْوَدُ يَحْكِي ظِلَامَ الدُّجَى كَأَنَّهُ حَجَرٌ مِنَ الْجَدِّ.

لَهُ ذِرَاعًا بَعِيدًا الْمَدَا قِوَامُهُ الْمَيَّاسُ كَالْمِرْوَدِ))¹.

إن كل هذه الصفات الغريبة تشير إلى أن المولود أسود، وقد شاء القدر أن يولد هذا الطفل على لون أمه الأسمر، فقد كانت أعطافه ومناكبه وخلقته تشبه خلقة أبيه "شداد". وأن هذه الصفات ستؤهله ليكون قوي البنية عظيم الجثة ليصبح في يوما من الأيام بطلا من الإبطال الخارقين.

فهاهو "شداد" يفرح بابنه فرحا كبيرا ويقول: ((سبحان من خلقه وسواه وبعنتر سماه، وأوصى أمه زبيبة عليه، وصار في كل الأوقات يشرف وينظر إليها))².

وما هي إلا أشهر حتى تبدأ مرحلة الطفولة في البروز، وهي المرحلة التي تبدأ عقب الولادة وفيها يظهر "عنتره" مختلفا تماما عن باقي أقرانه، فهو منذ الرضاعة لم يكن شديد الارتباط بأمه، فقد نما نموا سريعا وغريبا، وقد شمل هذا النمو البدن والعقل معا.

وقد مر عنتره في السيرة من مرحلة الرضاعة إلى مرحلة المشي مباشرة دون المرور بمرحلة الجلوس والحبو والزحف، وهذا المشي المبكر اكسبه استقلالاً في الحركة وثقة في النفس عجيبة، وقدرة غريبة على الاتصال بالعالم الخارجي وعلى قضاء حاجاته كما يريد هو، وعلى الاتصال ببيئته اتصالا مباشرا، وكشف بعضها مجاهلها بتجاربه الخاصة، وهذا ليس غريبا على هذا الطفل الذي كان ((إذا منعه أمه من الرضاع همهم وصرخ ودمدم ويزوم كما تزوم السباع وتحمر عيناه حتى تصير كأنها الجمر إذا أضرم))³.

1 - المصدر السابق، ص: 73، 74.

2 - المصدر نفسه، ص: 74.

3 - السيرة، م 1، ص: 74.

وما إن بلغ الطفل من العمر عامين حتى صار ((يدرج ويلعب بين الخيام ويمسك الأوتاد ويقلعها فتقع البيوت على أصحابها، ويعافر مع الكلاب ويمسكها من أذناها ويخنق صغارها ويقتلها ويضرب الصبيان، وإذا رأى ولدا صغيرا هابشه في وجهه ورماه على ظهره وبلغ منه المراد. وان كان ولدا كبيرا يعافر معه حتى يفتت منه الأكباد))¹.

وبقي "عنتره" على ذلك الحال حتى خرج عن حد الرضاع، وصار له من العمر ثلاث سنوات، فكبر وترعرع وفاجأ من حوله بسلوكه الغريب وشجاعته الفائقة حتى أصبح فرسان "بني عبس" يختلفون حوله، وقد اشتهى كل واحد منهم أن يناظره، وتحذته نفسه أنه عبده. وكانت الفتنة على أشدها بين أفراد القبيلة لأجل استمالة هذا الطفل، وقد ((زاد بينهم الخصام حتى كاد أن يقع بينهم ضرب الحسام، وجرد كل سيفه البتار وصار الأول منهم لا يعرف الآخر، ولولا الملك زهير الذي حسم الموقف لكانوا قرضوا أنفسهم قرضا))².

ثم يمر الطفل وهو ابن أربع سنوات بنمو جسمي سريع غير مألوف لدى الأطفال العاديين؛ فقد نمت أعضاؤه نموا غريبا، وقويت عضلاته حتى كاد يقارب "أولاد العشرين". وفي هذه الفترة من العمر يمر بعملية اختبار تكسبه الكفاءة، فيرمي إليه الملك زهير قطعة من اللحم فسبقه كلب من الكلاب إليها فخطف اللحمه وولى يطلب الهرب، وفي تلك اللحظة ((بلق الغلام عينيه وعدا وراءه وقد اشتد به الغضب فلحقه ومسكه من رقبتة وبرك عليه وأخذ اللحمه من بين فكليه، ثم ادخل يديه في فمه قبض على شذقيه فشق حنكه إلى حد كتفيه، وعاد يطلب أباه شدادا وهو يأكل من تلك اللحمه، فتعجب الملك زهير غاية العجب، وبهت فيه كل من كان هناك من سادات العرب. وقال الملك زهير: والله ما هذه الفعال إلا دليل الشجاعة لهذا الغلام المسمى عنتر، ولا بد أن يصير من أشجع الشجعان))³.

ثم صار "عنتره" ينمو ويكبر ويتنقل من مكان إلى آخر، وفي هذه المرحلة تقوى فيه غريزة حب الاستطلاع ((فيخرج مع أمه وإخوته إلى البرية والصحراء والمرعى، ويعينهم على رعي النوق والجمال في البرية الفقراء))⁴. ويتحمل "عنتره" المسؤولية ويفهم معنى استقلاله الشخصي، ويزداد علما بعالم خارجي أوسع نطاقا من عالم البيئه الأولى إلى أن كبر ((واشتدت أوصاله، وقويت عظامه واحتد كلامه، وكان إذا عاد من المرعى عند المساء يطرح نفسه بين العبيد، ويكثر عليهم الشر والأسى حتى صار كل من في الحي ضدا إليه))⁵.

1 - المصدر نفسه، ص: 74.

2 - المصدر نفسه، ص: 74، 75.

3 - المصدر السابق، ص: 75.

4 - المصدر نفسه، ص: 77.

5 - المصدر نفسه، ص: 77.

ثم يستمر في هذه المرحلة ويزداد ميله إلى الحرية فيمر باختبار ثان، اختبار القوة والشجاعة فيعرض عليه عمل صعب يتمثل في رعي قطيع من الغنم، وفي المرعى ((كان يقضي نهاره بالجري في جنبات البر، ويراكض كلاب الغنم ويتعلم من طرادها الكر والفر وفي كل يوم تزداد قوته. وبينما كان يرعى ذات يوم إذا لمح ذئبا بين الغنم فسعى نحوه إلى أن قاربه، وصرخ فيه وكان الذئب قوي الرأس صعب المراس، فلم يلتفت إليه ولا عدا عليه بل حطم على الغنم وشتتها في البر، فهجم عليه عنتر وضربه بعصاه، فجاءت بين عينيه فطيرت مخه من أذنيه وفي الحال تقدم عنتر إليه وقد شد قلبه عليه، وداسه برجله ثم بعدها قطع يديه ورجليه ورأسه من بين كتفيه، وعاد يههم ويدمدم ويزمجر كأنه الأسد الجسور، ثم انه جعل رأسه ويديه ورجليه في مخللة كانت معه وعاد إلى الشجرة وجلس موضعه جثيا على ركبتيه ثم انشد وجعل يقول:

يا أَيُّهَا الذئبُ الهُجُومُ عَلَى الرَدَى	هَآ قَدْ بَقِيَتْ مَعْفَرًا مَنهُوبَا
أُتْرِيدُ أَمْوَالِي تَكُونُ مُبَاحَةً	هَآ قَدْ تَرَكْتُكَ بِالدِّمَا مَخْضُوبَا
شَرَدْتَ أَغْنَامِي وَلَمْ تَكُ عَالِمًا	أَنِي هَزَبَرٌ لَا أزالُ ضَرُوبَا
مَا كُنْتُ تَبْغِي نَحْوَ صَيْدِي فَقَدْ	وَأفَاكَ حَتْفَكَ عَاجِلًا مَصْئُوبَا
هَذِي فِعَالِي فِيكَ يَا كَلْبَ الفِلا	وَالحَالُ أَنِي مَا شَهِدْتُ حُرُوبَا.

ولما أمسى المساء عاد فتلقته أمه وأخذت منه المخللة فوجدت فيها رأس الذئب والعراقيب، وأخبرها عنتر بما جرى فتعجبت أمه من ذلك الكلام واستهولت هذا الأقدام¹.

وما يمكن استنتاجه أن هذه المرحلة هامة جدا في حياة "عنتر الأسطورة"، حيث كل المؤشرات تدل على أنه سيرتقي إلى مصاف أبطال السير الملحميين.

ولما أشد عوده صار "عنتر" يتوسع في الفيافي ويقصد المراعي الواسعة والأراضي الخصبة البعيدة، وكانت أمه تخاف عليه وتنهاه وتعلمه لكنه كان لا يستمع لكلامها. وصار شيئا فشيئا يركب الخيل ((ويتعلم على ظهورها الفروسية والشطارة ويسوق عليها في جنوب الأقطار ويطعن بقصب الفارس صول الأصحاب ويطلب بالسيف العلو والافتخار²، وكان "عنتر" إذا خلا بنفسه في القفار يتمهر في أبواب الحرب طول النهار ويطلب بذلك منازل العز والافتخار، ثم صار يتدرب على الرماية حتى ((اشتدت أطرافه وعرضت أكتافه وكملت أوصافه بالقوة والبراعة وظهرت فيه أعلام الشجاعة، صار إذا شرد البعير يصيح عليه فيرجعه وإذا مسكه

¹ - السيرة، م 1، ص: 77، 78.
² - المصدر السابق، م 1، ص: 78، 79.

من ذيله يوقفه ثم يعافر الجمال العوالى ويجرها ويقهرها وإذا تعاصت عليه دق أعناقها وشق أجداقها فخافته جميع العبيد وهابه القريب والبعيد¹. وهذا ما جعل "الملك زهير" يقول فيه: ((والله ليكونن هذا العبد أعجوبة لجميع الناس ويكره الظلم والفساد ويسلك طريق السداد))²، وفي هذه المرحلة يتفوق على جميع الأبطال المعروفين في محيطه، وكما يسعى أيضا إلى نصرته المظلوم والانتقام من الظالم.

أما "شداد" فقد عظم حبه لولده وازداد خوفه عليه وإعجابه به، كما أن في هذه الفترة أيضا من عمره يتعرف الغلام لأول مرة على ابنة عمه "مالك" المسماة "عبلة" ((وهي في العمر أصغر من عنتر وكانت ضاحكة السن تزهو كهلال وهي مبدعة في الحسن والجمال و البهاء والكمال، وكانت تتدل على عنتر وتكثر معه المزاح لكنه كان كخادمها وهو ولد عمها))³، وقد قال فيها قصيدة واصفا فيها شمائلها وجمالها:

رَمَتِ الْفُؤَادَ مَلِيحَةً عَذْرَاءُ	بِسِهَامٍ لَحْظٍ مَا لَهْنُ دَوَاءُ
مَرَّتْ تُرِيدُ الْعِيدَ بَيْنَ نَوَاهِدِ	مِثْلَ الشَّمُوسِ لِحَاظِهَا ضِيَاءُ
فَاعْتَانِي سَقَمِي الَّذِي فِي بَاطِنِي	أَخْفِيئُهُ فَإِذَا بِهِ وَضَاءُ
خَطَرْتُ فَقُلْتُ: قَضِيبُ بَانَ حَرَكَتِ	أَعْطَافُهُ بَعْدَ الْجَنُوبِ صَبَاءُ
نَفَرْتُ فَقُلْتُ: غَزَالَةٌ مَدْعُورَةٌ	قَدْ رَاعَهَا وَسَطُ الْفَلَاءِ ظِبَاءُ
سَفَرْتُ فَقُلْتُ: الشَّمْسُ حَقًّا وَجْهُهَا	لَمَّا بَدَأَ لِلنَّاطِرِينَ ضِيَاءُ
وَبَدَتْ فَقُلْتُ: الْبَدْرُ لَيْلَةٌ تَمَهُ	قَدْ قَلَدَتْهُ نُجُومُهُ الْجَوَازُ
وَتَبَسَمَتْ لَاحَ الضِّيَاءِ مِنْ ثَعْرَهَا	وَبَدَا لِدَاءِ الْعَاشِقِينَ شِفَاءُ
اللَّهُ أَكْبَرُ يَا لَهَا مِنْ نَيْلَةٍ	تُسَبِّي الْعُقُولَ لَطِيفَةً حَسَنَاءُ
سَجَدَتْ تُعْظِمُ رَبَّهَا فَتَمَائِلَتْ	لِجَمَالِ أَعْطَافِهَا الْعُظْمَاءُ
يَا عَبْلَةَ مِثْلَ بَهَاكِ أَنِي لَا أَرَى	بِشَمَائِلَ صَارَتْ بِهَا الْأَرْجَاءُ
إِنْ كَانَ يُسْعِدُنِي الزَّمَانُ وَإِنْ أَبِي	فَلِهَمَّتِي فِي صَرْفِهِ إِزْرَاءُ ⁴

فلما سمعت "عبلة" من "عنتر" وصف شمائلها وهي بين أترابها، ازداد فرحها وإعجابها وهو إليها باهت، فاشتد بـ"عنتر" العشق والهوى وقد التهب فؤاده

1 - المصدر نفسه، م 1، ص: 80.

2 - المصدر نفسه، م 1، ص: 85.

3 - المصدر نفسه، م 1، ص: 85.

1 - السيرة، م 1، ص: 87 و الديوان: ص: 85.

بنيران الجوى، وأصبح من ذلك الحين مشغول الفؤاد، وبدأ يسقي "عبله" يوميا اللبن لشدة افتتانه وتعلق قلبه بها.

ثم يمر الغلام باختبار ثان وهو في "وادي السباع" الكثير النمر والسباع، الذي لم يكن أحد من "بني عبس" يقصده، أما عنتره فقد سار إليه بقلب جسور؛ لأن فيه أسدا كبيرا هائلا أراد أن يقتله ويفتخر على باقي العبيد ليعلموا أنه ذا بأس شديد، فقبله "عنتره" الذي يبلغ من العمر اثني عشر عاما - بلا سلاح - ((وهجم عليه ولكمه في رقبتة وقبض على شذقيه وهو ينفخ مثل ما ينفخ الثعبان الأسود وصاح بعد ذلك بصوت أزعج الوادي، ثم صبر على الأسد حتى خرجت روحه وقضى عليه وسحبه إلى خارج الوادي برجليه، ثم أنه جمع الحطب من يابس الأشجار ثم أوقد النار ثم سلخ الأسد وشق جوفه وأخرج أمعاءه وقطع يديه ورجليه ورقبتة ولف اللحم في الجلد وطرحه بعد ذلك على النار وصبر حتى نضج وصار يقطع ويبيع حتى أكله، وما بقي منه إلا العظام الخشنة حتى أنه كاد أن يشبع ثم أنه روى وغسل يديه ووجهه وبعد ذلك أتى إلى شجرة فرقد تحتها وجعل رأس الأسد له وسادة، هذا كله يجري وأبوه شداد وأعمامه ناظرون إليه))¹.

وظل "عنتره" يتعلم الفروسية إلى أن بلغ عمره أربع عشرة سنة، وهو هنا شبيه "سيف بن ذي يزن" الذي بدأ هو أيضا بتعلم الفروسية حتى بلغ سن الرابعة عشر. وهذا الاتفاق بين أبطال السيرة الشعبية يبدو غريبا الأمر الذي دفع "بروب فلاديمير" إلى أن يهتم بالحكايات الشعبية وذلك بالبحث عن الموضوعات المحورية الأساسية أو "التميمات" المشتركة التي يتكرر ظهورها في تلك الحكايات بأشكال وصور مختلفة؛ أي أنه كان ((يسترشد في دراسته وتحليله بمبدأي التماثل والتكرار))²، فاهتدى إلى تحديد جملة من الوظائف . والسير الشعبية عامة لا تزال في حاجة إلى مثل هذا العمل والجهد، حتى تتجلي حولها الحقائق، وتكتشف الأغوار والأبعاد .

وعندما نجح "عنتره" في ذلك الاختبار الثاني طلب منه أن يمد يد المساعدة لما غزا فرسان "بني عبس" على "بني تميم"، حيث أوصاه أبوه بأن يحرس البيوت والنسوان، وفي إحدى الليالي أغار عليهم مائة فارس من "بني قحطان" فساقوا الجميع بالذل والهوان، وما كان من "عنتره" إلا أن يدافع عنهم دفاعا مستميتا ويقتل بمفرده أربعين فارسا. وهذه أول موقعة يتفوق فيها "عنتره".

وهذا "الاختبار الترشيحي" كما يسميه "غريماس" سيكسب البطل الكفاءة والقدرة المادية على الانجاز، وسيؤهله للقيام بحملته الأولى على "بني قحطان" مع أولاد "الملك زهير". وقد شكره الملك على شجاعته وبلائه ((وأركبه على جواد من

¹ - المصدر السابق، ص: 94.

² - احمد أبو زيدان، الواقع و الأسطورة في القص الشعبي، مجلة عالم الفكر المجلد 17 ، العدد الأول، 1986، ص: 11.

أفخر خيول العرب وقلده بسيف مثقف ثقيل اللمس وسماه بحامية بني عبس وخلع عليه من ملابسه خلعة معلمة بالذهب ((¹.

ومنذ ذلك الحين أصبح "عنتره" مهموما بهموم عشيرته، كما أصبح يغزو مع فرسانها، فيبدأ حروبه و بطولاته من اليمن والجنوب العربي حتى العراق ومملكة النعمان فيما بين الرافدين، حتى تكاد تشمل جميع أصقاع العالم القديم المعروف كالهند وفارس ومصر والسودان والحبشة و جنوب أوروبا.

وكان لفرسه الدور الكبير في انتصاراته وقد خصصت السيرة فصولا عديدة وصفت فيها فرسه الملقب بـ "الأبجر"، وجعلته واحد من أهم الشخصيات التي تدور حولها الأحداث ((فهو الأبجر الذي ما حوى مثله كسرى ولا قيصر ولا ملوك بني الأصفر. وهو الأبجر بن نعامة الذي تحسرت عليه وعلى أمه أهل اليمامة وتمنته عرب تهامة وهو في الحرب شامة الريح أسير يديه وقرين رجله والنجم معلق بلجامه والحريز ملمس بدنه وعظام ظهره حصن لراكبه ونار لطالبه إذا حبسته ثار وإذا أطلقت طار أعلاه جبل وأسلفه جندل وظهره محمل كأنه القمر إذا ابتدر أو هلال قد أهل للبشر وكأنه الأسد إذا وثب وفي عنقه قلادة من الجواهر نورها يخطف البصر كأنه نجم انقضى على شيطان أو عفريت من جن سليمان عظيم النخوة والشأن وكأنه من عزة نفسه سلطان محجل اليد والرجل وخفته خفة غزلان وصهله جرس قوائمه حرس وعيناه ياقوتتان ويدها جناحان وعندما يلقي كأنه القبة المبنية أو العروسة المجلية))².

وقد أضفى الخيال الشعبي على أعمال "عنتره" البطولية ثوبا خرج بواقع السيرة من إطار الممكن والمعقول إلى عالم الخيال واللامعقول؛ فهو ينتصر ويتفوق على جميع الأبطال المعروفين في محيطه الداخلي ومحيطه الخارجي، وبذلك يتحدى كل المعوقات، فيرتفع شأنه ويشهد له الجميع بالتفوق، فتجتمع جميع القبائل العربية ويتسنى لـ "عنتره" أن يسمعهم قصيدته التي لم يسمع احد مثلها، ذكر فيها أخبار ما جرى له منذ الصغر، وعدد فيها من قتله وجز ناصيته ومن جرحه وسمهاها "العقيقة". ثم علقها على البيت بعد أن أعاد قصيدته "الميمية" المعروفة على البيت الحرام وجعلها في أول القصائد، فسجد لها الحاضرون ركعتين عند تعليقها، وهي مكتوبة سطرًا بالفضة و سطرًا بالذهب، ثم أمر "عبد المطلب" إلى القاضي "ابن وائل السهمي" لقراءتها فصعد المنبر فحمدل وشكر الله وقال: ((اعلموا أن هذا عنتر بن شداد الذي أذل الملوك الشداد والأبطال في حومة الحرب والجلاد فاسمعوا مقاله كما قد نظرتهم فعالة وقتاله في مجاله فهذه قصيدته العقيقة ومعانيها البهية))³. ثم انشد

¹ - السيرة، م 1، ص: 105.

² - المصدر نفسه، ص: 135.

³ - السيرة، م 6، ص: 425.

القصيدة كاملة، وهي قصيدة دالية من البحر الكامل، وتضم مائتين واثنين وأربعين بيتاً ومطلعها:

بَيْنَ الْعَوِيقِ وَبَيْنَ بُرْقَةٍ تَمَّهَدِ

طَلُّ لِعَبَلَةٍ مُسْتَهْلٍ الْمَعْهَدِ¹

ولـ"عنتره بن شداد" كثير من الوقائع المشهورة، وقد جاءت السيرة محشوة حشوا بهذه المعارك التي خاضها ضد أعدائه، ولا نظن أبداً أنه قد خاض كل هذه المعارك بل ربما حضر بعضها واختلق الرواة البعض الآخر ونسبوا إليه، فاشتبه الصحيح بالموضوع. وقد ضخم الرواة وقائعه حتى أصبحت أسطورة من الأساطير.

والجدير بالذكر أن أكثر ما قاله "عنتره" من الشعر وما نسب إليه - إن لم نقل كله - يدور حول معاركه وبطشه، أليس هو القائل:

الْيَوْمَ أُسْعِرُهَا حَرْبًا بِلَا حَطَبِ

تَفْنِي الْجَبَابِرَةَ الطَّاعِنِينَ فِي الْحَطَبِ

وَالْيَوْمَ أُسْعِرُهَا حَرْبًا تَنْزِلُ لَهُ

إِذَا عَلَوْتُ رُؤُوسَ الْقَوْمِ بِالْغَضَبِ

وَكَمْ شَجَاعَ رَأَيْ جُنْتُ طَالِبَهُ

أَلْقَى السِّلَاحَ وَوَلَّى طَالِبَ الْهَرَبِ

وَلَيْسَ لِي مُؤْنِسٌ فِي كُلِّ مَعْرَكَةٍ

إِلَّا الْجَوَادُ وَسَيْفِي وَهُوَ دُو قَضَمٍ².

فلم يبق بطل من أبطال العرب لم يبارز "عنتره"، فقد حشد له الرواة جميع صناديد الجاهلية وفرسانها الأبطال ومنهم: "المغطرس" و"صعصعة بن العوام" من "بني مزينة" و"عروة بن الورد" و"سليك بن سلكة" و"حجام بن حطام" فارس "بني كندة" و"مفرج بن هلال" من "بني شيبان"، و"المسحل بن قراح" من "بني كندة"، و"أنس بن مدركة" من "بني خثعم" وغيرهم كثيرون...

((وهو الذي قهر فرسان الهند والسند واليمن والعراق))³، ولم يكتف بهؤلاء بل ((أدل الملوك أيضاً ومنهم كسرى وقيصر وملك بني الأصفر وأذل الملك يكسوم وأسر عساكره وقتل طود الأوطاد وأفنى جيوشه))⁴، ثم ذهب إلى الهند وحارب ملكها

1 - المصدر نفسه، م 6، ص: 426.

2 - المصدر السابق، م 8، ص: 111.

3 - المصدر نفسه، م 8، ص: 111.

4 - المصدر نفسه، م 7، ص: 102.

"عبد الهياف"، ولاقى ملوك اليمن وقتل منهم أربعين وفتك بهم فتكا عظيما. وقد قاتل عنتره في كل ذلك قتال من كره الحياة واشتهى الفناء، ولعل أشهر هذه المناوشات يوم ذي قار ((الذي يعتبر من أشهر أيام العرب لما تركه في نفوسهم من أثر وقد خلد الشعراء هذا اليوم واعتبروه من أيام انتصاراتهم الفاصلة في التاريخ كما نددوا بالقبائل التي لم تشترك فيه وقد ذكر عن النبي (ص) أنه قال لما بلغه ما كان من ضفر ربيعة بجيش كسرى: (هذا أول يوم انتصفت العرب من العجم).))¹.

أما المناوشة الثانية فهي حرب السباق التي تعرف بحرب "داحس والغبراء" وقد خصصت السيرة صفحات عديدة لوصف هذا السباق، حيث اجتمع فرسان القبيلتين على "غدير الأغصان" الذي تريد الخيل أن تتسابق إليه ((وتظن "شيبوب" - أخو عنتر - إلى المكيدة التي دبرها "حذيفة" عندما أمر عبده أن يعارض داحس ويلطم وجهه ويرده إلى الوراء))² فاشتعلت اثر ذلك نيران الحرب. فأحسن فيها "عنتره" البلاء حيث أنه قتل "ضمضم المرين أبو حصين".

وتذكر كتب التاريخ إن هذه الحرب قد انتشرت خارج نطاق حدود قبيلتي "عبس" و"ذبيان"، فشملت أراضي واسعة، فتخللتها جملة أيام لها أسماؤها، ((وإذا قرأنا قصة داحس والغبراء قرأنا قصص شجاعة بطل مغوار أظهر شجاعة فائقة في هذه الحرب))³.

ولم تكف السيرة بجعل "عنتره" يخوض كل هذه المعارك بكل فطنة وذكاء بل جعلته يصارع الجان والغيلان والتنين والشياطين، ومن الطبيعي أن يتغلب هذا البطل عليها أيضا كما تغلب على باقي الأبطال الشجعان، وهو الذي قال فيه الشاعر "ربيعة بن مكرم": ((أنه فارس العصر، و نخبة الدهر، فله دره ودر والدته، فقد رأيتَه فارسا وأي فارس ما له مثل ولا مقياس، ولقد رأيتَه شجاعا عظيما وبطلا كريما))⁴.

وكثيرا ما يتحول هؤلاء الأبطال الذين تغلب عليهم "عنتره" إلى محاربين يساعدونه في معاركه، وذلك بعد أن يدركوا أن "ابن شداد" لا ينافس ولا يقهر. ويمكن أن نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر: "مقري الوحشي"، "عروة بن الورد" و"الملاعب بن الأسنة"، "الأحوص بن جعفر"، "خلف بن ندبة" و"عمر بن معد يكرب" وغيرهم كثير.

لقد استطاع "عنتره" عن طريق هذه الحروب أن يشق طريقه إلى المجد والعظمة وهو الذي قال عن نفسه:

أنا في الحرب العوان غير مجهول المكان

¹ - نوري حمودي القيسي، الفروسية في الشعر الجاهلي، مكتبة النهضة، بغداد، دت، ص: 97 .

² - السيرة، م 3، ص: 84.

³ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ص: 566.

⁴ - السيرة، م 6، ص: 33.

وَحُسَامِي مَعَ سِنَانِي يَشْهَدَا لَا يُنْكَرَانَ
وَإِذَا نَادَى مُنَاد فِي دُجَا الْهَيْجَا تَرَانِي
أَطْعَنُ الْخَصْمَ بِرُمْحِي وَهُوَ يَقْظَانُ الْجِنَانَ
ثُمَّ أَسْقِيهِ الْمَنِيَا وَهُوَ مِنِّي غَيْرُ دَانِي¹.

وهكذا اعترف العرب به وبنسبه بعد أن أثبت أمرين اثنين: القدرة على الفروسية والقدرة على نظم الشعر.

ثم يمر "عنتره" بعد ذلك كله باختبار آخر، ولكنه يختلف هذه المرة عن الاختبارات السابقة، حيث لم تتعلق المسألة بقوته وشجاعته وقدرته على خوض المعارك، وإنما أصبح المطلوب منه هو اختبار معرفته ومدى إلمامه بجملته من الفنون وقد حضر المجلس أعيان كبار نذكر من بينهم ((الشيخ عبد المطلب وشيخ العرب دريد بن الصمة وكثير من السادات و الفرسان وأصحاب القوائد المعروفين مثل طرفة بن العبد وعمرو بن كلثوم وامروء القيس وزهير بن أبي سلمى ووليد والحارث بن حبيب اليشكري))². وكل هؤلاء الشعراء قد حملوا حملا بسبب وبدون سبب على مقارعة "عنتره" ومناظرته، كل هؤلاء قد تصدوا له لكنهم رجعوا جميعا خاسرين في الفصاحة والأدب.

لقد سئل "عنتره" في هذه المناظرة اللغوية - بينه وبين امرؤ القيس - عن أسماء السيوف فذكر أكثر من سبعين اسما، ومن الرمح وألقابه فذكر أربعين، وعن الدروع وأنواعها فذكر ثلاثين، وعن الجياد وألقاب الخيل فأورد عشرين، وعن أسماء النوق فذكر خمسين، وعن الخمرة فذكر ثلاثين، وأخيرا سئل عن أسماء الحيات فذكر خمسين اسما، وكان في كل أجوبته سريع الإجابة، حاضر البديهة وحاد الذكاء واثقا من نفسه، فطرب كل من حضر من فرسان العرب والسادات والأبطال وقالوا جميعا: ((لقد شمل هذا الرجل الفصاحة والشجاعة والكرامة والبراعة وقال امرؤ القيس: اشهدوا علي يا سادات العرب ويا أهل الأدب هذا الأمير عنتر قد أدخلناه في سحابنا وهو والله أفصح منا لسانا وأقدر منا على لقاء الشجعان))³. فكانت هذه فرصة لترك الحرب بين الطائفتين القحطانية والعدنانية بعد العداء الطويل الذي دام لسنوات عدة.

أما عن زواجه من "عبلة"، فذلك أمر شغل بال الرواة، وقد أبت السيرة الشعبية إلا أن تجازي "عنتره" على كل الأعمال التي قدمها طيلة حياة كاملة مملوءة بالمغامرات والأهوال، وكأن الذهنية الشعبية لم تقبل أن يمني "عنتره" بخيبة أمل خاصة وأنه قد قاسى في حب "عبلة" الشدائد، وأخباره معها كثيرة ملأت كل أجزاء

¹ - السيرة، م. 1، ص: 97. الديوان ص: 221، 222.

² - المصدر نفسه، م 5، ص: 200.

³ - المصدر السابق، م 5، ص: 204.

السيرة وقد نظم أكثر القصائد فيها، وما كان يخوض المعارك إلا رغبة في استمالت قلبها أو خوفا عليها، كيف لا يقع في غرامها وهي قد كانت دائما ((بارعة الحسن والجمال، بوجه كأنه البدر التمام وبعيون ترمي القلوب بسهام حاجبين خطا بقلم الرحمان، وفم كأنه خاتم سليمان، وشفاف كأنها عقيق أو مرجان وصدر كأنه الرخام، ونهود تشبه الرمان وبطن كأنه طيات عجان وخدود كأنها الورد في بستان، وسرة تسع أوقية دهن بان، وأفخاذ أنعم من ريش النعام))¹.

وقد قال فيها "عنتره" شعرا كثيرا جمع بين الجمال في الوصف والبراعة في التعبير فهو القائل:

فيا عبلة قد كَلَّ مني اللسانُ

بتعدادٍ وصفك ذاتِ الدلال

فَقَدْ كَبَانَ عُصْنَ النَّقَا

قَويمٌ لَدَى المَيْلِ والاعتدال

وتَعْرُكُ يحكيه دُرُّ النِظَامِ

فكيف تُشَبِّهُهُ بالآلي

ونهداكِ قد خُلِقَا فِتْنَةً

فَيَحْفَظُكَ اللهُ رَبُّ الجَلالِ

ووجهك يحكي هلالَ السماءِ

قريبُ الصِّفَاحِ بعيدِ المَنالِ

عليكِ السلامُ بطولِ الدوامِ

فإنِّي مَدَى العُمُرِ ما قط سالي².

ولهذا كله كانت "عبلة" هدف جميع شبان العرب، لكنها آثرت "عنتره" عليهم جميعا؛ لأنها تحبه وقد ظلت معجبة بشجاعته وبطولته، وقد ذكر رواة السيرة أنه لم يكن في ذلك الزمان أكبر من جثة "عنتره"، فقد وصفته بأنه ((طويل القامة طوله سبعة أذرع هاشمي وعرضه ثلاثة أذرع، وطول شنباته نصف ذراع، ووجهه ثلثا ذراع، وفمه ربع ذراع، وكل عين من أعينه متر))³، وقد كان كبير الأطراف، كبير الرأس، غليظ السواد عظيم الخلقة، وتذكر السيرة مدى أعجاب "عبلة" بحبيبها حين نظرت إليه مرة ((كأنه فحل جاموس ورأت جسمه وهو عريان، كأنه قطعة أبنوس

¹ - المصدر نفسه، م 2، ص: 299.

² - السيرة، م 1، ص: 107.

³ - المصدر نفسه، م 7، ص: 230.

وفيه ضربات السيوف فصارت عبلة تضحك عليه وتعجب من جثته وعظم همته وتبتسم في وجهه من محبتها له ¹، ومن هنا كان لا بد لـ "عنتره" أن يفوز بـ "عبلة" وأن يقهر في نفسه العبودية، وأن يقضي على التفرقة والعصبية العنصرية، فيطالب عمه - مالكا - بأن يزوجه أبنته، لكن عمه لم ينس أبدا "لونه الأغلس ووجهه الأفتس"، ووظيفته الوضيعة، ذلك أنه كان راعيا لإبل "بني عبس"، ولم ينس أيضا أمه الأمة السوداء، فحاول أن يتخلص منه باشتراط شروطا تعجيزية مجحفة. استطاع عنتره أن يتحدى كل الصعوبات لتحقيقها ((فكانت رحلته إلى أرض العراق في طلب المهر والصداق، وقد جرى له ما جرى في أخذ النوق العصافير))² من "الملك النعمان".

ثم يواصل "عنتره" رحلته إلى "مكة" ليفوز بالاعتراف به كأحد شعراء المعلقات الخالدين، فتعلق معلقته الشعرية إلى جوار "الخوالد" من معلقات شعراء العرب على أستار الكعبة، وعندها فقط أصبح من حقه أن يفوز بـ "عبلة"، وأن ينتصر على حساده الكثيرين، وأن يتزوج من رفيقة صباه وحب شبابه، ليتوج بهذا تفوقه على نفسه وعلى الآخرين جميعا، فيحدد يوم الزفاف، وكان الذي اجتمع بفرح أبي الفوارس "عنتره" مائة وسبعون ألف جواد، وحضر سادات العرب وأكابر القبائل العربية، وتوالت الوفود مثقلة بالهدايا، وكان يوم الوليمة مشهودا، حيث ذبحت فيه خمسة آلاف ناقة، وتسعة آلاف جمل وألف فرس وخمسون ألفا من الضأن وسبعمئة سبع ((ولأجل ذلك اشتهر زواج عنتر في السهل والجبال وضربت به المثال ودامت الأفراح سبعة أيام متتاليات وقد شكر الجميع الملك الديان الذي أجاز عنتر من رق العبودية وأعطاه الكرم والشجاعة والفروسية))³. وكانت هذه فرصة لنظم القصائد الشعرية لمدح "عنتره بن شداد" و"عبلة" ابنة "مالك" اخترنا من بينها ما قاله "معد يكر ب الزبيدي" مخاطبا "عنتره":

يومٌ بعُرسِكِ أشرقتْ أنوارُهُ

وعلا بطالعِكِ السعيد منارُهُ

يا عنتر الفرسان أبشرْ بالمُنَى

وبلوغِ سؤالِ في الدنيا تختارُهُ

فافخرْ على كل الأنام بسؤددِ

قد أيقنُوا أن الفخارَ فخارُهُ

فاقبلْ بفضلِ الهديةِ سيدي

¹ - المصدر السابق، م 3، ص: 311.

² - المصدر نفسه، م 3، ص: 223.

³ - المصدر نفسه، م 3، ص: 230.

من صاحبٍ حلت بدارك داره¹.

وهكذا تتم قصة حبه وزواجه من معشوقته "عبلة"، بعد أن ذاع صيته وسما ذكره في الفروسية والشعر ((فتصبح المرأة في هذه الحالة رمزا للانتصاره ولطموحاته، ويصبح الحب أيضا في هذه الحالة رمزا لتطلعات البطل إلى الوجود الأفضل والمعنى الأسمى في الحياة، ويصير الانتصار في الحب لا هدفا إنسانيا وحسب ولكنه هدف جمالي بالمعنى الفلسفي، إذ يغدو تحقيقا لكل ما هو شريف وجميل في حياة البطل))²، ومن هنا ارتبط معنى الحب بمعنى التفوق والصمود ((فالحب في سيرة عنتره ليس مجرد علاقة بين رجل وامرأة وإنما هو علاقة بين الرجل ومثله العليا أو بينه وبين طموحاته نحو التفوق على نفسه وعلى الآخرين على (السواء))³.

وهكذا تبقى "عبلة"، في كامل السيرة، المرأة الوفية التي تمثل النساء العبيات جميعهن بل تتعدى ذلك لتصبح رمزا للمرأة العربية بجميع خصالها، ولم نعرف عنها أنها أنجبت من "عنتره"، لكن السيرة تطلعننا على أن "عنتره" تزوج بالعديد من النساء، وقد أنجب منهن ذكورا وإناثا كانوا جميعا خير معين لأبيهم "عنتره".

وضمن هذا الإطار نطرح السؤال التالي: لماذا فرضت السيرة ما يشير إلى هذه النقطة رغم ما يعرف عند العرب قديما من شغف كبير بإنجاب الأطفال؟ فهل هو رفض من الذهنية الشعبية العربية من إعادة المأساة مرة ثانية لو أنجبت عبلة ابنا يكون لون بشرته أسود كأبيه؟ أم أنها أرادت أن تضع حدا لهذه المأساة دفاعا عن عراقة العربي وأصالته؟

ب - البنية المحورية الثانية: المرحلة الأسطورية:

بعد إن أقر الجميع لـ "عنتره" بالتفوق في جميع الميادين، وبعد أن تيقن هو من نفسه أنه تجاوز كل الصعوبات، وأنه انتصر على همومه الشخصية، وعلى هموم عشيرته وقومه، يدخل عالما غريبا فيجد البطل نفسه وجها لوجها مع قوى غيبية خارقة للعادة ((وفيها تختبر قدراته من جديد في تحدي قوى أعلى من القوى البشرية العادية))⁴.

و كأن نفسه الطموحة لم تكن راضية عما حققته من انتصارات باهرة وأبت إلا أن تغامر مرة أخرى لتثبت لصاحبها التفوق من جديد، فدفعته دفعا إلى الدخول في معارك ضارية ضد مخلوقات غريبة لها قدرات عالية، رغبة في قهر المجهول وفي التساوي مع أصحاب هذه القدرات العجيبة، ليتسنى له تدعيم بطولته وإمكاناته الجبارة

¹ - السيرة، م 3، ص: 227.

² - خورشيد فاروق، عالم الأدب الشعبي العجيب، كتاب الهلال، دار الهلال، 1988، ص: 30.

³ - المرجع نفسه، ص: 31، 32.

⁴ - خورشيد فاروق، السيرة الشعبية العربية، مجلة عالم الفكر، ص: 276.

وليثبت للجميع أنه قادر على أن ينتصر على كل ما لا يفهمه أو يراه من مظاهر القوة الخارقة حوله، ولهذا تضمنت السيرة الشعبية جزئيات كثيرة ذات مضمون خارق للعادة. وتعددت صور عديدة للجن والسحر والطلسم والغول والتنين وكذلك خوارق العنصر الإنساني. فكيف وظفت هذه الخوارق لخدمة البطل "عنتره"؟ وهل يمكن أن تعكس ثقافة الفرد العربي وأحلامه في الوصول إلى ما يطمح إليه من مجد وسؤدد؟

قبل أن نجيب عن ذلك نحاول أن نعرف كيف صورت السيرة هذه الخوارق. لقد أرادت السيرة أن تجعل من "عنتره" بطلا كبيرا فصورت بطولته تصويرا خارق يفوق حد التصور، فهو بطل يخافه الإنس والجن، وتخشاها الأسود والغيلان فهو القائل:

تَهَابُهُ الْأَسَدُ فِي غَابَاتِهَا جَزَعًا

وَالجِنُّ يَغْتَالُ لَا يُثْنِيهِ جُلْمُودٌ¹.

فعنتره هو الذي ((يعمل عملا يعجز عنه الصناديد الرجال فهو إذا طعن ضلعا دقة وإذا ضرب رأسا شقه وإذا ضرب بطلا رفعه على رأسه وجلد به الأرض فرض عظامه رضا وأي رض، وأدخل طوله في العرض فلم يدع له طولاً يعرف من عرض وخلط أضلاعه بعضها البعض))².

غريبة هي معاركه، ولنذكر نموذجا منها بين "بني عبس" و"بني زبيب" حيث يصف رواية السيرة هول هذه المعركة بقولهم: ((هذا والشباب شابت، والخيل في الدماء خاضت والرقاب طارت، والسيوف جارت، والرماح في الأجساد غارت والدنيا أظلمت، والغبار خيم، والقيامة قامت، والرجال إلى الحرب هامت، وأجساد القتلى في الدماء عامت))³.

أما مصارحته للقوى الغيبية فحدث ولا حرج، فقد ورد في السيرة أن ((وادي الشيطان كان معمورا بالجان وفي ذلك المكان شجرة ثوم كفرية كبيرة يونانية وعند الشجرة عين من الماء الزلال وهناك يسكن مارد جبار كان حبسه كاهن من الكهان من قديم الزمان وكان هذا المارد من ملوك الجان الذين آمنوا بسيدنا سليمان))⁴. وتورد السيرة أيضا ((أن هذا الجان كان عاصيا على سيدنا سليمان وصار يتعرض لكل من دخل هذا المكان من البشر))⁵، وهذه الفكرة كما يقول - خورشيد - ((نابعة من شخصية سيدنا سليمان الذي سخر له الله الريح والطير والوحش والجان وينقل لنا المأثور الشعبي أن هذا النبي حارب الجان الكافر وكان يتحكم في الجان عن طريقة

¹ - السيرة، م 1، ص: 150.

² - المصدر نفسه، م 1، ص: 272.

³ - المصدر نفسه، م 1، ص: 421.

⁴ - المصدر السابق، م 7، ص: 13.

⁵ - المصدر نفسه، م 7، ص: 13.

خاتمه السحري))¹، وفي السيرة انعكست كل هذه المآثرات الشعبية عن حياة الجن وعلاقتها بعالم البشر، وقد استطاع "عنتره" بفضل قوته وذكائه وشجاعته أن يقتل هذا المارد العجيب، وبذلك ساهم في إنقاذ حياة وممتلكات الناس.

وقد استطاع "عنتره" في أماكن أخرى من السيرة أن يسخر الجان الطيب في خدمة أهدافه وتحقيق أوامره وأن يضع نفسه في حمايته، حيث طلب منه - وكان اسمه "سلهب بن عقهب" - أن يوفي له الوعد وأن يمدّه بسيفه المطلسم المنقوش حتى يتمكن من الأخذ بثأر ابنه - "الغضبان" - وفي ذلك يقول "عنتره":

أخذتُ ثارك يا غَضْبَانُ مقتدرًا

بحدِ سيفِ صقيلِ المتنِ فَصَالِ

جَرَعتُ قاتلك كأسَ الموتِ يشرِبُهُ

بصارمِ الملكِ الشهيرِ العالِي

ضربتُ رؤوسَهُمُ بالسيفِ مقتدرًا

فساح دَمُهُمُ على الأرضِ سيال².

والطريف في كل ذلك اعتناء السيرة بوصف خلائق الجان قائله: ((هي جيوش كثيرة بخلاف الآدميين منهم أبدان بلا رؤوس و رؤوس بلا أبدان وبعضهم على صورة الطيور من النسور والعقبان وهم على سائر الألوان وبعضهم على صورة الجمال والخيول والبغال وبعضهم على صور الحيات وشيء على صفة الكلاب وشيء على صفات السباع))³.

إن في هذا العالم الغريب مزجا بين الجن والسحر يكاد يكون كاملا، وقد استطاع "عنتره" أن يتغلب على كل هذه القوى ويقهر كل هذه الخوراق، فهو القائل:

ولو ملئتُ على الجن يوماً

بأسيافٍ وسهمٍ من سموم

لقاتلتُ الجميعَ ولا أبالي

ولو كانوا كأعدادِ النجوم

فكم من ليلةٍ قد سرتُ وحدي

بغيرِ الفتيانِ مُختَلِقِ هَضُوم⁴

¹ - خورشيد فاروق، عالم الأدب الشعبي العجيب، ص: 58.

² - السيرة، م 8، ص: 65.

³ - المصدر السابق، م 8، ص: 63.

⁴ - المصدر نفسه، م 7، ص: 31.

كما نصادف أحيانا الغول، فيخوض "عنتره" صراعا معه، تتخلله أعمال بطولية وتحركات فنتازية، وتنتهي المعركة بانتصار البطل "عنتره" فهو القائل :

والغولُ بين يدي يَخْفَى تارةً

ويعودُ يظهرُ مثلَ ضوءِ المِشعلِ

بنواظرِ زُرْقٍ ووجهٍ أسودَ

وأظافرَ يُشْبِهُنَ حَدَّ المِنْجَلِ

فإذا رأتُ سيفي تَضِجُ مخافةً

كضجيجِ نُوقِ الحَيِّ عِنْدَ المَحْمَلِ¹.

وتتردد صورة الغول في تراثنا الشعبي في أكثر من شكل وأكثر من مكان، وكلها من صنع الخيال الشعبي الذي رسمها في صورة غريبة وعجيبة، تجمع صفات العنف والقسوة والبطش، يقول المسعودي : ((وللعرب في الغيلان والتغول أخبار ظريفة لأنهم يزعمون أن الغول تتغول لهم في الخلوات، وأنها تظهر لخواصهم. فهي أنواع من الصور فيخاطبونها وربما يتباغضونها، ويزعمون أن رجليها رجلا غير. وكانت تراءى لهم في الليالي وأوقات الخلوات فيتوهمون أنها منهم فيتبعونها فتزِيلهم عن الطريق الذي هم عليه وتنتيهم))².

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن، كيف صورت سيرة "عنتره" شخصية الغول؟

لقد ذكرت السيرة الغولة في صيغة التأنيث فهي ((مخلوق عجيب له رأس كراس الكلب وعينان مشقوقتان بالطول وساقان كساق الجمال وجلد كجلد الفيل الأسود))³.

أما التنين فهو أيضا من إبداع الخيال الشعبي الذي جعله عملاقا ضخما بحيث خرج في وصفه عن كل ما هو مألوف، ومعظم الروايات تتحدث عن أن التنين يعيش في البحار لكن في سيرة "عنتره" هو حيوان بري ((يدب على الأرض وخلفه ذنب ينجر مقدار عشرين ذراعا، وذلك الدبيب في القدر ما يحضنه عشرة رجال شرار النار يتطاير من أحداقه وله ذوانب شعر في رأسه وعلى ظهره منشورات وفمه يخرج منه لهيب النار، عينه تضيء كالمشاعل لا يقف قدامه جيوش ولا قبائل وله لسان يزغرت مفروق فرقتين يندهل من رؤيته، كل عين بدماغ كأنه القبة العظيمة

¹ - المصدر السابق، م 5، ص: 147.

² - مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 2، بيروت، دم ط، 1966، ص: 199.

³ - السيرة، م 6، ص: 202.

عريض طويل أغبر أنقط أبقع إذا هاج يضيق عليه المتسع ومن مناخيره يطلع الدخان ويصعد في الجو إلى العنان))¹.

إن هذا المخلوق العجيب رغم قوته، فقد استطاع "عنتره" أن يخمد أنفاسه في الحال ويأخذ رأسه في يده وهي قدر "رأس الفيل العظيم وهي رأس ثعبان". ومهما يكن من أمر، يبقى التنين رمزا للقوى المخيفة والمجهولة التي يصارعها البطل "عنتره" ليؤكد تفوقه الدائم على كل صور الشر وان عظمت، فالإنسان هو دائما هازم الشر وصانع الحياة.

إلى جانب ذلك، تصادفنا في السيرة أدوات سحرية كثيرة، وهي أدوات يستعملها البطل في صراعاته ضد القوى الغيبية لعقاب الجن الكافر أو الغول الشرير أو التنين الخطير، ونذكر على سبيل المثال: السيف المطلسم أو "التعويذ" الذي مكن "عنتره" من أن إنقاذ "عبلة" من سحر الكاهنة، ومع هذه الأدوات يأتي الذكاء والحيلة والقدرة على التفكير وخداع الأعداء والتمكن من معرفة الأسرار المخفية والإطلاع على ما في النفوس من شر كامن وراء الظاهر الخادع.

إن كل هذه الحكايات المتعلقة بالجن والغول والتنين وسائر الخوارق الأخرى إنما هي تعكس أحلاما قديمة لتطلعات الفرد العربي في تخلصه من المآزق التي تحول بينه وبين تحقيق غاياته، وفي هذا الإطار نذكر مغامرات "عنتره" للحصول على مهر "عبلة"، فهو يقاسى الأهوال ويلقي بنفسه إلى التهلكة للوصول إلى الملك "المنذر" والظفر بالنوق العصافير التي لا يملكها إلا هو، ونذكر كذلك تغلب "عنتره" على أشهر الفرسان وبالخصوص حساده الطامعين في الظفر بود حبيبته "عبلة"، ولا ننسى كذلك تفوقه الواضح على "طرفه بن العبد" - أحد الشعراء المعروفين - عندما ذكر له أن الغول تخاف منه وتخر ساجدة له.

وبهذا استطاع البطل أن يحقق جميع أهدافه وتطلعاته، حتى لو كان ذلك عن طريق الأحلام. واستطاع أيضا أن يطهر الأرض من كل هذه المخلوقات الغريبة فثبت لنفسه وللناس جميعا أنه أهل بتلك المكانة التي يحظى بها؛ ذلك أنه أشهر فرسان "بني عبس" وأشعر شعرائهم، وأهل أيضا بابنة عمه "عبلة".

ج - البنية المحورية الثالثة: المرحلة الملحمية:

لم يعد هناك مجال للشك في أن "عنتره بن شداد" قد علا نجمه وقام بدور البطولة حتى ارتقى إلى مصاف باقي أبطال السيرة الشعبية وأصبح بطلا أسطوريا. وقد اختبرت كل قدراته واستطاع أن يتغلب على كل همومه الشخصية والعشائرية والقومية، حتى أصبح رمزا للعروبة والإسلام في نفس الوقت؛ فقد خاض "عنتره"

¹ - المصدر السابق، ص: 293.

معارك عديدة ضد الفرس والروم، فهو الذي قهر فرسان الهند والسند واليمن والعراق والشام، ثم تحول إلى السودان وحاربهم وانتصر على ملكهم، ثم تمكن من ولوج "حصن خيبر" لمحاربة اليهود، واستطاع إن يفتح العديد من الجزائر كجزيرة "قيمر" بـ "عمان"، و"جزائر الواحات". ثم تحول بعد ذلك إلى قائد بحري، فتمكن من إغراق مراكب الملك "الليلمان" ملك الإفرنج، وفي هذا الإطار نذكر على سبيل المثال مواجهة "عنتر" لـ"طناجير العجم والديلم" ((فقد انطبق عنتر على فارس ديلمي فمد له يدا كأنها رقبة البعير الأسود وطبق أطواق درعه والزردي، فأخذه على يده كأنه العصفور ومسكه من رجله ولوحه كما يلوح المقلاع، ثم ظهر له فارس ثان فلطمه عنتر على صدره فألصق صدره إلى ظهره فرماه قتيلا وفي دماه جديلا، فانذهلت من فعالة الرجال وقصرت عن الخروج إليه الأبطال))¹.

إن في هذه المعارك شيئا من الإسقاطات التاريخية مما جعل منها سجلا تاريخيا حافلا بمعارك العرب ضد أعدائهم المعروفين، وهكذا يخرج "عنتر" من فرديته المطلقة التي احتلت جانبا كبيرا من السيرة، إلى أن يكون بطلا جمعيا، فقد استطاع أن يجمع في أواخر حياته بين ملوك الأرض ويصلح بينهم ((وقد تعانقوا في تلك الأرض وما بقي منهم إلا من عانق عنتر وقد اختلطت الجيوش المصرية والسودان والإفرنج و الروم وسائر ملوك البلدان))².

وبهذا تكون السيرة سجلا لتوحد العرب في مواجهة الفرس والروم والأحباش وغيرهم ((فيحقق عنتر بذلك هدفا قوميا عقائديا حتى ولو كان زمانه قبل الإسلام))³ وحتى ولو كان ابن حبشية سوداء غير معترف بها.

وفي هذه المرحلة لا بد من الإشارة إلى أن السيرة تستوعب روابط عامة ومثلا عليا يلتقي عندها العرب جميعا؛ لأنهم يرون فيها بغيتهم التي تكسبهم العزة والرفعة والمجد حيث يمثلهم عنتر أحسن تمثيل، إذ نجد أن السيرة أظهرته في مستوى رفيع من الأخلاق سواء في تعامله مع أفراد قبيلته أو مع أعدائه، فقد ظل طول حياته - في السيرة - يكره الظلم والفساد ويرفض الغدر، ويطلب المواجهة الشجاعة. وأجمل ما قيل فيه قول "مالك بن الملك زهير": ((هذا والله عنتر بن شداد الذي يجب أن يفخر به الأمجاد، والله إن مثله قليل لا يوجد في السداد لاسيما فصاحته في المقال وحسن الفعال))⁴.

د - البنية المحورية الرابعة: نهاية عنتر بن شداد:

¹ - السيرة، م 2، ص: 307.

² - المصدر السابق، م 8، ص: 111.

³ - خورشيد فاروق، السير الشعبية العربية، مجلة عالم الفكر، ص: 262.

⁴ - السيرة، م 1، ص: 152.

أما نهاية "عنتره" فجاءت الأخبار التاريخية بروايات مختلفة عن كيفية مقتله لكنها تتفق في مجملها على أنه قد مات مقتولا، ولا تختلف نهايته في السيرة عما ورد في الأخبار التاريخية التي وردت في المؤلفات التاريخية، فرواة السيرة متفقون جميعا على أن "عنتره" قتله "الأسد الرهيص".

ولا شك أن التفكير في قتل "عنتره" كان يتردد في عدة مواطن من السيرة، فقد فكر "مالك" و"خزمية الجواد" في قتله في المرعى باتفاق مع أبيه "شداد"، رغبة في التخلص منه؛ لأنه كان يثير الشغب في الحي، ثم تطلعتنا السيرة كذلك أن لـ"عنتره" حسادا كثيرين وكان كل واحد منهم يكيد له كيدا عله ينجح في التخلص منه، فقد قال أحدهم: ((إن أصابت عنتر مصيبة أو بلي ببلياة لدفعت نصف مالي إلى الكعبة وكل من بشرني بموته وهبته ناقة رباية))¹.

وقد جرح "عنتره" في معارك كثيرة، نذكر على سبيل المثال لا الحصر: تعرضه إلى جرح بليغ في الواقعة التي خاضها ضد "ابن الجلاح"، فقد قتل هذا الأخير في تلك المعركة فمال أصحابه نحو "عنتره" وضيقوا عليه الخناق، حتى أثنى بالجراح وسالت دماؤه من وكز أسنة الرماح ويأس من السلامة فتذكر الأطلال والربوع وبكى وتمنى الموت و أنشد :

لازلتُ مُرتقيًا إلى العلياء

حتى بلغتُ مطالعَ الجوزاء².

لكنه في كل مرة ينجو بطريقة عجيبة عودتنا السيرة عليها، حتى أن القارئ / المروي له يكون واثقا من أن نجاة البطل أمر لا شك فيه، وهذا ما يضعف أحيانا عنصر التشويق.

و"الأسد الرهيص" قاتل عنتره : هو "وزر بن جابر نبهان"، وكان قد أسره "عنتره" وعذبه عذابا شديدا، حيث وكل عليه جماعة من جبابرة العبيد ليضربوه وينكلوا به، ثم أسره مرة أخرى بعد أن عفا عنه في المرة الأولى، وتقول السيرة أن "عنتره" ((حمى سنان رمحه إلى أن تطاير منه الشرر وأكل به عين - وزر- ففرقت وفعل بالأخرى ففرقت وفي رواية أخرى أنه ملأ عينيه كافورا وسدها بطول الليل ولما أصبح الصبح حل العصابة فابيضت عيناه وصارتا كأنهما شحمتان، فقال له عنتر: لو كنت قتلتك كنت من نفسك أرحتك وها قد تركتك لا تنام ولا تتلذذ بطعم وكل هذا الذي جرى عليك من بغيك وظلمك وجوارك))³.

¹ - المصدر السابق، م 1، ص: 410.

² - المصدر نفسه، م 2، ص: 209. الديوان: ص: 87.

³ - المصدر السابق، م 7، ص: 137.

وهكذا صار "الأسد الرهيص" حائرا مكمودا، يبكي الليل والنهار، وفي نفس الوقت يحاول أن يدبر مكيده للانتقام من "عنتره"، وفي تلك الأثناء ((تعلم فيها ضرب النبال وصار يرمي بها الطير على الحس والكلام متى سمع الطير على أعالي الأشجار))¹. فسمع يوما بقدوم "عنتره" من بلاد الروم بعد أن اهلك فيها الكفار والطغاة، فتذكر ثأره وزاد به الهم وفكر في أن يسير إلى "الأمير عنتره" ويتسبب في هلاكه مصحوبا بعبده له يسمى "نجما"، وفعلا أخذ قوسه وكنانته وهي ملأى بالنبال المسمومة ((وسار طالبا أرض العراق على جانب نهر الفرات، حيث خيام عنتر وبين الأسد الرهيص وسع النهر وقد رميه السهم، فاختار الأسد الرهيص مكمنا وبقي ينتظر الليل ثم أتى به العبد إلى شفير النهر وبرك على ركبتيه وأوتر قوسه على كلتا يديه، وكان عنتر في ذلك الوقت نائما بجانب عبله فسمع نبيح الكلاب قد علا فعندها ثار وخرج من المضرب ليرى ما الخبر واتفق أن كانت الليلة شديدة الظلام فسمع الأسد الرهيص عنتر يكلم أخاه جريرا وهما يمشيان على شاطئ الفرات، وصادف أن خلا عنتر لنفسه فجلس إلى الأرض وفي جلوسه اتفق أن وجهه كان مقابل الأجمة التي فيها الأسد الرهيص، وكان الأمير عنتر إذا أراد أن يريق الماء سمع له صوت وهدير فسمعة الأسد الرهيص الذي أطلق سهمه على حس دوي "إراقة الماء" فلم يشعر عنتر إلا وتلك النبلة قد وقعت في مخصاه حتى وصلت أمعاه))². أما "الأسد الرهيص" فقد ظن أنه أخطأ، فقام على الأقدام وصار طالبا أبياته وهو يتوكأ على سيفه، فأخبر "عبلة" بذلك وأتى الجميع يسألونه عن الخبر، فظل يودعهم بهذه الأبيات قائلا:

ألا حيي المنازل من تطامي

وحيي دار عبلة و السلامي

ألا يا عبلة نُوحى ثم أبكى على

البطل الهمام على الزحامي³.

وبقي "عنتره" أياما يعاني الموت حتى لفظ أنفاسه، وفي هذه المرحلة يموت البطل "عنتره" ميتة الإنسان العادي، وهو مؤمن بحتمية الموت، راضيا بالقضاء والقدر ومقتنعا بأن كل نفس ذائقة الموت فهو القائل:

ولكن القضاء له أو أن إذا ما حل بالمقدور يسري

ألا يا عبلة كأس الموت يسقي جميع الخلق في بر وبحري⁴.

¹ - المصدر نفسه، م 8، ص: 162.

² - المصدر نفسه، م 8، ص: 180، 181.

³ - السيرة، م 8، ص: 185.

⁴ - المصدر نفسه، م 8، ص: 187.

وهكذا تتضح الفطرة الإسلامية وتعمق، ولذلك سيظل أبنائه وبناته يحاربون للدفاع عن نفس القضايا القومية الإسلامية ولتحقيق نفس الأهداف السامية التي كان "عنتره" ينشدها.

وكان لموت "عنتره" الأثر الكبير في نفوس العرب والأعاجم، فقد ندبته "النوادر وبكت الحبايب على الحبايب وتباكت عليه الأخلاء ورثته الشعراء"، وقيل أن هذا العزاء بقي سنة كاملة، وكان رواة السيرة أرادوا أن يحافظوا على هيبة بطلهم حتى بعد مماته.

وقد ترك "عنتره" ثلاثة أولاد وابنة سماها "عنيترة" ابنة "قناصة الرجال" وقد ملأت الآفاق، وشغلت الناس - هي أيضا - بشجاعته الفائقة وبيطولتها النادرة وفروسيتها العجيبة، فكانت أحسن من خلف "عنتره بن شداد"، فقد استطاعت أن تأخذ بثأر أبيها من "بني عامر" وترفع رأس "بني عبس" إلى العلا، ثم تحولت بعد ذلك إلى القتال مع النبي (ص) في سائر الغزوات، وما زالت كذلك إلى أن قتلت في غزوة الأحزاب وماتت شهيدة في الإسلام، ودفنت بـ "مكة"، حيث تجمع "بنو عبس" على دين الإسلام وخاضوا عدة غزوات مع الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم).

وهكذا ((كثر الإسلام واشتهر الأيمان ونكست الأصنام وبان الحلال والحرام، وترك الناس ما كانوا عليه من الضلالة ومن فعل الحرام، وتركوا أيضا شرب المدام، فسبحان من لا تغيره الليالي والأيام، ولا مرور الشهور ولا توالى الأعوام، ولا يغفل ولا ينام، وهو الذي يحيي العظام ويجري الأقالام وهو الذي خلق الشمس والقمر، والليل والنهار، وفجر النهار و أنبت الأشجار، وخلق الوحش والأطيال))¹. بهذا تنتهي السيرة.

بهذا تكون أحداث السيرتين (سيف / عنتره) قد اكتملت بعد أن تم تقسيمها إلى بنيات محورية، تمثل كل بنية محورية منها مرحلة من مراحل تطور الحكي فيهما.

¹ - السيرة، م 8، ص: 375.

الفصل الثاني:

بنيات الشخصيات في سيرتي "سيف بن ذي يزن و عنتر بن شداد"

أولاً: المستوى السطحي.

ثانياً: المستوى العميق.

ثالثاً: الرؤى العلائقية بين بنيات الشخصيات.

رابعاً: بنيات الشخصيات الفاعلة.

تحدث النقاد* بما فيه الكفاية عن الشخصية، ولكنهم لم ينتهوا بعد إلى تحديد مفهوم واضح لها، ولعل السبب في ذلك يعود إلى تصورهم لها، الذي يعتمد أساسا على الصفات، وكذلك إلى اختلاف النظم المرجعية التي استمدت منها المفاهيم وجودها بحيث تخدم غايات هذه النظم، فمرجعية علماء النفس تختلف عن مرجعية علماء اللاهوت، وعن مرجعية علماء الوراثة والاجتماع...، لهذا كانت المفاهيم مختلفة عندهم.

من المعلوم أن كلمة " شخصية " عربية لكن مفهومها مستمد من الثقافة الغربية، ذلك أن لفظ "persona" كان يعني عند اللاتينيين الوجه المستعار الذي يضعه الممثل على وجهه، حيث ((اعتاد ممثلو الرومان واليونان في العصور القديمة على ارتداد أقنعة على وجوههم لكي يعطوا انطبعا بالدور الذي يقومون به))¹، فالغرض من استعمال هذا القناع هو تشخيص خلق الكائن البشري الذي يقوم بدوره المسرحي.

إن مدلول الشخصية في مجال الأدب عموما معقد، لأنه يشمل جميع الملامح الجسمية والوجدانية والعقلية في حالة تفاعلها ببعضها البعض في الشخص الذي يعيش في بيئة اجتماعية معينة. ويفرق النقاد بين كلمتي: الشخص " personne " والشخصية الحكائية " personnage "، حيث يطلقون الأولى على الإنسان الفرد كما هو موجود في الواقع المحسوس، أي ((ذلك الكائن الحي الذي يمارس نشاطات عديدة، فهو يعمل ويعيش، يفكر ويشعر، يرغب في وعن الشيء، يفرح ويحزن، يسعد ويشقى... انه إنسان من لحم ودم، أي الإنسان الجامد والمتحرك الذي ينتمي إلى الجنس البشري))².

أما الشخصية الحكائية فهي التي يسند إليها دور في النشاط الفني الإبداعي، بحيث يكون وجودها " ورقيا * " فقط، بمعنى أنها تعيش بين دفتي العمل الفني فقط.

* - منهم: رولان بات، تزيفيتان تودوروف، جيرار جينيت، فلاديمير بروب، كلود بريمون، غريماص، فيليب هامون، عبدالملك مرتاض، حسن بحراوي، جميلة قسوم، حميد لحميداني، يمني العيد.

¹ - غنيم سيد محمد، سيكولوجية الشخصية، دار النهضة العربية، مصر، ص: 45.

² - سويرتي محمد، النقد البنيوي والنص الروائي، إفريقيا الشرق، المغرب، 1991، ص: 70.

* - مصطلح استخدمه رولان بارت لتبيان الصيغة التخيلية للشخصيات الحكائية.

وفيما يتعلق بهذا البحث، فإن تنوع الشخصيات في السير الشعبية ذو أهمية كبيرة، وقد كان التركيز الأساسي في تناول الشخصية محصوراً في الشخصيات التي تتميز بالجسد والشعور والمزودة بالذكاء والكلام الواضح المبين، ولا يتعداها في أغلب الأوقات، في حين أن الشخصية الحكائية يمكن أن تستعين للقيام بدورها بعناصر مادية أو معنوية مجردة من الوعي، وسيكون هذا الفصل للإجابة عن الإشكالية التالية: هل يمكن القيام بضبط وحصر هذه الشخصيات ضمن بنيات واضحة ومحددة؟

وللإجابة على هذا السؤال يجب علينا أن نقوم بدراستها وتحليلها وفق مستويين مختلفين:

أولاً: المستوى السطحي:

– بنيات الشخصيات على المستوى الشكلي: وتنقسم إلى أربعة أقسام:

1 – الراوي (الشخصية الاشارية الواصلة):

تشغل شخصية الراوي حيزاً أساسياً في فضاء السيرتين - محل الدراسة - ذلك أنها تعد الشخصية المركزية الباعثة للقص، فهي تقوم على الإخبار أو الإعلان عما جرى من أحداث في الزمن الماضي، وتأتي باقي الشخصيات لتجسد هذه الأحداث على صعيد الواقع وتدوينها، فدورها محصور في سرد القصة عن الفعل الإنساني من أجل تخزينه وتنظيمه ودمج مادة واسعة من التراث غير المادي، وعلى هذا المستوى فإن الأهمية لا تكمن في الأحداث بقدر ما تتمثل في الطريقة التي تعرفنا بها شخصية الراوي بهذه الأحداث.

إن شخصيتا الراوي في سيرتي "سيف بن ذي يزن و عنتر بن شداد" وهميتان لكنهما يمثلان وجهة نظر مؤلفيهما، وقد لجأ إلى إدخالها في السيرتين وجعلها وسيطاً بين الحقيقي والخيالي بسبب مشكلة مقلقة حول مفهوم الزمن.

إن المسافة بين الحوادث المروية والزمن الذي تروى فيه ذات قيمة كبيرة، إنها قصة غير مستقرة يتبدل كيانها حسب الشخص الذي يرويها والزمن الذي يعيش فيه، فالوقت الذي تجري فيه حوادث القصة ذو أهمية؛ لأنه مرتبط بالوقت الحاضر، انه ماض غير منقطع عنه.

والملاحظ أن شخصية الراوي، قد استخدمت في نقلها للأحداث ضمير الغائب، في حين ربطت حديث الشخصيات بضميري المتكلم والمخاطب، وإذا كانت كل قصة أدبية تتضمن تدخل الضمائر الثلاثة حتماً في الموضوع، فإنه من المعروف أن أبسط الصيغ الأساسية للقصة تتمثل في ضمير الغائب، وعندما تستخدم شخصية الراوي ضمير الغائب؛ يبدو المتلقي غير مهتم بجديّة الأحداث أو على الأقل يعتبر أنها "

دعوى " تحتمل الصحيح والخطأ، كما أنها ترفض أن تكون شاهدة عليها، ولهذا تختفي وراء صيغة الغائب.

وقد وظف الراوي مجموعة من العبارات الاستهلاكية مثل: " اسمع ما حدث...، هذا ما كان من أمر هؤلاء أما ما كان من أمر ... "، فهو يخاطب المستمعين فيشد بها اهتمامهم بالقصة، كما يربط بها بين القصص المتعددة لتشكل في الأخير وحدة عضوية متكاملة.

كما لجأ الراوي إلى العطف مثل " وكان ... فلما ... حينئذ ... هكذا ... بعد ذلك " فالرواية الشفاهية تحقق داما ما هو عملي "راحة المتكلم"، أما السرد الكتابي فإنه يهتم بالتراكيب، ومن المعروف أن الخطاب المكتوب يعتني بالقواعد النحوية لأنه يعتمد في نقل المعنى على بنية اللغة، والسبب في ذلك أنه يفتقر إلى سياقات الوجود التي تحيط بالخطاب الشفاهي. كما استخدم الراوي مجموعة من النعوت مثل: " ولد مثل البدر، الفارس الصنديد، قصر عظيم المثال ... " وغيرها، وذلك لأنه لا يميل كثيرا إلى الأسماء المنفردة، كما أن هذه الصيغ ترسخ المعنى أكثر، وبالتالي تتوضح الرؤية بعمق وشمولية للمروي له / القارئ، وتدخله في مزيد من طرح النقاشات والأسئلة حول المراد منها.

2- الشخصيات التاريخية:

هي كل الشخصيات التي ((استقاها الراوي من عوالم نصية أخرى " كتابية – شفاهية " ووظفها في سيرته الشعبية))¹؛ بمعنى أن هذه الشخصيات لها وجود فعلي في الواقع التاريخي بحيث تحيل على عالم معروف عند القارئ / المروي له، سواء من خلال ثقافته العامة أو ثقافته التاريخية فردية كانت أو جماعية، فيوظفها الراوي في سيرته الشعبية توظيفا أدبيا (خياليا)، محاولا الحفاظ على بعض مقوماتها وأطرها الأساسية المعروفة لدى القراء أو الجماعة المروي لها، كما أنه يستطيع أن يضيف عليها بعض الإبداع والخيال بما يتناسب مع طبيعة فضاء وثقافة المتلقي، ومهمتها تتحدد في الاشتغال ((كإرساء مرجعي يحيل على النص الكبير للايدولوجيا، الكليشيهات أو الثقافة))²، وهذا ما يظهر في السيرتين محل الدراسة، فـ "سيف بن ذي يزن وعترة بن شداد" مثلا شخصيتان يرد أسميهما في كثير من المصادر والمراجع العربية الأدبية منها والتاريخية، فهما إذن شخصيتان لهما بعد مرجعي تاريخي محدد، وعندما يوظف الراوي الشعبي هاتان الشخصيتان، فإنه بذلك يلزم نفسه بإيراد مجموعة من الشخصيات التاريخية - الموجودة فعلا - المصاحبة لهما، ومثال ذلك: عندما يوظف الراوي شخصية "عترة بن شداد" يحيلنا تلقائيا إلى

¹ - يقطين سعيد، قال الراوي: البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1997، ص: 95.

² - هامون فيليب، سيميولوجيا الشخصيات الروائية، تر: سعيد بنكراد، دار الكلام، الرباط، 1990، ص: 24.

"عبلة" وإلى قبيلة "عبس"، ومختلف الشخصيات المعروفة في العصر الجاهلي من ملوك وفرسان وشعراء. وبهذا يقدم للقارئ / المروي له الكثير من المعلومات التي توافق التاريخ أحيانا، كما يمكن أن تتجاوزه أحيانا أخرى ببعديها الغريب والخيالي.

3- الشخصيات الحكائية العادية (الورقية):

وهي ((مختلف الشخصيات التي لا نجد لها اسما تاريخيا محددًا))¹، أي أنها لا تحمل أي بعد تاريخي، تعيش فقط على مستوى "الفضاء الحكائي" للسيرتين، وهذه هي الخاصية الفارقة بينها وبين الشخصيات التاريخية، بالرغم من التشابه الكبير بينهما من ناحية ((كونها ذات ملامح واقعية))² معاشة. وتنقسم إلى قسمين هما:

أ - **الشخصيات المبنية (تامة):** وهي الشخصية التي تتصف بالجمود والثبات والنموذجية، ذلك أنها تأتي جاهزة ومكتملة النمو، أبدعها المؤلف المجهول ويتحدث عنها الراوي سواء بالوصف أو بالسرود ويبرز أثرها في مجرى الحكى.

ب - **الشخصيات متجددة البناء:** وهي الشخصية التي تكون موضوعا للحكي بواسطة شخص محدد، بحيث تنمو وتتطور مع الأحداث، فهي ((لا تستقر على حال، ولا تصطلي لها نار، ولا يستطيع المتلقي أن يعرف ماذا سيؤول إليه أمرها، لأنها متغيرة الأحوال، متبدلة الأطوار))³.

ويلجأ الراوي الشعبي إلى استخدامها من أجل غايات حكائية بحتة، بحيث يغطي بها بعض الأراجيف التي يمكن أن تهز أركان البناء المتكامل للسيرتين وكذا للشخصيات، كما يمكن أن تكون ((عنصرا تزيينيا لها طريقتها في الوجود والشعور))⁴. ومن خلالها يكون الراوي حرا حرية تامة في تحريك أفعالها وإبداع ملامحها وصفاتها ومآلها، لتتناسب مع أغراضه الحكائية. وهو في كثير من الأحيان يستخدمها لتمثيل بعض القيم السائدة في المجتمع الذي يعيش فيه والذي يمثله، والتي سيحاول فيما بعد محاربتها والقضاء عليها على مستوى المتن الحكائي.

فشخصيته " قمرية" أم "سيف بن ذي يزن" مثلا، لا وجود لها على مستوى الكتب التاريخية أو غيرها من الكتب، فهي شخصية غير تاريخية، غير أن الراوي الشعبي أبدعها لأنه ملزم بالحكي عن ولادة البطل "سيف بن ذي يزن"، فهو يعطيها اسم و يحدد أوصافها الخلقية والخلقية، وكيف كانت هدية مسمومة لقتل أبيه، وكيف رمته في الغابة وهو رضيع بغية التخلص منه.... الخ. فالراوي في هذه الحالة يحاول أن يرسم صورة كاملة عنها، إذ يعرفنا على شخصية "قمرية" على أنها ((ممثلة

¹ - يقطين سعيد، قال الراوي، ص: 97.

² - المرجع نفسه، ص: 97.

³ - مرتاض عبد المالك، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1998،

ص: 101.

⁴ - Roland Bourneuf et Real Quellet. L'univers du roman. Tunis. Cérés édition. Coll. Critic. 1998. p. 191.

لقيمة " الشر " ضد الأب وابنه))¹، وحين يقوم بقتلها عن طريق " عاقصة " - الأخت الجنية لسيف - في المتن السيري، وكأنه بذلك قد قتل جميع قيم الشر الموجودة في واقعه المعاش.

والجدير بالذكر، أن الراوي له قدرات خاصة ومميزة وخارقة أحيانا في إبداع الشخصيات سواء من حيث صفاتها وتكوينها أو الغايات المرجوة من توظيفها.

4- الشخصيات الحكائية الغربية:

والقصد منها كل الشخصيات التي تضطلع بأدوار في المتن الحكائي السيري، بحيث يكون تكوينها المورفولوجي (البنيوي) وقدراتها الخارقة، مفارقة لما هو موجود في الحياة الواقعية المعاشة، ويجدر التنبيه هنا إلى أن بعض هذه الشخصيات قد تكون ذات بعد مرجعي استقاها الراوي الشعبي من الكتب الأدبية أو الدينية... الخ كما يمكن أيضا أن تكون شخصية غير إنسانية مثل: الرمل الذي يستخدم للتنبؤ بالأحداث...، ذلك أن الشخصية ليست بالضرورة مفهوما أدبيا أو إنسانيا من حيث الشكل، فيوظفها الراوي توظيفا عجائبيا " خياليا " في متنه الحكائي. وسبب هذا التوظيف يكمن في أن الراوي الشعبي على دراية تامة بأن الطبقات الشعبية تؤمن إيمانا لا حد له بالقوى الغيبية وبالخوارق، وتميل إلى سماع أخبارها، كما أنها تستمتع بها أيما استمتاع، فالجن الذي يقطع آلاف الأميال في لمحة البصر، وينقل الناس جوا من مكان إلى مكان وهم على ظهره، والساحر الذي يأتي بكل ما هو عجيب وغريب، والولي الصالح الذي يخرق قوانين الجاذبية... الخ، جميع هذه الشخصيات مستقاة من مصنفات أدبية ودينية عربية معروفة كقصص الأولياء الصالحين والقرآن الكريم*.

الواقع أننا لا نكاد نجد سيرة شعبية تخلو من هذا النوع من الشخصيات. والملاحظة التي تجدر الإشارة إليها في هذا السياق هي أن سيرة "سيف بن ذي يزن" تعج بمختلف أنواع الشخصيات الغربية، حتى أننا نجد الباحث المغربي سعيد يقطين** ألف كتابا كاملا عنونه " سيف بن ذي يزن: ذخيرة العجائب العربية"؛ حيث رصد فيه مختلف الظواهر الغربية، ومختلف الشخصيات العجائبية الموجودة في هذه السيرة.

ومن بين الشخصيات الحكائية الغربية الموجودة في السيرتين - محل الدراسة - نجد الشخصيات الجنية التي أبداع الراوي الشعبي في وصف كياناتها المورفولوجية (التكوينية) وقدراتها العجائبية، ففي سيرة "عنترة بن شداد" نجد وصفا مميزا عن جيوش الجان حيث يقول الراوي: ((هي جيوش كثيرة بخلاف الأدميين، منهم أبدان

¹ - يقطين سعيد، قال الراوي، ص: 98.

* - أنظر: سورة النمل، الآيات: 39، 38، 40: قصة سيدنا سليمان (عليه السلام) مع الجان.
** - باحث مغربي معاصر، له العديد من المؤلفات التي اهتمت بتطبيق أهم المناهج النقدية المعاصرة على التراث الأدبي العربي أهمها: " قال الراوي، تحليل الخطاب الروائي، الرواية والتراث السرد، الكلام والخير: مقدمة للسرد العربي".

بلا رؤوس ورؤوس بلا أبدان، وبعضهم على صورة الطيور من النسور والعقبان، وهم على سائر الألوان، وبعضهم على صورة الجمال والخيل والبغال، وبعضهم على صورة الجاموس، وبعضهم على صورة القطط، وشيء على صفة الكلاب وشيء على صفات السباع))¹.

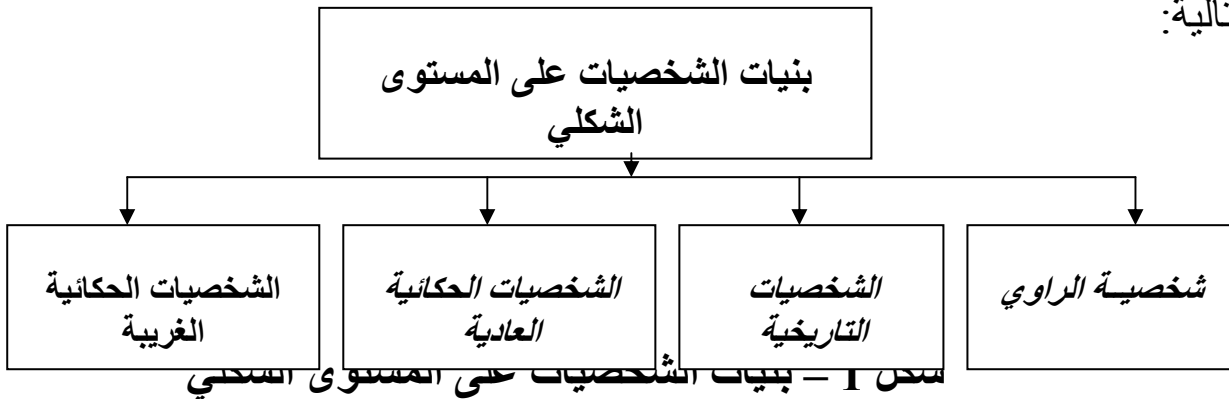
والراوي الشعبي لا يصور جميع الشخصيات الجنية بهذه الصورة البشعة فقط، فـ "عاقصة" الأخت الجنية لـ "سيف بن ذي يزن" جميلة جذابة سحرت الجني "عبروض" بجمالها، ووقع أسير حبها من النظرة الأولى، وكاد أيضا الجني "الرهق الأسود" - وهو ماردمرعب - أن يفتك بالملك "سيف بن ذي يزن" ولكن في لحظة لاحت منه التفاتة ((فرأى عاقصة واقفة قدامه، وهي تبكي وتتنحب. ولكن بكائها بحنين ومغنجة وشهيق، وهي ذات حسن وجمال، وقد وبهاء واعتدال))². فسحره جمالها وتوقف لأجلها عن قتله، وأصبح منذ تلك اللحظة الخادم المخلص له.

كما أن من بين أسباب استخدام الراوي الشعبي لهذه الشخصيات الحكائية الغربية ضيقه بواقعه المزري والخانق، ورغبته الشديدة في التغلب على جميع مشاكل الجماعة الشعبية التي يمثلها، حتى ولو بطريقة خارقة عجائبية هذا كله من خلال السيرة الشعبية التي يبدعها.

والملاحظ في كلتا السيرتين أن الراوي الشعبي يلجأ ويعتمد على أدوات وآليات كثيرة ومتعددة تجعل الشخصيات الحكائية الغربية - خاصة الجنية - في تفاعل مستمر مع الشخصيات الأدمية (البشرية) على مستوى كامل المتن الحكائي للسيرتين، فمرة يجعلها في عدااء مع البطل الرئيسي؛ بحيث تضع الحواجز والعراقيل أمام وصوله لمآربه وتحقيق أهدافه، كما يجعلها أيضا أدوات مساعدة له تحميه من المخاطر المحدقة به، إذ تمنحه أدوات سحرية تسهل عليه الوصول إلى ما يريد.

إذن، مما سبق يمكن توضيح بنيات الشخصيات العامة من خلال الترسيمة

التالية:



¹ - سيرة عنتر بن شداد، م 8، ص: 63.
² - سيرة سيف بن ذي يزن، م 3، ص: 175.

ومن الواجب ذكره في هذا الصدد أننا لا نستطيع بحال من الأحوال أن نضع بعض الشخصيات في سيرتي "سيف بن ذي يزن وعترة بن شداد" ضمن إطار أو نوع محدد من البنيات السابقة الذكر، وذلك راجع إلى ذلك التداخل الكبير الحاصل فيما بينها، حيث نجد بعض الشخصيات التاريخية محملة بعناصر واقعية من جهة، وعناصر خيالية أو غرائبية من جهة أخرى، والعكس صحيح، وهذا ما يجعلنا نلجأ إلى مقولات أخرى أكثر تعمقا علنا نحدد البنيات الأساسية لجميع الشخصيات في كلتا السيرتين.

مستويات وصف الشخصيات:

1 - الشخصية وحدة مركبة:

إن مصطلح الشخصية "وحدة مركبة" يدل على وحدة مبنية ومحددة بالنسبة لمعجم الشخصيات النمطية التي تؤدي وظائف عديدة، وهذا النموذج من الشخصيات يدخل ضمن مجموعة من الفاعلين المحددة بواسطة مجموعة دائمة من الوظائف والأوصاف وبتوزيعها طيلة المسار السردي.

فحين نقول أن شخصية كل من "عترة أو سيف" هي وحدة مركبة فإننا نقصد كل الأوصاف التي تخصها سواء كانت صادرة من هذه الشخصيتين ذاتها أو من خلال شخصية الراوي أو باقي الشخصيات التي تخاطبهما، إن هؤلاء جميعا يعيدون إنتاج هذه الشخصية بخلق رباط فيما بين المفردات والعبارات المتفرقة، والملاحظ أن الطابع الذي يغلب على هذا المعجم هو "الحرب" وتتوزع هذه الأوصاف المتعددة على النثر والشعر معا. وهي نوعان:

أ - **الشخصية المدمجة:** وهي الشخصية التي تمثل عنصرا مدمجا عندما تصبح المحل الذي تتجمع فيه صفات عديدة ومتنوعة كانت مبعثرة في النص، أو غير ذات قيمة بمفردها.

ب - **الشخصية المندمجة:** تعد الشخصية المندمجة عنصرا جوهريا يدخل في كيان أكبر يتمثل أساسا في البنية التي يؤدي مجموع عناصرها وظائف وأدوار لبلوغ الغرض الذي يحدده الراوي، ويكتسب هذا النمط من الشخصيات صفة الاندماج عندما يؤدي دورا قياديا يناسب ميوله ومصالحه بالنسبة للشخصيات الأخرى المساعدة أو المضادة التي تجعله بدورها جزءا من البنية.

2 - الشخصية المتخصصة:

إن لهذه الشخصية وظيفة ثابتة وهي تظهر على أنها متخصصة للغاية في سلسلة أفعالها المنجزة على طول السيرتين، وتتحدد هذه الشخصية بسلسلة من الأفعال المقررة مسبقا، ويخضع هذا النمط من الشخصيات للسلم التابع لما يلي:

أ - الدور الموضوعي أو المهني: حيث ترتبط شخصيتي كل من " سيف و عنتره " بوحدة موضوعية محصورة في الحرب والقتال؛ وهذا ما نجده من خلال العبارات التالية: "الذهاب إلى الميدان، المبارزة من طلوع الشمس إلى غروبها، مقاتلة الكفار، انتصر على العدو ... الخ".

ب - الدور الحرفي النفساني: إن أفضل الشخصيات في السيرتين - محل الدراسة - التي يمكن أن تتدرج ضمن هذا الدور الحرفي النفساني هي الشخصيات الوصلية والنفعية الطموحة التي ترغب في النجاح مهما كان الثمن، وتلجأ غالباً إلى طرق غير شرعية وغير متفق عليها في إطار العادات والأعراف، ويكون الحكم عليها وتقييمها تبعاً لما تنطوي عليها أفعالها من ضرر مباشر للشخصيات الأخرى، وخير مثال على هذه الشخصيات كل من " قمرية في سيرة سيف والربيع بن زياد في سيرة عنتره".

ثانياً - المستوى العميق:

- بنيات الشخصيات أحادية الجنس والممسوخة:

1 - بنيات الشخصيات أحادية الجنس:

نقصد بالشخصيات أحادية الجنس كل الشخصيات التي تنتمي إلى جنس واحد محدد. وتحدد بنيات هذه الشخصيات وفق المقومات البنيوية التالية:

أ- الجنس: نطلق من هذه المقولة للتمييز بين الشخصيات التي خلقت من التراب (إنسية) والتي خلقت من النار (جنية)، أي بين الشخصيات الآدمية والشخصيات الجنية.

ب- المعتقد: عندما نستخدم هذه المقولة فإننا سنقوم بالتفريق بين الشخصيات أحادية الجنس (آدمية / جنية) التي تؤمن بدين التوحيد (الإسلام) والتي تكون كافرة أي التي لا تؤمن بهذا الدين، سواء أكانت تشرك بالله أو تعبد الأوثان أو زحل... الخ.

ج - الثبات والتحول: المقصود بهذه المقولة الإجابة عن السؤال التالي: هل الشخصيات أحادية الجنس ثابتة أو متحولة؟ بمعنى آخر: هل تغير هيئتها أم أنها تبقى على هيئة واحدة على طول حضورها في المتن السيري؟ وسنجد أن الشخصيات الترابية تبقى دائماً ثابتة ولا تغير هيئتها أبداً، بينما الشخصيات النارية متحولة

* - سنستعير بعض مفاهيم المقولات التي استخدمها يقطين سعيد ونحاول أن نكيفها بما يتناسب مع اتجاه هذا البحث، للمزيد من المعلومات أنظر: قال الراوي، ص: 104.

باستمرار، بحيث تأخذ أشكالاً وصوراً متعددة بتعدد المواقف والأدوار التي تضطلع بالقيام بها، فالشخصيات الجنية يمكن أن تتحول إلى إنسان أو إلى حيوان، أو إلى غير ذلك من الأشياء.

يجدر التنبيه هنا إلى أن بعض الشخصيات الترايبية ذات البعد الغرائبي (التي لها قدرات خاصة) لها القدرة على التحول من شكل إلى آخر، كما لها أيضا القدرة على التحويل، " فالساحرة الزرقاء " شخصية ترايبية لها بعد عجائبي، استطاعت أن تمسخ "سيف بن يزن " إلى غراب.

د- العمر والخلود: تسمح هذه المقولة بالتفريق بين الشخصيات أحادية الجنس من حيث العمر، بمعنى: هل هي معمرة أو غير معمرة؟ وأيضا من حيث الزوال والخلود. وسنجد أن الشخصيات الترايبية تعمر أقل من الشخصيات النارية مهما كان نوعها أو الدور التي تضطلع بالقيام به في مجرى أحداث السيرتين، وهذا راجع إلى تلك الهالة العجائبية التي يضيفها الراوي عليها، وأحيانا نجده يقدم للقارئ / المروي له بعض الشخصيات الترايبية على أساس أنها قد عمرت طويلا، لكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أنها من الخالدين، فشخصية "السطيح" في "سيرة سيف بن ذي يزن" قد عمر أكثر من سبع مائة عام، وظل ينتظره (سيفا) منذ مائتي عام، و أما في سيرة "عنتر بن شداد" فنجد شخصية "عمر بن نفيلة" قد عمر أكثر من خمسمائة عام.

2- بنيات الشخصيات الممسوخة (المشكلة):

والقصد منها كل الشخصيات التي تنتمي إلى جنسين مختلفين على الأقل، ويمكن أن نقسم هذا النوع من الشخصيات إلى قسمين أساسيين، الأول: شخصيات ممسوخة فطريا، والآخر: شخصيات ممسوخة صناعيا.

*** - الشخصيات الممسوخة فطريا:** هي كل الشخصيات الممسوخة من جنسين مختلفين على الأقل بدون تدخل أي طرف من الأطراف في هذا التركيب، كالغيلان في سيرتي "عنتر بن شداد" وسيف بن ذي يزن".

*** - الشخصيات الممسوخة صناعيا:** هي كل الشخصيات الممسوخة من جنسين مختلفين على الأقل الناتجة عن تدخل أحد الأطراف في تكوينها بهذه الصورة كالحكام والسحرة... الخ، وأبسط مثال على هذا النوع: "الحصان الخشبي" في سيرة "سيف بن ذي يزن".

وتحليل بنيات الشخصيات الممسوخة يمكن الاعتماد على مقولات أساسية* على غرار تحليلنا لبنيات الشخصيات أحادية الجنس وهي:

أ- التحكم:

والقصد من هذه المقولة الإجابة عن السؤال التالي: هل هذه الشخصيات تتصرف وفق إرادتها ومن تلقاء نفسها أو أن هناك من يتحكم في تصرفاتها وأفعالها؟ وسنلاحظ أن جميع الشخصيات الممسوخة صناعيا متحكم في أفعالها، بحيث تقوم بأفعال محددة لبلوغ الغاية التي خلقت أو ركبت من أجلها، بينما الشخصيات الممسوخة فطريا فهي على العكس من ذلك تماما، تتصرف دائما بتلقائية ووفق إرادتها المحضة، التي من خلالها تتحمل جملة من المسؤوليات.

ب- نتائج الأفعال:

بمعنى نوع الأفعال التي تقوم بها الشخصيات الممسوخة من حيث إلحاق الضرر وعدمه، فقد تكون بعض هذه الشخصيات مهلكة لمن تعاديه كالغيلان مثلا، فهم يلحقون الأذى بغيرهم من الشخصيات، وهذا ما جعل "قمرية" تأمر خادمها برمي "سيف بن ذي يزن" في "وادي الغيلان" وبغيتها في ذلك هلاكه.

كما نجد أن بعض هذه الشخصيات غير مهلكة بل تتجاوز - تناقضا - هذه الصفة لتصبح كأدوات سحرية مساعدة لمن يمتلكها أو يصادقها، ففي سيرة "سيف بن ذي يزن" نجد مثلا: أن "سمكة الجذع" وهي شخصية مركبة طبيعية لا تلحق الأذى بأي أحد كان، حتى أن مجموعة من الصيادين استطاعوا أن يقبضوا عليها ويأسروها مع "سيف بن ذي يزن" في زنزانة ضيقة ولكن بعد فراره منها أخذها معه ورمها في البحر، وحين لحقوا بهما، ركب فوق ظهرها وانطلقا مبتعدين عنهم صوب المحيط طالبا للنجاة.

ج- نمط الحياة:

وهذه المقولة خاصة فقط بالشخصيات الممسوخة فطريا، ونقصد بها الإجابة عن السؤال التالي: هل تعيش ضمن مجموعات أو أن كل فرد منها يعيش منفردا؟ وبتطبيق هذه المقولة، سنجد أن جميع الشخصيات الممسوخة فطريا تعيش إما ضمن جماعات كالغيلان والكابيين، وإما أنها تعيش منفردة كـ "السمكة الجذع" و"الطائر الناطق".

د- الأدوار:

* - سنستعير بعض مفاهيم المقولات التي استخدمها يقطين سعيد ونحاول تكييفها بما يتناسب مع اتجاه هذا البحث، للمزيد من المعلومات أنظر: المرجع السابق، ص: 107.

وكما كانت المقولة السابقة خاصة فقط بالشخصيات الممسوخة فطريا، فهذه المقولة أيضا خاصة فقط بالشخصيات الممسوخة صناعيا، وسنلاحظ أن البعض منها لها دور واحد تضطلع بالقيام به ولا تتعداه أبدا، كالإنذار بوصول شخصية ما، أو مساعدة البطل على معرفة الطريق الصحيح للوصول إلى غاية ما... الخ، أما البعض الآخر فنجدها تقوم بأدوار متعددة حسب الغاية التي صنعت من أجلها.

ثالثا: الرؤى العلائقية بين بنيات الشخصيات أحادية الجنس والممسوخة:

سبق التأكيد على أن شخصيات السيرة الشعبية عامة، وشخصيات سيرتي "سيف و عنتره" خاصة متداخلة ومتفاعلة فيما بينها أيما تفاعل، بحيث يصعب على دارسها تحديدها في إطار أو بنيات واحدة محددة، وهذا يعني أن هناك مجموعة من العلاقات المستمرة تربط فيما بينها، يمكن تقسيمها إلى نوعين:

النوع الأول يتجسد من خلال العلاقات التي تربط بين بنيات الشخصيات أحادية الجنس وبنيات الشخصيات الممسوخة، أما النوع الآخر فيتحقق ضمن كل بنية صغرى (ترايبية / نارية، فطرية / صناعية)، حسب التركيبة الشكلية والتداولية التي تنتمي إليها.

1- الرؤى العلائقية الوصلية:

يجدر هنا التنويه بأن الشخصيات أحادية الجنس الترابية، تحتل موقعا رئيسا في السيرتين - محل الدراسة - وذلك من خلال كثرة الأفعال والأدوار التي تضطلع بالقيام بها، لذلك فإنها تقم نفسها في جميع العلاقات بين مختلف الشخصيات. فهي تمتلك القدرة على تسخير الشخصيات أحادية الجنس النارية للوصول إلى غاياتها، كما أن لها القدرة أيضا على تكوين مختلف الشخصيات الممسوخة صناعيا، وتوجيه أفعالها، وهذا ما يتيح التحدث عن العلاقات التالية:

أ - الولاء:

وتتجسد هذه العلاقة في كون أغلب الشخصيات أحادية الجنس النارية (الجنية) والشخصيات الممسوخة صناعيا ((تابعة للشخصيات البشرية))¹. إما عن طريق الملكية أو السلطة عليها، والملكية غير السلطة، فالعلاقة التي تربط "سيف بن ذي يزن" بالجني "عيروض" هي علاقة ملكية ناتجة عن امتلاكه للوح السحري بينما علاقة السلطة غير ذلك فالسحرة أو الحكماء لهم سلطة سحرية أو روحية على باقي الشخصيات خاصة على مريديهم أو على الذين ساهموا في تكوينهم، فهم الذين يحددون تصرفاتها و أفعالها لخدمة أغراضهم الخاصة.

• - للمزيد من المعلومات، انظر: المرجع السابق، ص: 110.

¹ - المرجع نفسه، ص: 110.

ب- القرابة: وتتحدد هذه العلاقة بين جميع شخصيات السيرتين - محل الدراسة - سواء كانت أحادية الجنس أو ممسوخة. والقرابة هنا يمكن أن تكون من حيث القرابة العائلية أو من حيث المعتقد:

1 - القرابة العائلية:

وتتجلى هذه العلاقة، من خلال تحقيق أحد أشكال القرابة العائلية التي تجمع بين مختلف الأجناس (ترايبية أو ناربية)، الناتجة عن طريق الزواج أو الأخوة الطبيعية أو من حيث الرضاعة... الخ، وسنلاحظ أن هذه العلاقة تجمع في كثير من الأحيان بين الشخصيات الترايبية (الإنسية) والناربية (الجنية). فنجد على سبيل المثال - لا الحصر - أن "سيف بن ذي يزن" تربطه علاقة أخوة (من حيث الرضاعة) بالجنية «عاقصة»... الخ.

2 - المعتقد:

يعد المعتقد مقوما رئيسا للجمع أو التفريق بين مختلف شخصيات السيرتين، سواء كانت ترايبية (إنسية) أو ناربية (جنية)، أو الاثنين معا، خاصة في سيرة "سيف بن ذي يزن"، فكثيرا ما نجد أن الشخصيات التي تعتنق أو تؤمن بمعتقد واحد تقوم ((بمؤازرة بعضها البعض ضد الشخصيات التي لا تؤمن بدينها))¹، مهما كان النوع الذي تندرج فيه (ناربية، ترايبية، ممسوخة)، فـ "سمكة الجذع" تهب لمساعدة "سيف بن ذي يزن" وتنقذه من قبضة الصيادين الذين احتجزوه، لا لشيء سوى لأنه يؤمن بالله ويوحده على غرارها، فهي من المخلوقات "التي تسبح لله عز وجل".

إن العلاقات المبينة أعلاه تبين مدى التفاعل بين جميع الشخصيات في السيرتين سواء كانت ترايبية أو ناربية أو ممسوخة، ويكون هذا التفاعل مبنيا على علاقات المساعدة والتأزر في وقت الشدة والاحتياج، كما تتعدها لتصبح علاقات ضدية وتعارضية نتيجة للاختلافات الحادة الموجودة فيما بينها، مما يتيح الفرصة لظهور الصراع، وهذا الأخير هو الدعامة الأساسية لكل عمل حكائي أو سردي أصيل، وسنتحدث عن هذا الصراع من خلال العلاقات بين البنى الصغرى (ترايبية / ناربية، فطرية / صناعية) ، حتى يتسنى لنا تجسيده بوضوح.

2 - الرؤى العلائقية الفصلية:

سبق الذكر أن العلاقات التي تربط بين مختلف شخصيات السيرتين (أحادية الجنس / الممسوخة) تقوم على ركيزتين أساسيتين هما " التبعية والقرابة"؛ حيث تؤديان دورا مهما في عملية الوصل بين مختلف الشخصيات، لكن هذه العلاقات التي تجمع بين هذه الشخصيات لا تقوم فقط على علاقات الوصل، وإنما تتعدها إلى

¹ - المرجع السابق، ص: 111.

علاقات تقوم على أساس ثان مهم هو الفصل، وهذا الأخير هو الذي يصبغ على السيرتين جوا مشحونا بالصراع بين مختلف الشخصيات، يصل إلى حد الأقتتال ومحاولة إبادة الآخر، وهذا ما نجده في السيرتين، فهما تحفلان به وبالقتال، حتى أنه يمكننا أن نقول أنهما سيرتان حربيتان بالدرجة الأولى، فالفاعل المركزي (البطل) فيهما يقاتل بشراسة من أجل نشر ديانة التوحيد أو التمهيد لظهور الإسلام، كما يقاتل أيضا قتال من يطلب الموت من أجل الحصول على ما يريده أو يطلبه خاصة إذا كانت فتاة أحلامه.

باختصار، لا مجال للحصول أو الاحتفاظ بشيء في السيرتين بدون صراع وهو لا يقتصر على عدو ذي هوية واحدة بل نجده شاملا ينشب بين مختلف الشخصيات في السيرتين.

ويمكن تلمس العلاقات الفصلية من خلال مايلي:

أ - الصراع المبدئي (المركزي): وهذا الصراع ناتج أساسا عن ذلك الاختلاف الجنسي (العرقي) أو الديني بين مختلف الشخصيات، ويعد هذا الاختلاف البؤرة الأساسية أو المركزية التي تقوم عليها الأطر والدعامات الأساسية لأحداث كلتا السيرتين، بحيث تدور في فلكها مجموعة مختلفة من الأحداث والعوامل الفرعية التي تغذيها من بداية كل سيرة إلى غاية منتهاها.

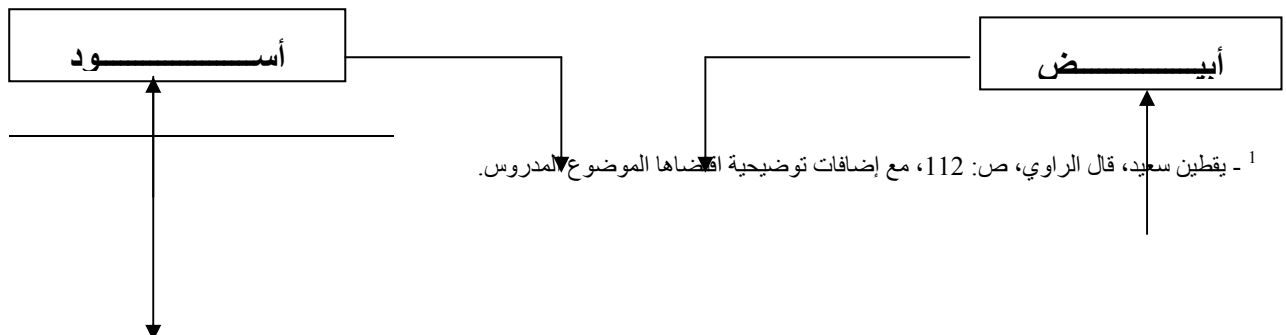
والمواقع أن هذا الاختلاف الجنسي (العرقي) والديني، هو الذي يولد ذلك الجو المساعد أو المهيئ لظهور مختلف أشكال الصراع بين جميع الشخصيات في السيرتين.

ونستطيع تقسيم الصراع المبدئي إلى نوعين مختلفين بحسب كل سيرة هما:

أ-1- الصراع المبدئي (المركزي) في سيرة سيف بن ذي يزن:

***- الصراع الخارجي :**

من الوهلة الأولى يبين الراوي الشعبي أن الصراع في سيرة "سيف بن ذي يزن" سيكون بين الشخصيات ذات الانتماء العربي الموحد وبين الشخصيات ذات الانتماء إلى إثنيات عرقية مغايرة لذلك، كالأحباش السودان أو الروم أو الفرس أو غيرها، أو التي تعتقد بأديان أخرى كالمجوس "عبدة النار" وعبدة زحل... الخ، أو معا، ووفق هذا المنطق سنجد أن الشخصيات تنقسم في هذه السيرة ((بحسب اللون والاعتقاد))¹ وهذا ما توضحه الترسيمة التالية:

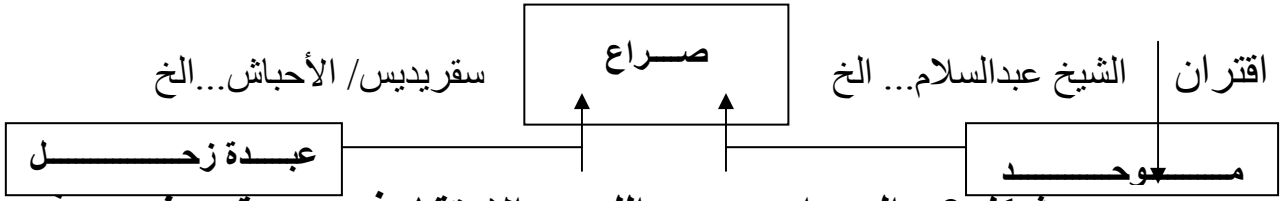


¹ - يقطين سعيد، قال الراوي، ص: 112، مع إضافات توضيحية أقضاهها الموضوع للمدرس.

اقتران

قمرية / سقريديون

سيف/ الشيخ جياذ



شكل 2 - الصراع بحسب اللون والاعتقاد في سيرة سيف بن ذي

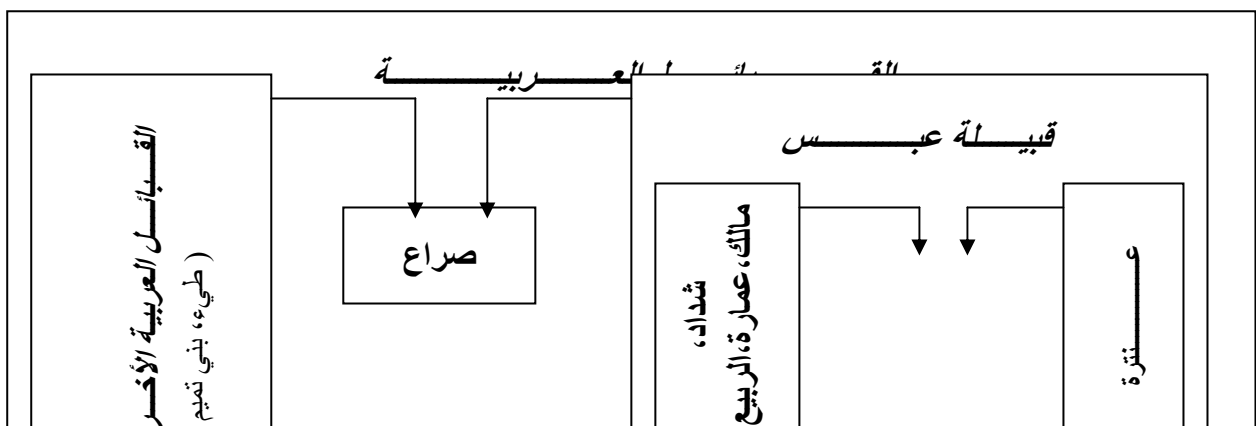
يزن.

ذلك أن أحداث السيرة تبدأ حين يستقل الملك "ذو يزن" عن المملكة الحبشية عند ذلك أراد الملك الحبشي أن يتخلص منه، فأرسل إليه الجارية "قمرية" التي ستصبح فيما بعد زوجته، والتي نجحت في تحقيق ما أراد ثم يستمر الصراع خاصة حين يظهر "الملك سيف بن ذي يزن" الذي تنبأت به الكتب القديمة، ولا تنتهي السيرة إلا بتحقيق دعوة سيدنا نوح (عليه السلام)؛ إذ ينتصر العرب البيض الموحدون على الأحباش السودان عبدة زحل .

أ-2- الصراع المبدئي (المركزي) في سيرة عنتر بن شداد:

* - الصراع الداخلي:

لاحظنا في النوع السابق من الصراع أن الراوي الشعبي أبدع بؤرة أساسية أو مركزية خارجية تقوم عليها جميع أحداث سيرة سيف بن ذي يزن، وجعل أيضا جميع الأدوار التي تضطلع بها مختلف الشخصيات تدور في فلكه (الصراع الخارجي) فهي إما مع العدو الخارجي أو ضده، أما في سيرة "عنتر بن شداد" فنجده يبدع بؤرة مركزية أخرى للصراع معتمدا في ذلك على سعة خياله وكذا معرفته الوثيقة بثقافة وعادات الجماعة الشعبية العربية التي ينتمي إليها والتي يمثلها، وتتمظهر هذه البؤرة من خلال ذلك الصراع الداخلي بين العرب أنفسهم، حيث نجد أن قبيلة "عبس" في صراع دائم مع القبائل العربية الأخرى، ناهيك أيضا عن ذلك الصراع القائم بين "عنتر" وبقية أفراد هذه القبيلة. وهذا ما توضحه الترسيم التالية:





شكل 3 - الصراع الداخلي في سيرة عنتره بن شداد

ومما سبق نخلص إلى نتيجة مفادها: أن الراوي استطاع بفضل سعة خياله وحسه الإبداعي وكذا صلته الوطيدة ومعرفته العميقة بالجماعة الشعبية العربية التي يمثلها، أن ينوع في مختلف أوجه الصراع دراية منه بأنه هو الركيزة الأساسية لعملية الحكمي.

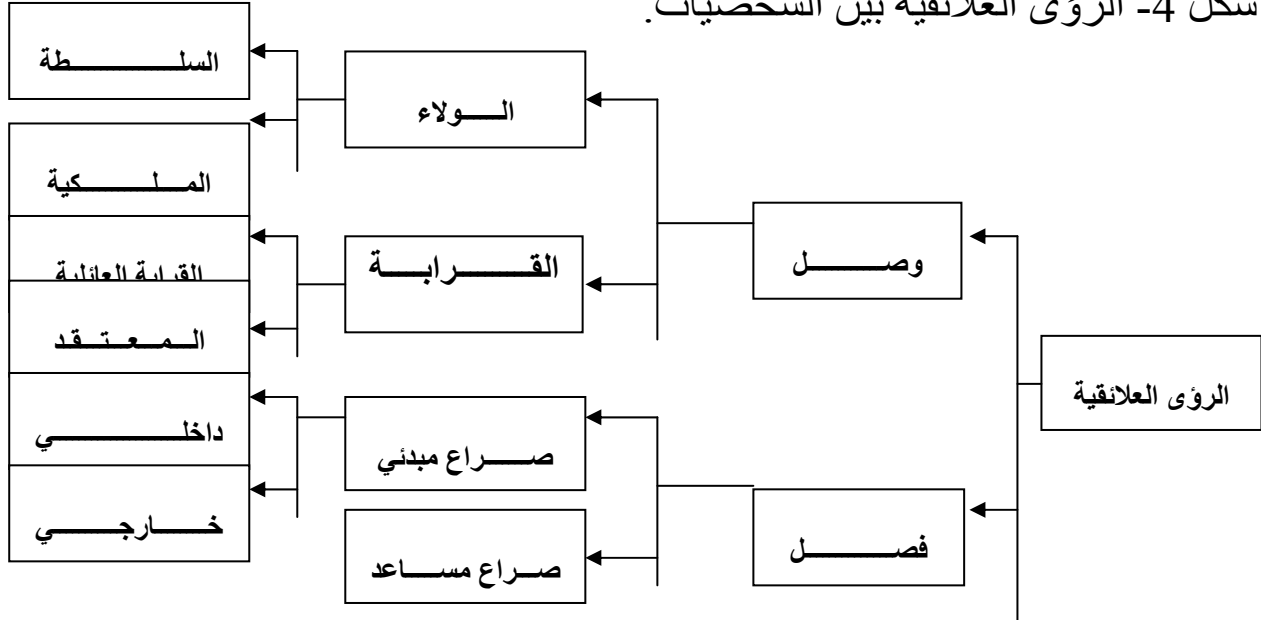
ب - الصراع المساعد (الثانوي):

تقوم مقاربتنا في دراسة بنيات الصراع بين شخصيات السيرتين - محل الدراسة - على اعتبار أن الصراع المبدئي هو الصراع المركزي الذي يظهر جليا للقارئ/ المروي له أحيانا، ويتخفى أحيانا أخرى تحت أحداث تبدو للوهلة الأولى أن لا علاقة لها به، وهذا ما نطلق عليه اسم الصراع المساعد (الثانوي)، إذ تستطيع القول بأنه هو الذي يولد تلك المجموعة من العوامل والأحداث الفرعية التي تساهم بشكل مباشر أو غير مباشر في احتدام أو ظهور الصراع المبدئي (المركزي). والصراع المساعد هو الذي يظهر بشدة وبكثرة على مستوى الحكمي في السيرتين - محل الدراسة - إلى درجة أنه ينسبنا في الصراع المبدئي (المركزي). فالراوي الشعبي يحاول دائما أن يضع البطلين في صراعات مساعدة لا حد لها فنجده يورطهما في حروب ومعارك كثيرة مع قبائل وممالك متعددة، فلا ينتهيان من حرب إلا وقد أوجد لهما حربا أخرى، إلى غاية نهاية السيرتين حينذاك يظهر الصراع المبدئي ويتم القضاء عليه.

هذه هي، إذن، أهم وجوه الصراع في السيرتين -محل الدراسة - إذ نلاحظ كيف أنه صراع شامل وقاس، لا يقتصر على الأعداء الخارجيين فقط بل يتسلل إلى العلاقات الأسرية والعشائرية والقبلية، كما أنه صراع عنيف في أكثر الأحيان، يهدف إلى قتل وهزم الآخر، إلا أن المنتصر في هذا الصراع يكون دائما الطرف الواقف إلى جانب الحق والعدل أما المعتدي أو العدو فنرى ظلمه وتعيده يعود عليه وبالاً وشرا مستطيرا وموتا بشعا زؤوما.

وقبل البدء في دراسة وتحليل بنيات الفواعل في سيرة سيف بن ذي يزن وسيرة عنتر بن شداد، نورد هذه الترسيمية* التي من خلالها تتجسد جميع الرؤى العلائقية بين مختلف الشخصيات في السيرتين :

شكل 4- الرؤى العلائقية بين الشخصيات.



رابعاً- بنيات الشخصيات الفاعلة:

إن كثرة الشخصيات الموجودة في السيرتين وتعددتها تولد إجهادا كبيرا لمن يحاول أن يدرسها في حد ذاتها، أي من خلال تحديد البنيات العامة لها ناهيك عن من يحاول دراستها واستخراج بنياتها وهي تقوم بالأفعال. وهذا راجع أساسا إلى سببين أساسيين هما: تعدد أفعالها من جهة، وطول السيرتين من جهة أخرى، لكن هذا لن يقيض عزيمتنا أو يثنينا عن هدفنا من هذا البحث، إذ سنعتمد على آليات أساسية تسمح لنا بحصر وتحديد مختلف بنيات الشخصيات الفاعلة، وذلك وفق مقومات وموجهات كل الشخصيات الفاعلة، وسنجد من الوهلة الأولى أن جميع شخصيات سيرتي "سيف بن ذي يزن وعنتر بن شداد"، تدور في فلك هذين البطلين اللذين تحمل السيرتين اسميهما (سيف / عنتر)، إذ يمكن القول – دون الاختلاف – أنهما شخصيتان محوريتان أو فاعلان مركزيان يجذبان ويؤثران في جميع ومختلف أفعال الشخصيات الفاعلة الأخرى على طول السيرتين.

إذن، إدراكنا ومعرفتنا للفعل المركزي والفاعل المركزي، يتيح معرفة باقي الأفعال الفرعية من جهة وكذا مختلف الفواعل الذين يقومون بها من جهة أخرى

1- بؤرة الأفعال المركزية والفاعل المركزي:

أ- ما قبل ولادة الفاعل المركزي (التأصيل):

* - انظر المرجع السابق، ص: 115. مع إضافات تناسب اتجاهنا في التحليل.

تبدأ كلتا السيرتين – محل الدراسة – بمقدمة تمهيدية يقدم فيها الراوي الشعبي الأصول العائلية أو القبلية التي ينتمي إليها كل من الفاعلين المركزيين (البطلين)؛ بحيث يركز تركيزا كثيفا على مختلف الحوادث والظروف التي تسبق ميلاده، والتي ستؤثر فيما بعد في مجرى الحكي وتحولاته في السيرتين، هذا ما يؤكد عبد الحميد يونس حيث يقول: ((السيرة الشعبية تمهد دائما لظهور البطل، وهي تبدأ قبل خروجه إلى الدنيا، وتمر بمراحل من الإرهاص والتبشير، ثم تقوم بمتابعة خطوة بخطوة))¹، ففي بداية سيرة "سيف بن ذي يزن" يقدم الراوي الشعبي شخصية الملك "ذو يزن" ويقص علينا قصة إسلامه مع عساكره وكيف بنى مدينتي "يثرب" و"الحمراء"، كما نجده أيضا يشير إلى النبوءات الرئيسية التي ستحرك أحداث السيرة لاحقا، والتي من أهمها: مجيء ملك من نسل "ذو يزن" يحمل شامة خضراء على خده الأيمن، يقوم بالقضاء على الكفر والشرك بالله وينقذ دعوة سيدنا نوح - عليه السلام -، ويستعمر مصر ويجري مياه نهر النيل.

ثم ينتقل الراوي الشعبي بعد ذلك ليتحدث عن شخصية أخرى هي "قمرية" حيث يسرد لنا مجموعة من الأحداث والخلفيات عنها، ويعرفنا كيف أنها كانت هدية مسمومة لقتل الملك "ذو يزن" من طرف ملك الحبشة الذي أراد أن يثار لشرف مملكته المغتصبة.

أما في بداية سيرة "عنتر بن شداد" فالراوي الشعبي يقوم بمحاولة لتأصيل نسب "شداد"، وكذا قبيلة "عبس"، بل يتعدى ذلك ليقوم بتأصيل نسب "زبيبة" – أم عنتر – أيضا، إذ يربطها بنسب "الملك النجاشي" ملك الأحباش، كما يشير أيضا إلى الحادثة التي جمعت بين "شداد" و"زبيبة"، وكل هذا التأصيل من أجل أن يثبت شرف البطل "عنتر" بالنسب قبل أن يثبتته فيما بعد بالأفعال.

كما يشير الراوي الشعبي أيضا، إلى مجموعة من الإرهاصات التي سبقت ولادة "عنتر بن شداد" كالحلم الذي راود "زبيبة" في منامها، وكذا تلك الحالة التي أصبحت عليها بعد حملها له - لعنتر - في بطنها، ويورد كل هذه الحوادث والظروف ليبين للقارئ / المروي له مدى أهمية ولادة هذا البطل الذي سيقمع الجبابرة الفاسقين في زمن الجاهلية حتى يمهد الأرض ويظهرها قبل ظهور الإسلام.

إن حكي ما قبل ولادة الفاعل المركزي يعد بمثابة ((تمهيد أساسي لانبثاق الفعل المركزي الذي يمكن أن نطلق عليه اسم "ميلاد الفاعل المركزي"))² الذي ستدور في فلكه جميع الأفعال والأحداث في السيرتين كل على حدا.

ب- ميلاد الفاعل المركزي:

¹ - دفاع عن الفلكور، الهيئة العامة، مصر، 1973، ص: 138.

² - يقطين سعيد، قال الراوي، ص: 118.

يتصل الفعل المركزي في كلتا السيرتين – محل الدراسة – أساسا بميلاد الفاعل المركزي، فجميع الأحداث والأفعال الأساسية والغايات المرجوة من السيرتين تتصل اتصالا وثيقا بهذا الميلاد، فلا يعقل أبدا أن تكون هناك سيرة شعبية أو أي حدث حكائي بدون فاعل مركزي، فهذا الأخير هو محور السيرة وركنها الأساسي، فاسمه هو عنوانها، وحياته هو مجالها وموته هو نهايتها.

- مقومات وموجهات الفاعل المركزي (البطل) :-

أ - الميلاد غير المرغوب فيه:

ما نلاحظه من خلال قراءتنا لبدايات السيرتين هو ذلك الرفض الذي لحق بولادة الفاعلين المركزيين من طرف أقرب الشخصيات لهما، فعند ميلاد "سيف بن ذي يزن" نجد أن أمه "قمرية" قد رفضته، بل تعدت ذلك إلى الرغبة في التخلص منه برميها في الغابة، وقد قامت بهذا كله من أجل الاستيلاء على عرش أبيه المتوفى. ونحن نعلم أن "قمرية" كانت في البدء هدية مسمومة لقتل الملك "ذو يزن"، أما فيما يخص "عنتر بن شداد" فإننا نجد أن شدادا قد رفض رفضا قاطعا أن ينسب إليه لا لشيء سوى أنه أسود البشرة وابن أمة غرابية.

ب - الولادة غير الطبيعية: تبدأ أحداث السيرتين – كما أشرنا سابقا – قبل

ولادة الفاعل المركزي فيهما حيث يضعنا الراوي الشعبي في جو مفعم بالأحداث التي تجعل القارئ/ المروي له في حالة من الترقب والانتظار، إذ يشير إلى مجموعة من الإرهاصات التي تسبق هذا الميلاد، ليؤكد على مدى أهميته في مجرى سير جميع أحداث السيرتين، فنجد في سيرة "سيف بن ذي يزن" أن الحكيم "سقرديون" يخبر الملك "أفراح" أنه وجد في الكتب القديمة أن ولدا سيظهر يقال له "سيف" ((يكون أبوه من اليمن ... يظهر له شأن وأي شأن، يحكم على الإنس والجن))¹، وأن لهذا الولد المرتقب شامة على خده الأيمن، وسيقوم بتنفيذ دعوة سيدنا "نوح" – عليه السلام –، ومن دلائل تنفيذ هذه الدعوة أو النبوءة اقتران شامته بشامة أخرى ... الخ، فهذا الخبر يجعل القارئ / المروي له في حالة ترقب لميلاد هذا الولد العجيب الذي حددت مهامه وغاياته قبل أن يولد.

أما عن ولادة "عنتر بن شداد" فهي غريبة أيضا، فالراوي يعمد إلى إيراد مجموعة من الإرهاصات والإشارات التي تؤكد أيضا على أهميتها، فـ"زبيبة" تحلم حلما رهيبا يفسر لها بأنها ستلد مخلوقا عجيبا متميزا ومتفوقا على بقية أقرانه، كما تروي السيرة كذلك كيف أن "زبيبة" قد ظهر عليها الحمل وكبر بطنها حتى حان

¹ - سيرة سيف بن ذي يزن، م 1، ص: 36.

وقت الولادة ((فلما كانت تلك الليلة أخذها الطلق، فمازالت من أولها تصرخ إلى غاية وقت السحر حتى ولدت عنتر))¹.

فالراوي الشعبي يلجأ إلى سرد أحداث ووقائع غريبة وعجبية تلازم عملية ولادة الفاعل المركزي، وذلك ليضفي لمسة أو هالة عجائبية عليها بغية التأكيد والإصرار على مدى أهميتها على مستوى سير جميع الأحداث فيما بعد، والتي قلنا عنها - سابقا - بأنها هي الفعل المركزي الذي ستدور عليها جميع أحداث السيرتين.

ج - الاستقلال الذاتي التخالف للفاعل المركزي: إن الفاعل المركزي في كتا

السيرتين صاحب رسالة، وهي دائما رسالة الحق والخير، فهو يصارع دائما الشخصيات التي تمثل قوى الشر والظلم، وينتصر دائما عليها مهما تعددت صورها واختلفت أشكالها. ولتأكيد هذه الفكرة المحورية يلجأ الراوي الشعبي إلى إدراج العديد من الأحداث والوقائع التي تبين تميز هذا الفاعل المركزي وتفوقه على بقية أقرانه منذ بداية تكوينه ونشأته، فيقرن الكثير من الصفات الجليلة والأفعال الحميدة به، ف"سيف بن ذي يزن" كان ك ((البدر في ليلة أربعة عشر، على خده شامة خضراء، كما كانت على خد أبيه، لأن ملوك التبابعة تعرف بها منذ قديم الزمان))².

ووفق هذا الوصف المثير فإن الراوي الشعبي يشير من الوهلة الأولى إلى أن هذا الفتى يمتلك أمارات الملوك "التبابعة" العظام، ثم يتابع في ذلك ويسرد كيف أن هذا الفتى ذو العشرة أعوام يرفض أن يمتطى مهرا صغيرا قدم له هدية من الأمير "إبراهيم" ويطلب جوادا، فيقدمه له الملك "أفراح"، فكان هذا الجواد ((أدهم كأنه الليل إذا أظلم يطوي الأرض بالخبب، تربية ملوك العرب، فلما رآه عجبه غاية العجب، فركبه وأعتدل فوق ظهره، فطلب رمحا طويلا وسيفا صقيلا، فأتوا له بكل ما طلب وقد أخذهم من ذلك العجب))³.

أما في سيرة "عنتر بن شداد" فنجد أن الراوي الشعبي ينهج نفس النهج السابق إذ يلجأ إلى تكثيف الأحداث والمواقف التي تبين تميز "عنتر" الفتى وتفوقه واختلافه عن بقية أقرانه من نفس العمر، فهو لم يكن شديد الارتباط بأمه على عادة الفتية في مثل سنه. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على استقلاليته المبكرة.

كما أن نموه كان سريعا وغريبا في نفس الوقت، وقد شمل هذا النمو الجسم والسلوك معا، حتى فاجأ جميع أفراد قبيلته من حوله، وأصبح فرسان "بني عبس" يختلفون حوله، وقد اشتى كل واحد منهم أن يناظره ويبارزه، حتى دبت الفتنة واشتدت بينهم لولا تدخل "امرؤ القيس".

1 - سيرة عنتر بن شداد، م 2، ص: 25.

2 - سيرة سيف بن ذي يزن، م 1، ص: 29.

3 - المصدر نفسه، م 1، ص: 41.

لقد كان "عنتره" الفتى شجاعا مقداما، لا يهاب من شيء على الإطلاق، رغم حداثة سنه، فقد كان إذا خرج إلى رعي الأغنام ((يقضي نهاره بالجري في جنبات البر ويراكض كلاب الغنم، ويتعلم من مطاربتها الكر والفر، وفي كل يوم تزداد قوته، وبينما كان يرعى ذات يوم إذ لمح ذئبا بين الغنم، فسعى نحوه إلى أن قاربه وصرخ فيه، كان الذئب قوي الرأس، صعب المراس ... فهجم عليه عنتره وضربه بعصاه، فجاءت بين عينيه فطيرت مخه من أذنيه، وفي الحال تقدم عنتره إليه، وقد شد قلبه عليه، وداسه برجله ثم بعدها قطع يديه ورجليه ورأسه من بين كفيه، وعاد يهتمهم ويدمدم ويزمجر كأنه الأسد الجسور))¹.

والقارئ للسيرتين يجد أنهما تعجان بهذه الأحداث والمواقف التي تبين أن حياة الفاعل المركزي فيهما ستكون مميزة ومختلفة عن حياة بقية الشخصيات، إذ يورد الراوي الشعبي من الوهلة الأولى مؤشرات وعلامات تؤكد للقارئ / المروي له أن الفاعل المركزي سيرتقي إلى مصاف الأبطال الملحنيين أو الأسطوريين.

د - اليتم:

وهو مقوم بنيوي أساسي يشترك فيه كل من الفاعلين المركزيين في السيرتين - محل الدراسة -، حيث يتمظهر بوجهان: ((يتم حقيقي ومعنوي))²: فالأول ناتج عن وفاة أحد الوالدين في الوقت الذي يكون فيه الفاعل المركزي مازال في مرحلة الطفولة، وهذا ما نجده في سيرة "سيف بن ذي يزن"، حيث يموت والده وهو صغير، وينتج عن هذا اليتم أنه أصبح فريسة سهلة لأمة "قمرية" الراغبة في التخلص منه بشتى الطرق والاستيلاء على عرش أبيه فترميه في الغابة، فيجده أحد أتباع الملك "أفراح" فيقدمه له ليتربي في أحضانه بعيدا عن موطنه الأصلي، أما الوجه الآخر فهو ذلك الإحساس الذي يتولد في نفسية الفاعل المركزي نتيجة لرفض والده نسبه إليه أو الاعتراف به كابن شرعي له مما يؤدي به إلى أن يعيش بعيدا عن أحضانه، وهذا ما نجده في سيرة "عنتره بن شداد".

واليتم بوجهة المختلفين يؤدي بالفاعل المركزي إلى الخروج من المكان الذي ولد فيه مما يتيح إمكانات حكاية مختلفة تساهم كلها في بناء شخصية الفاعل المركزي، كما تولد لديه تلك الرغبة الملحة في محاولة فرض وجوده بكل الأشكال، مما يولد الصراع مع الأم والأب والقبيلة والأمم بكاملها لاسترداد مكانته ونيل هذا الاعتراف.

هـ - جاذبية الفاعل المركزي:

¹ - سيرة عنتره بن شداد، م 1، ص: 78.
² - يقطين سعيد، قال الراوي، ص: 120.

الفاعل المركزي جذاب ممشوق القوام، مثال للرجل الكامل التكوين في ثقافة الجماعة الشعبية العربية، فالملك "سيف بن ذي يزن" رائع الجمال، كامل الأوصاف يسحر فتيات عديدات إلى درجة أنهن رغبين بشدة في الزواج منه، فهو يجمع بين شرف النسب والوجاهة والجمال، هذا ما جعل "شامة" تفتتن به إلى درجة الهيام وجعل "طامة" بنت الحكمة "عاقلة" ((تتأمل في صورته وتميز حسنة وجماله وما كساه الله تعالى من البهاء والقدر والاعتدال ، ومال قلبها إلى محبته))¹.

أما "عنتر بن شداد" فقد حالت المعطيات التاريخية دون أن يبديع الراوي الشعبي في وصف جماله الخلفي، ذلك أنه أسود البشرة قاسي الملامح... الخ، لكن هذا لم يمنعه من أن يضيف الجاذبية عليه من خلال سمو الأخلاق والأفعال الجليلة التي يقوم بها، والقوة الأسطورية التي يمتلكها التي تتجاوز في كثير من الأحيان قوة الإنسان العادي، إلى درجة أن فضلته "عبله" على أمراء وفرسان كثيرين من بينهم "عمارة بن زياد" و آخرون.

و - مثالية الفاعل المركزي:

إن من يقرأ السيرتين سيجد أن الفاعل المركزي فيهما يتميز بطابعه المثالي، فهو لا يهادن ولا يتراجع عن مبادئه التي يؤمن بها، كما يلتزم التزاما شديدا بمبادئ وقيم الجماعة الشعبية العربية التي يعيش ضمن نطاقها، فهو يطبق مثلها العليا الأخلاقية منها والاجتماعية خير تطبيق، متنازلا أحيانا عن بعض حقوقه الفردية، فهو يمثل الصورة الإيجابية للإنسان الذي يستمع إلى صوت الأنا العليا، ففي سيرة "سيف بن ذي يزن" نجد أن "قمرية" أساءت مرارا وتكرارا لـ "سيف" وكادت أن تقتله أكثر من مرة ومع ذلك نجده لا يحقد عليها ولا يضرم الشر لها، بل يتجاوز ذلك ويعفو عنها في كل مرة كما عفا عن العديد من الفرسان والجنود عندما أعلنوا استسلامهم وتوحيدهم لله عز وجل وعدم تعديهم على الآخرين، وكذلك فعل "عنتر بن شداد" حين وقع غريمه "شاس بن زهير" في الأسر، حيث سارع إلى نجده وفك أسره، حتى أن "شيبوب" لأمه على هذا الفعل، فرد عليه "عنتر" ردا حكيما يظهر سمو أخلاقه ومثاليته فيقول له: ((لا تقل هذا المقال يا شيبوب، وكن قريب المرجوع حتى تصير عند الناس محبوب، واعلم أنه لا ينال العلا إلا من ليس عنده حقد ولا ظلم ولا اعتداء، فإن الظلم يا أخي عاقبته الندم، ولا تؤمن عواقبه بين الأمم. فدعني أتحمّل عن قومي المصائب، ولا أشمت بهم الأعداء ولا الحبايب، عسى أن يفرج الله علي))².

¹ - سيرة سيف بن ذي يزن، م 3، ص: 93.
² - سيرة عنتر بن شداد، م 4، ص: 364.

فـ"عنتره" لم يعده أحد بشيء، بل اندفع من تلقاء نفسه وأخلاقه النبيلة، فتراه ينقذ من أفراد قبيلته من هم من أعداءه المرة تلو الأخرى، وفي النهاية لا يجد منهم سوى الأذى، ومع هذا لم يتخل عن خلقه الكريم.

ز – الكفاءة التخالفية للفاعل المركزي: الفاعل المركزي متفوق في صفاته الجسدية على بقية أقرانه وفرسان زمانه، فهو قوي جبار، وأكثر ما تظهر قوته في ساحة المعركة، لذلك تصوره السيرتين على أنه فارس قوي له ضربات هائلة تقطع حتى الدروع الحديدية، فقد طعن "عنتره بن شداد" "ربيعة بن فياض" فارس قبيلة "طيء" فـ ((خرق أمعاه مع ما هو متحصن به من لبس الحديد))¹.

فقوة الفاعل المركزي يظهرها فعل ضربته، فهي تقطع عنق الفارس وتمزق جسد جواده في آن واحد، وطعنة رمحه تخرق ((الدروع والصدور وتخرج من الظهر))².

كما يلجأ الراوي الشعبي أيضا إلى طريقة أخرى لتصوير قوة الفاعل المركزي وشجاعته، وتقوم هذه الطريقة على الاستفاضة في وصف قوة خصمه، فـ"سعدون" خصم "سيف بن ذي يزن" كان ((كأنه طود من الأطواد أو من بقايا قوم عاد، بدماغ قدر القبة المبنية، وجهه قدر الصانبة، بعينين كأنهما شعلتان، وشفنتين كأنهما دنوان وزنود مثل زنود الفيل، وهو عريض طويل))³.

أما "مسحق بن طراق" الذي أراد الزواج بمحبوبة "عنتره بن شداد" "عبلة" كان ((كأنه الرمح الطويل، وله أعضاء كأعضاء الفيل، عريض الأكتاف، غليظ الأطراف، وعلى رأسه عمامة أطرافها مذهبة، وهو يخيط الأرض بإبهاميه من طول قامته، وقد تعب الجواد من ثقل جنته))⁴.

فالفاعل المركزي – في كلتا السيرتين – يكر على هؤلاء الفرسان المخيفين غير آبه بالمخاطر التي ستلحق به من جراء ذلك، ويبارزهم بقلب من صخر، وسواعد ضرباتها أسرع من البرق، فيقتلهم ببسر أحيانا وبصعوبة أحيانا أخرى، فتعود جميع أوصاف القوة التي أسبغت على الخصم إليه، ذلك أن من يستطيع التغلب على هؤلاء الجبابرة لا شك في أنه أكثر قوة وجبروتا منهم.

كما تظهر بطولة الفاعل المركزي أكثر حين يلحق الهزيمة بعدد كبير من الجنود والفرسان المجتمعين، فها هو "سيف بن ذي يزن" يواجه لوحده جيشا بكامله دون أن يخاف، فيرمي بنفسه في ساحة الوغى ((ويضرب ضربا لا يبقي ولا

1 - المصدر السابق، م 3، ص: 185.

2 - سيرة سيف بن ذي يزن، م 7، ص: 67.

3 - المصدر نفسه، م 5، ص: 163.

4 - سيرة عنتره بن شداد، م 2، ص: 45.

يذر، وكان الحسام الذي أخذه من الحاجب فصال، فأباد به الجماجم والأوصال وأجرى الدماء مثل السيل السيل، وسطح الأجساد في تلك البقعة وملاها جثثا))¹.

أما "عنتر بن شداد" فليس لشجاعته حدود، إذ يهجم على جيش من الفرسان ف ((يكنس فارسا بعد فارس، ويجندل كل بطل مداعس وهو يعجل حتفهم، حتى أفنى أكثر من نصفهم))².

والواقع أنه يمكن الإدراك من خلال جميع أحداث السيرتين - محل الدراسة - أن الفاعل المركزي نقيض الهزيمة والموت، رفيق الظفر والحق، يشهر حسامه في ما ينتظره من مهمات، ويخوض فيما يعتقد من الواجبات التي تفرضها عليه أخلاقه أحيانا ومجتمعه أحيانا أخرى غير عابئ بقله أو بكثرة خصومه، وكيف يخاف وهو يشعر بقوة هائلة تفيض من بين جناحاته، حتى أن "عنتر بن شداد" يقول بكل ثقة: ((أنا ملك، العرب كلها لي ولا يعيقني على أخذها إلا طلب الراحة، ولا أتركها إلا عفوا مني))³.

د - وجود علامات خاصة بالفاعل المركزي:

يتفرد الفاعل المركزي في كلتا السيرتين - محل الدراسة - بعلامات عضوية خاصة ومرتبطة به، بحيث يتم التعرف عليه من خلالها، ف"سيف بن ذي يزن" يتفرد بتلك "الشامة الخضراء" على خده الأيمن التي من خلالها يتبين شرف نسبه، ذلك أنها علامة يتميز بها جميع ملوك "التبابعة"، ويعرفها كل من له علم بالكتب القديمة. لذلك نجد أن الحكيم "سقرديس" لما رأى "سيف بن ذي يزن" وهو بعد طفل صغير موضوع بجانب الأميرة "شامة" بنت الملك "أفراح" حتى قام صارخا وسط المجلس من هول صدمته الشديدة ((ونظر إلى وجه الغلام، فنظر إلى الشامة التي خده اليمين تنير، هو كأنه البدر... وعندما جيء بشامة إلى جانبه صاح بأعلى صوته: إني خائف من اجتماع هاتين الشامتين))⁴.

أما في سيرة "عنتر بن شداد"، فالفاعل المركزي فيها (عنتر) يتميز بعلامة خاصة جدا به وهي صرخته المدوية، إذ أنها ((صرخة إذا صرخها تجاوبه القيعان والبيد، ويلين منها الحديد، وتغلق الحجر الصلب وتزلزل الأرض لعظم صرخته، وتولي الخيل من شدة هيئته، وتحطم الرماح في الازدحام، وتتكرس الأبطال والشجعان))⁵.

1 - سيرة سيف بن ذي يزن، م 3، ص: 299.

2 - سيرة عنتر بن شداد، م 2، ص: 41.

3 - المصدر نفسه، م 5، ص: 210.

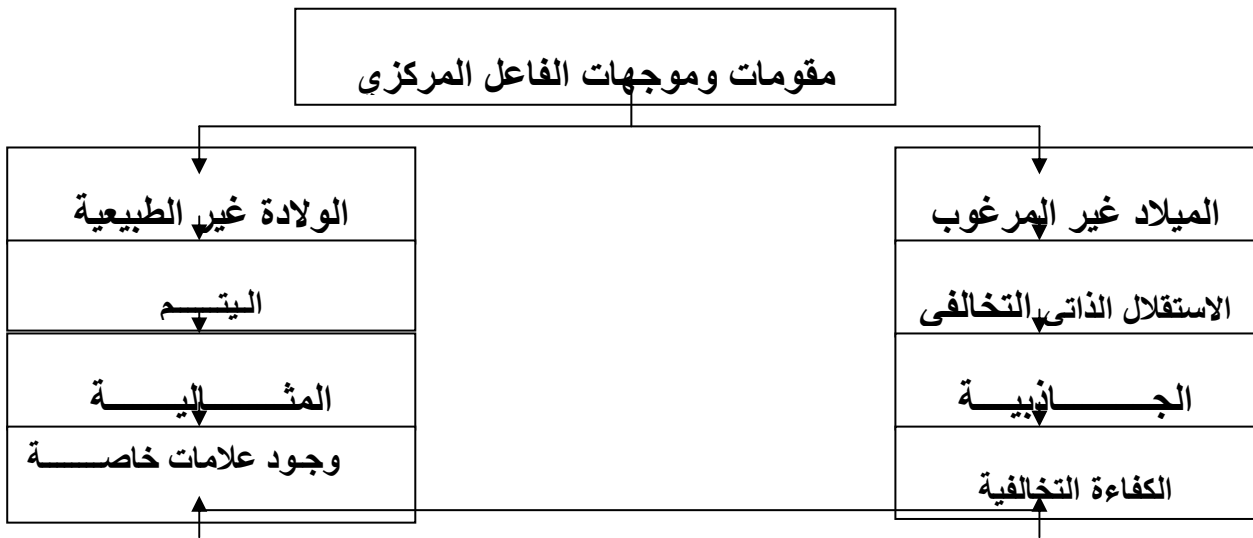
4 - سيرة سيف بن ذي يزن، م 2، ص: 35.

5 - سيرة عنتر بن شداد، م 4، ص: 292.

فقوة هذه الصرخة دليل على قوة صاحبها، وخوف الخيل إشارة إلى خوف فرسانها الشديد، إذ أنها تعلم من هو صاحب هذه الصرخة، وما هو قادر على الإتيان به.

وفي الأخير يمكن القول أن الجماعة الشعبية العربية حملت الفاعل المركزي آلامها وأحلامها، وجسدت فيه آمالها، فتضخمت صورته من جراء ذلك، وتناولت حتى اكتسبت أبعادا أسطورية تفوق ما هو موجود لدى الإنسان العادي.

ويمكن توضيح مقومات وموجهات الفاعل المركزي في السيرتين من خلال الترسمة التالية:



شكل 5 - مقومات وموجهات الفاعل المركزي.

إذن، من خلال استقراء لهذه الترسمة، فإننا نرى أن كل شخصية فاعلة تحمل هذه المقومات والموجهات فإنها تدخل ضمن بنية الفاعل المركزي.

2- بنية الأفعال الأساسية والفواعل الأساسيون:

يتصل الفواعل الأساسيون اتصالاً وثيقاً ومباشراً بشخصية الفاعل المركزي في كلتا السيرتين - محل الدراسة -، حتى أنه يمكن القول أن جميع أفعالهم تدور في فلكه، ذلك أنهم يلزمونه باستمرار من بداية السيرتين إلى غاية نهايتهما، في جميع

الأفعال التي يضطلع بتأديتها من جهة، كما أنهم يؤثرون فيه من جهة أخرى للقيام بها. وهذا ما يجعل الأحداث تتشعب على طول المتن الحكائي السيري.

وما نلاحظه في السيرتين - محل الدراسة - أن ظهور هؤلاء الفواعل يكون قبل أو مع بداية ظهور الفاعل المركزي، وهذا الارتباط يؤدي بهم إلى القيام بأفعال أساسية توازي أفعال الفاعل المركزي من حيث الأهمية في مجرى الحدث الحكائي.

ويمكن إدراج الفواعل الأساسيون في السيرتين ضمن مجموعتين رئيسيتين، وذلك وفق طبيعة ردود أفعالهم ومواقعهم من الفاعل المركزي أو تعارض وجهات نظرهم معه، الأولى: مجموعة الفاعل الأساسي المساعد. والأخرى: مجموعة الفاعل الأساسي الشرير.

2-1- الفاعل الأساسي المساعد:

يحتل الفاعل الأساسي المساعد مكانه هامة في مجرى أحداث كلتا السيرتين وهذا راجع - كما تم ذكره سابقا - إلى ذلك الاقتران الوثيق الذي يؤصله الراوي الشعبي بينه وبين شخصية الفاعل المركزي، فقد تكون ولادتهما في نفس اليوم ثم بعد ذلك يتلازمان مع بعضهما البعض إلى غاية نهاية أحداث السيرة " عاقصة، عيروض"، كما قد يلتقي به في أول ظهور له ويصبح أداة مساعدة له في تجاوز العقبات التي تعترضه في مختلف مراحل السيرة.

ونستطيع أن نقول أن الفاعل الأساسي المساعد يضطلع بدور الأخ أو الصديق المرشد للفاعل المركزي، وذلك لما يتميز به من مقومات ذهنية أو جسدية فائقة من جهة وبما يتفرد به أيضا من آليات أو أدوات سواء كانت فطرية أو مكتسبة يتسلح بها من جهة أخرى.

وسنحاول الآن أن نقوم باستخراج ودراسة أهم المقومات والمواجهات الخاصة بالفاعل الأساسي المساعد في سيرتي "سيف بن ذي يزن" و"عنتر بن شداد"، بحيث سننهج نفس النهج الذي سلكناه - سابقا - حين درسنا مقومات ومواجهات الفاعل المركزي.

* - مقومات وموجهات الفاعل الأساسي المساعد:

1 - التآخي بين الفاعل الأساسي المساعد والفاعل المركزي:

تجمع الفاعل الأساسي المساعد علاقة الأخوة بالفاعل المركزي بمختلف أشكالها، فقد تكون أخوة طبيعية أو من الرضاعة أو الدين، ففي سيرة "سيف بن ذي يزن" نجد أن الفاعل المركزي هو "سيف" أما الفاعل الأساسي المساعد الأول فهو "عاقصة الجنية" والعلاقة التي تربط بينهما هي علاقة الأخوة من حيث الرضاعة ذلك أنه عندما رمت "قمرية" "سيفا" في الغابة بغية التخلص منه، رآته أم "عاقصة" فأخذته وقامت بإرضاعه. وكانت في ذلك الوقت قد ولدت "عاقصة". كما أن "سيفا" عاش لمدة ثلاثة سنوات معهما، إذن تحدثت العلاقة بينهما منذ بداية ظهورها في المتن الحكائي، وهذه العلاقة هي التي ستجعلها تكون الأداة المساعدة له في تجاوز الكثير من العقبات والحواز التي ستعترضه في مختلف مراحل السيرة إلى غاية نهايتها. ونفس الشيء نجده في سيرة "عنترة بن شداد"، فهذا الأخير تربطه علاقة أخوة بالفاعل الأساسي المساعد الأول "شيبوب" فهما أخوان من جهة الأم، وزد على ذلك أنهما نشأ مع بعضهما البعض، فكان "شيبوب" يساعد "عنترة" في تعلم الكر والفر وكذا الفروسية والرمي بالنبال وإلى غير ذلك من فنون الحرب، ناهيك عن الأفعال الجليلة التي سيقوم بها على طول السيرة.

وتتعدى هذه العلاقة الأخوة الطبيعية أو من الرضاعة إلى الأخوة في الدين فنجد أن جميع الفواعل الذين يؤمنون بعقيدة واحدة يهبون لمساعدة بعضهم البعض. ويصبحون بذلك كـ "البنيان المرصوص" في مواجهة قوى الشر، فـ "سمكه الجذع" مثلا تساعد "سيف بن ذي يزن" وتخلصه من أعداءه الصيادين، لا لشيء سوى أنه يدين بدينها (توحيد الله - عز وجل -).

2 - السرعة الفائقة:

يعتبر مقوم السرعة الفائقة من بين أبرز مقومات الفاعل الأساسي المساعد، إذ أنه يمتلك قدرات عجيبة في قطع المسافات الطويلة واجتيازها بسرعة تفوق سرعة باقي الشخصيات - الفواعل الأخرى في السيرتين، فـ "عاقصة، عيروض، وعفاشة" في سيرة "سيف بن ذي يزن" فائقو السرعة، ولا عجب في ذلك إذا علمنا أنهم جميعا شخصيات نارية (جنية)، ومن المعروف في الخيال الشعبي العربي أن الجن يمتلكون القدرة على الانتقال بين مكانين بعيدين في لحظة بصر، ونفس الشيء نجده أيضا في سيرة "عنترة بن شداد"، إذ أن "شيبوب" يمتلك طاقة كبيرة على الجري إلى درجة أنه يستطيع أن يتفوق على سرعة الخيول، ولا عجب أيضا حين يقرنه الراوي الشعبي في كثير من المرات بلقب "الجنى".

إن هذا المقوم الأساسي يجعل الفاعل الأساسي المساعد يضطلع بأدوار وأفعال خاصة ومميزة في كلتا السيرتين - محل الدراسة - لا يستطيع أحد آخر من الشخصيات - الفواعل القيام بها، كدور الجاسوس أو الرسول الذي ينقل رسائل

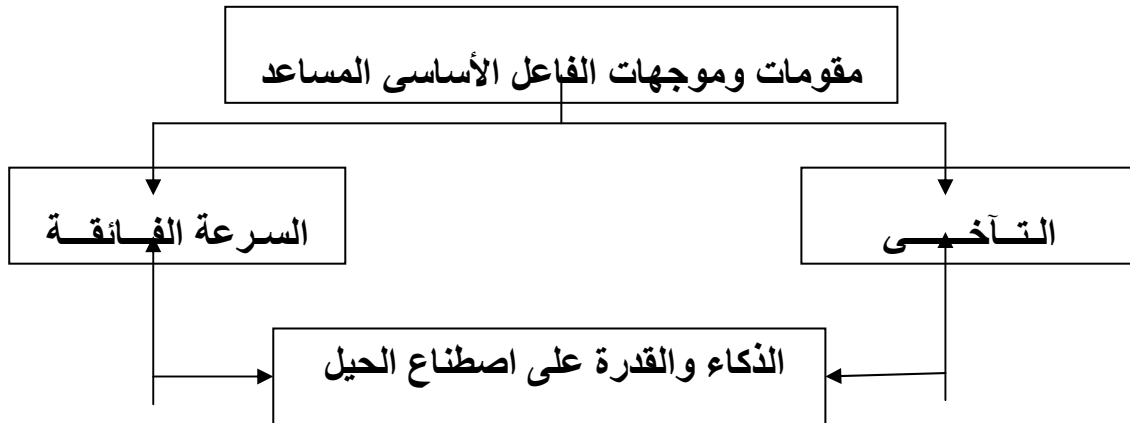
وأوامر الفاعل المركزي أو غير ذلك من الأدوار التي تحتاج إلى شخصية فاعلة تتمتع بهذا المقوم .

3 - الذكاء والقدرة على اصطناع الحيل:

إن ما يميز الفاعل الأساسي المساعد عن غيره من الشخصيات الفواعل هو ذلك الذكاء اللامع الذي يستخدمه من أجل غايات حميدة تنصب كلها في مساعدة الفاعل المركزي الذي هو بدوره يصبوا إلى تحقيق العدل والحق... الخ، على عكس الفاعل الأساسي المعارض - الذي سنتحدث عنه فيما بعد - الذي يستخدم قدراته الذهنية الفائقة من أجل غاية واحدة هي الفتك بالفاعل المركزي وبكل ما يمثل من قيم. ويسمح هذا الذكاء للفاعل الأساسي المساعد بابتكار وإبداع الكثير من الحيل المساعدة، حين لا تصبح لقوة وبطش الفاعل المركزي أية مكانة، وبهذا يصبح دوره مكملًا لدور الفاعل المركزي ويتلاحمان ليصبحا وجهان لعملة واحدة غايتها تحقيق العدل ونشر السلام.

ومن بين أبرز الحيل التي يستخدمها الفاعل الأساسي المساعد: التكرار، فهو قادر بذكائه أن يتمثل صورة أي شخصية يريد أن ينتحلها تمثلاً متقناً يصعب حتى على الفاعل المركزي - ذي الصلة الوثيقة به - التعرف عليه.

ويمكن تجسيد مقومات وموجهات الفاعل الأساسي المساعد من خلال الترسيمة التالية:



شكل 6 - مقومات وموجهات الفاعل الأساسي المساعد

إذن، ومن خلال استقراء هذه الترسيمة، فإننا نرى أن كل شخصية فاعلة تحمل هذه المقومات والموجهات فإنها تدخل ضمن بنية الفاعل الأساسي المساعد.

2 - 2 - الفاعل الأساسي المعارض:

تمت الإشارة فيما سبق إلى أن كلا من الفاعل المركزي والفاعل الأساسي المساعد يحتلان موقعا هاما في تحقيق الأفعال في كلتا السيرتين، لكن الذي يتتبع بدقة مجريات الأحداث فيهما سيجد أن الفاعل الأساسي المعارض هو الذي يحتل المكانة الأبرز والأهم. وهذا راجع إلى تلك الأدوار التي يضطلع بالقيام بها على طول المتن الحكائي؛ إذ أنه يعتبر "المولد" الحقيقي لجميع الأفعال التي يقوم بها الفاعل المركزي وكذا الفاعل الأساسي المساعد، وتصبح هذه الأفعال مجرد ردود ناتجة عن الفعل الذي يقوم به الفاعل الأساسي المعارض. وإن صح التشبيه فإنه يمكن القول أن أفعال جميع الشخصيات الفاعلة في السيرتين ما هي في حقيقتها إلا كالمرآة العاكسة لجميع أفعال الفاعل الأساسي المعارض في شكل ردود أفعال بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

والواقع أن الفاعل الأساسي المعارض لا يختلف عن الفاعل المركزي في تطلعاته وتصوراته فحسب، بل يناقضه في جميع الأفعال التي يقوم بها من بداية السيرتين إلى غاية نهايتهما.

والملاحظ أن ظهور الفاعل الأساسي المعارض يسبق ظهور جميع الشخصيات - الفواعل، وحين يظهر الفاعل المركزي يحاول جاهدا وضع الحواجز والعراقيل أمامه، مستعملا جميع السبل المشروعة وغير المشروعة لإثناؤه عن تحقيق غاياته. ولكن هيهات أن يفلح، فهو في صراع مستمر معه، ولا تنتهي السيرتين إلا بموته والقضاء عليه، وبذلك يتحقق العدل والسلام وينتشر في جميع البقاع.

ومن خلال دراسة الفواعل الأساسيين المعارضين في سيرة "سيف بن ذي يزن" و"عنتر بن شداد"، وجدنا أنه بإمكاننا إدراجهم ضمن ثلاثة مجموعات أساسية وذلك بحسب انتمائهم وأفعالهم هي:

أ - خارجيون:

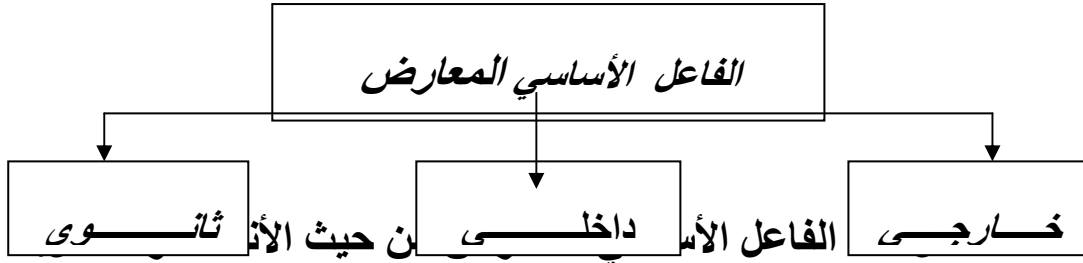
بمعنى أن يكون الفاعل الأساسي المعارض من خارج الجماعة الشعبية العربية الموحدة، أي أن يكون منتميا إلى فئة إثنية (عرقية)، أو دينية مختلفة أو معادية لها، إذ تؤثر أفعاله مباشرة في حياة هذه الجماعة، كأن تشن الحرب عليها أو تحتل أرضيها... الخ. وخير مثال على هذه المجموعة: شخصية "الملك سيف أرعد" الحاكم على الحبشة والسودان، وكذا الحكيمين "سقرديون وسقردس" في سيرة "سيف بن ذي يزن".

ب - داخليون:

بمعنى أن يكون الفاعل الأساسي المعارض منتميا إلى قبيلة أو عائلة الفاعل المركزي، وهنا تكون أفعاله أشد أثرا وأقوى إيلاما للفاعل المركزي، وضمن هذه المجموعة نجد مثلا شخصية "قمرية" في سيرة "سيف بن ذي يزن"، و"عمارة بن زياد" وشقيقه "الربيع" في سيرة "عنتر بن شداد".

ج - ثانويون:

بمعنى أن يؤدي الفاعل الأساسي المعارض دورا صغيرا ثم يختفي في سياق الأحداث قتلا أو توبة، وضمن هذه المجموعة نجد مثلا شخصية "الكهين الشعشان" في سيرة "سيف بن ذي يزن"، و"الحارث بن ظالم" في سيرة "عنتر بن شداد".
إذن يمكن تجسيد ما قلناه سابقا من خلال الترسيمة التالية:



* - مقومات وموجهات الفاعل الأساسي المعارض:

1 - المكانة المرموقة وأسبقية الظهور:

حينما نقرأ السيرتين - محل الدراسة - سنجد أن الفاعل الأساسي المعارض يظهر وجوده في المتن الحكائي قبل ظهور الفاعل المركزي، حيث يقدمه لنا الراوي الشعبي على أنه يحتل مكانة مرموقة في المجتمع الذي يعيش ضمن نطاقه، وأن له السلطة والقوة التي تؤمن له السؤدد وكل ما يحتاجه ويطلبه، في حين أن الفاعل المركزي يظهر فيما بعد، ويكون في أغلب الأحيان مبعدا فقيرا، يحاول أن يشق طريقه معتمدا على امكاناته الخاصة، من قوة وشجاعة، للوصول إلى تلك المكانة المرموقة التي يحتلها الفاعل الأساسي المعارض أو ازاحته عنها.

ففي سيرة "سيف بن ذي يزن" نجد أن ظهور "الملك سيف أرعد" و"قمرية" كان قبل ظهور الفاعل المركزي "سيف"، إذ أنهما كانا معاصران للملك "ذو يزن" الذي تأمرا على قتله، وأستولت "قمرية" على عرشه بعد أن رمت "سيف" في الغابة.

أما في سيرة "عنتر بن شداد" فنجد أن "مالك" وإبنة "عمرو"، و"الربيع بن زياد" وأخوه "عمار" يحتلون مكانة إجتماعية مهمة في قبيلة "عبس"، فهم من أسيادها وأصحاب المشورة والقرار فيها.

2 - الكفر والشرك:

إن ما يلاحظ على خلفية الفاعل الأساسي المعارض الدينية، يجد أنها متناقضة تماما مع خلفية الفاعل المركزي الدينية، ذلك أن السيرتين تقدمه لنا على أنه إما كافر يعبد الكواكب أو النجوم أو النار... الخ، وإما مشرك بالله - عزوجل-، ففي سيرة "سيف بن ذي يزن"، نجد أن الملك "سيف أرعد" والحكيمن "سقرديون وسقرديس" يعبدون زحل من دون الله عزوجل". أما في سيرة "عنتر بن شداد"، فالفاعل الأساسي المعارض من عباد الأصنام والأوثان، فـ"مالك" - والد "عبلة" - و"الربيع" و"عمار إبن زياد" يعبدون جميعا الأصنام شأنهم في ذلك شأن أغلبية العرب في زمن الجاهلية، فهم يقسمون بـ"اللات والعزى" ويعظمونها أشد تعظيم.

3- الانتحال وعدم الثبات:

ما يلاحظ أيضا على الفاعل الأساسي المعارض في كلتا السيرتين هو أنه لا يواجه الفاعل المركزي وجهها لوجه، بل يلجأ دائما إلى سبل أخرى، حتى وإن كانت غير مشروعة، رغبة منه في تحقيق هدفه الأساسي وهو الفتك به، ومن أهم هذه السبل: الانتحال وعدم الثبات.

فالفاعل الأساسي المعارض يقوم دائما بانتحال شخصيات تكون في أغلب الأحيان مساعدة للملك أو شيخ القبيلة، أو إلى أي شخصية يرى فيها أنها قد تلحق الأذى بالفاعل المركزي، مدعيا في ذلك الصداقة "الولاء" أو النصح، ويدفعها دفعا إلى قتاله ومحاربه إنطلاق من مصلحتها هي، وليس من الغرض الأساسي الذي يحركه ويسعى إليه هو.

أو بعبارة أخرى يمكن القول أن الفاعل الأساسي المعارض يثير وضعا جديدا بعيدا كل البعد عن الوضع الأصلي الذي يحركه، بحيث يخلق هذا الوضع الجديد عداء بين الفاعل المركزي وهذه الشخصيات (ملوك / فرسان، أسياد قبيلة) أملا في أن ينجح في تحقيق هدفه الأساسي الأصلي وهو الفتك به، فـ"سقرديون" و"سقرديس" يحرضان الملك "سيف أرعد" على قتال الملك "سيف بن ذي يزن" ويوهمانه بأنه إذا لم يفعل ذلك فستحقق دعوة سيدنا نوح - عليه السلام -.

أما "الربيع" و"عمارة إبن زياد" فهما يشعلان نيران الحقد ويؤججانهما في صدر "مالك" - ولد "عبلة" - لكي لا يزوجها لـ"عنتر بن شداد"... الخ. فالمقاصد الظاهرة هي (عدم تحقيق دعوة سيدنا نوح / عدم الزواج)، لكنها تحمل في طياتها مقصدا باطنا خفيا هو تلك الرغبة الملحة للفاعل الأساسي المعارض في قتل والتخلص من الفاعل المركزي (سيف ، عنتر).

والملاحظ أيضا على الفاعل الأساسي المعارض هو أنه لا يملك أية مبادئ يستند إليها أو تحكم تصرفاته، فطبعه منقلب لا يعرف السكون مما يجعله كثير النفاق (الربيع و عمارة إبن زياد في سيرة عنتر)، كما أنه له قابلية رهيبية للتحول من دين إلى

دين آخر، حتى أنه يظهر نفسه على أنه من أشد أنصار هذا الدين الجديد، ونرى هذا بصورة بوضوح مع "سقرديون وسقرديس" عندما كان "سيف بن ذي يزن" يطاردهما، ((فأى ملك يلجأ إليه طلباً للمساعدة، يظهر أن له أنهما على دينه))¹، ويفعلان كل هذه الأفعال من أجل تحقيق غاية واحدة وأساسية وهي - كما قلنا سابقاً - التخلص من الفاعل المركزي وبكل ما يمثله.

4 - الخوف من الموت:

يواجه الفاعل المركزي أعداءه بجرأة وبسالة، فيتحداهم ويبارزهم، ويضع نفسه في مواجهة الآلاف منهم دون أن تطرف عيناه خوفاً أو رهبة من الموت، ذلك أنه يستند في القيام بجميع أفعاله على مبادئ مثالية نابعة من قيم وأخلاق الجماعة الشعبية التي ينتمي إليها، أما الفاعل الأساسي المعارض فهو على العكس من ذلك تماماً، فهو يؤثر السلامة المقرونة بالعار على الموت في ساحة الوغي، فهو يعتقد اعتقاداً راسخاً في اعماقه أنه لا شئ في هذه الدنيا يستحق الموت من أجله أو في سبيله، لا مبادئ ولا قيم ولا غير ذلك. ف"سقرديون وسقرديس" في سيرة "سيف بن ذي يزن"، حشداً آلاف الجند وكبار الفرسان لمواجهة "سيف"، وعندما لاحظ أن هذا الأخير سينتصر على جيشهما قال بعضهما لبعض: ((ما لنا أصوب من الهرب والفرار، ولو يركبنا يا أخي ألف عار، فإن العار والسلامة أحسن من قطع الأعمار))²، فهربا تاركين الجيش خلفهما يهزم، وعادا إلى قصر "الملك سيف أرعد" ليخططا لمؤامرات جديدة.

كما يتجلى هذا المقوم والموجه أيضاً في سيرة "عنتر بن شداد" من خلال "مالك والد" "عبلة" وأخوها "عمرو"، فهما لا يقلان في خوفهما من الموت وجبنهما عن "سقرديون وسقرديس"، فهما هو "مالك" يسب "عبلة" لا لشيء سوى أنها - حسب ما يرى - عرضت حياته للخطر حيث قال لها: ((ما أشأم وجهك على أبيك، لا باركت اللات والعزى فيك، ثم حمل هو وولده، وأراد أن يمنعنا عن الحرير والولدان، فرأيا من هذا العبد [عنتر] الهول العظيم، وصاح فيهما صيحة منكرة وقلب الرمح إلى ورائه، وطعنه بعقب الرمح فألقاه على ظهره، فأشرف على فناه، وطلب ولده عمرو، فمن شدة هيئته وعظم صرخته سلم روحه له، فإدار كتافه لما رأى الموت أتاه فجأة، فذل بين يديه ثم ناداه: ياقتى بحق رأسك ترفق بأسراك، وتسلم الحرير والأموال، فعندها شده العبد بالكتاف ونزل إلى أبيه وفعل به كذلك))³، فأى شجاعة هذه التي تجعل الإنسان يتخلى عن أولاده وعرضه من أجل السلامة من الموت.

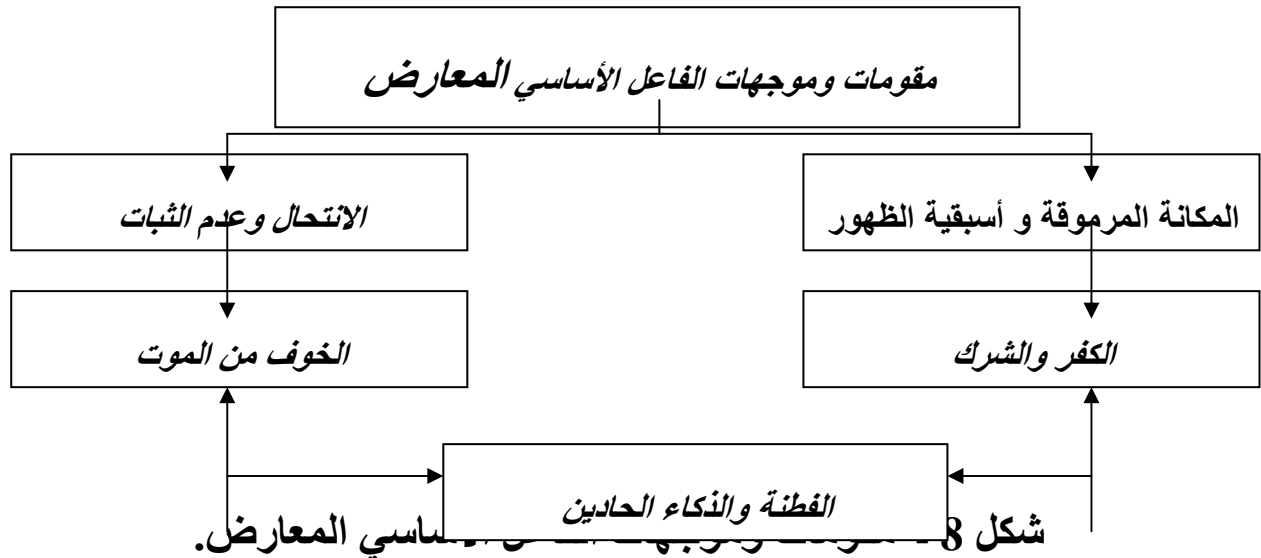
5 - الفطنة والذكاء الحادين:

¹ - يقطين سعيد، قال الراوي، ص: 134.
² - سيرة سيف بن ذي يزن، م 3، ص: 224.
³ - سيرة عنتر بن شداد، م 6، ص: 329.

ما يلاحظ كذلك على الفاعل الأساسي المعارض في كلتا السيرتين، هو تميزه بالفطنة والذكاء الحاد، سواء كان فطريا أو ناتجا عن ثقافته الواسعة بالكتب القديمة (التاريخية / والدينية)، بحيث يستخدمهما من أجل غاية واحدة هي التخطيط المستمر لمؤامرات الهدف منها هو قتل الفاعل المركزي، أو وضع الحواجز والعراقيل أمامه لكي لا يصل إلى مآربه، وهو بذلك يكون معاكسا كلياً للفاعل الأساسي المساعد في هذا المقوم، إذ أن هذا الأخير يستعمل ذكائه من أجل مساعدة الفاعل المركزي، وهذا التناقض هو ما يجعلهما يصبحان طرفا للصراع في كثير من المواقف والأحداث، ويتوارى عن ذلك الفاعل المركزي بحيث يصبح يضطلع بأدوار بسيطة أو ثانوية فقط.

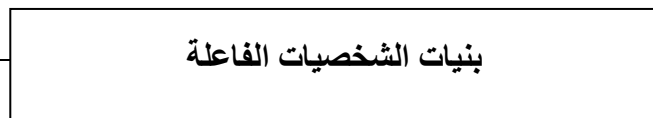
ففي سيرة "سيف بن ذي يزن" نجد أن "سقرديون وسقرديس" كانا فريدين في زمانهما ف ((لا أحد يفوقهما علما وحكمة واطلاعا على الكتب القديمة))¹، أما في سيرة "عنترة بن شداد" ف "الربيع بن زياد" يعد من "دهاة العرب".

ويمكن توضيح مقومات وموجهات الفاعل الأساسي المضاد من خلال الترسيمة التالية:

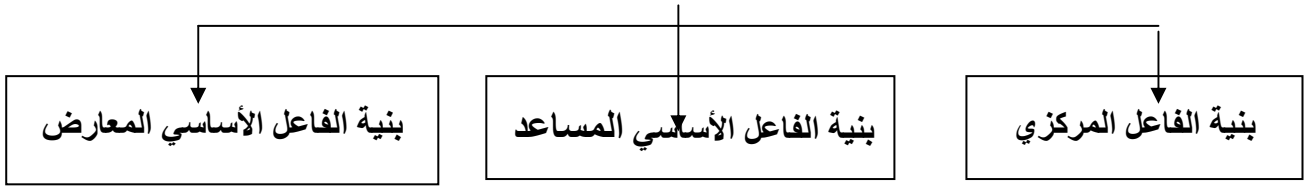


إذن، ومن خلال استقرائنا لهذا الترسيمة، فإننا نرى أن كل شخصية فاعلة تحمل هذه المقومات والموجهات فإنها تدخل مباشرة ضمن بنية الفاعل الأساسي المعارض.

وكنتيجة لما قلناه سابقا نستطيع أن نضع الشخصيات الفاعلة في السيرة - محل الدراسة - ضمن ثلاثة بنيات فقط كما توضحها الترسيمة التالية:



¹ - يقطين سعيد، قال الراوي.



شكل 9 - بنيات الشخصيات الفاعلة.

لاحظنا في هذا الفصل كيف تتنوع الشخصيات التي يبدعها الراوي الشعبي تنوعا مثيرا من حيث البناء والرؤية للعالم، وكذا البعد العلائقي مع غيرها من الشخصيات الأخرى، التي تتقاسم معها نفس الفضاء الزمان والمكاني، وهي في اختلافها هذا وتعددتها تمنح النص الحكائي السيرى دينامية متجددة باستمرار، ورغم هذا الاختلاف الحاصل فيما بينهما أيضا فهي تلتقي في كونها شخصيات غير نمطية شخصيات دينامية متحولة على الدوام. وهذا لا ينفي بتاتا القدرة على وضعها ضمن بنيات محددة، قد تتداخل أحيانا إذا كانت دراستنا لها دراسة شكلية عامة.

الفصل الثالث:

الخصائص التاريخية لشخصيتي البطلين:

"سيف بن ذي يزن وعترة بن شداد":

أولاً: الخصائص التاريخية لشخصية سيف بن ذي يزن.

ثانياً: الخصائص التاريخية لشخصية عترة بن شداد

تمهيد

تمت الإشارة فيما سبق إلى إشكالية الخلط بين "التاريخ والقصص" في المصادر العربية الإسلامية، وهي نقطة يجدر التوقف عندها هنا بتوسع، للتأكيد منذ البداية إلى صعوبة الحصول على معطيات تاريخية حاسمة دون وجود اختلافات حولها، تتعلق تحديدا بشخصية سيف بن ذي يزن أو عنتر بن شداد.

نقطة الانطلاق الأولى في هذا المجال ستكون مع عبد الرحمان بن محمد بن خلدون الذي يعتبر لدى كثير من الأوساط العلمية واحدا من أهم الرموز العربية في عصره على مستوى المنهج، وعلى مستوى التحليل أيضا، وخاصة على مستوى توقيت ظهوره في السياق الحضاري العربي "آخر المائة الثامنة للهجرة"، وهي فترة كان فيها ابن خلدون على وعي ((بذلك المنعطف التاريخي الذي عرفه العالم الإسلامي في عهده مغربا ومشرقا والذي سجل بداية التراجع الفعلي للحضارة العربية الإسلامية))¹.

يحدث ابن خلدون في بداية مقدمته عن علم التاريخ وأهميته، مبرزا ضرورة وجود قواعد يستخدمها المؤرخ لتمييز الصادق من الأخبار عن غيرها، حيث انه ((كثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات، إذ هي فطنة الكذب ومطية الهذر، ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد))².

ويعرض ابن خلدون نموذجين "للنقل" التاريخي الذي يحتوي على مغالط ومبالغات. النموذج الأول هو: المبالغة في تعداد جيوش بني إسرائيل زمن موسى عليه السلام، وزمن سليمان، فذكر ما تناقله المؤرخون وصححه، ثم أورد النموذج

¹ - الجابر محمد عابد، التراث والحداثة: دراسات ومناقشات، المركز الثقافي العربي، ط1، 1991، ص: 217.
² - ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، مؤسسة باباي للنشر والتوزيع والطباعة، تونس، ص: 10.

الثاني المتعلق بأخبار "التبابعة" ملوك اليمن وجزيرة العرب*، فناقشه وصححه أيضا.

قد لا نحتاج إطلاقا للدخول في تفاصيل هذه المبالغات وتصحيحها، بقدر ما نحتاجها لتثبيت أمرين اثنين:

الأول: هو طعن ابن خلدون في معظم أو كل المصادر العربية الإسلامية التي تناولت هذين النموذجيين طعنا مؤداه "النقل لأخبار فيها الغث والسمين". ولهذا الطعن أهمية مزدوجة بالنسبة لهذا البحث، فهو حط من المصادقية العلمية لهذه المصادر من شخص كان أقرب منا زمنيا للبنية التي أنتجت هذه الأخبار، وبالتالي فإن التعامل مع هذه المصادر يجب أن يكون تعاملًا حذرًا.

أما الأمر الآخر: هو أن الربط - في المبالغة التاريخية - جاء بين نموذجين يبدو أنهما بعيدان عن بعضهما ظاهريًا: أخبار بني إسرائيل وأخبار التبابعة. ولكن حين نعرف أن معظم "الإسرائيليات" قد دخلت إلى الحضارة العربية الإسلامية من بوابات ربما تكون معروفة، أبرزها دخول عدد من علماء وأخبار اليهود للإسلام، فإن البعد الظاهري بين المبالغة التاريخية في أخبار بني إسرائيل وبين التبابعة قد يردم قليلا. وحين نعرف أن من أبرز أسماء هؤلاء العلماء اليهود هم: "كعب الأحبار"* وهو يمني يهودي من الأذواء** والآخر: "وهب بن منبه***" وهو يمني يهودي من الأبناء، فإن افتراضا مبدئيا يمكن أن يطرح هنا هو: أن للمبالغات التاريخية في هذين الموضوعين المذكورين أنفا قد يكون له مصدر واحد.

إذا، وباختصار، يمكن القول أن الاستفادة من حديث "ابن خلدون" عن علم التاريخ، تتلخص في نقطتين مبدئيتين سترافقانا في هذا الفصل هما:

أولا - الحذر في الاعتماد الكلي على مصداقية المصادر العربية الإسلامية.

ثانيا - الانتباه لآثار الإسرائيليات في الصياغة التاريخية والملحمية للسيرتين.

نقطة الانطلاق الثانية ستكون مع "طه حسين" من خلال كتابه ((في الشعر الجاهلي))¹، النقطة المركزية في هذا الكتاب هي أن هذا الباحث يقف ((موقف الشك، إن لم نقل موقف الإنكار الصريح من الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين))².

* - المرجع نفسه، ص: 10 - 15.

** - كعب الأحبار: هو كعب بن ماتع بن هيسوع الحميري، وقبل كعب بن نافع، توفي في العام 32هـ/652م، وهو من حمير من "آل ذي عين" وكان على دين اليهود في اليمن، وقبل أسلم هناك.

*** - الأذواء: لقب إمارة عرف منذ العصر العتيق، ظهرت في الفترة التي توصف بفترة سبأ وذي ريدان. وهي فترة غلب عليها الصراع الدامي.

1 - وهب بن منبه: توفي في 114هـ/732م، من أهل ذمار باليمن. كان قاصا إخباريا عالما في أهل اليمن. ولد سنة أربع وثلاثين للهجرة، ويقال أنه من أصل يهودي وإليه ترجع أغلب إسرائيلييات في المؤلفات العربية.

2 - حسين طه، في الشعر الجاهلي، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، ط 1، 1997.

2 - المرجع نفسه، ص: 116.

ويرتكز "طه حسين" في إثباته لوجهة نظره على عدة أدوات أهمها "الانتحال"، فهو يرى أن أغلب - إن لم يكن كل - الشعر الجاهلي قد ألف في الفترة التالية للإسلام، ونسب إلى فترات الجاهلية لعدة أسباب لسنا في معرض عرضها الآن، ولكن الأمر الذي يهم هنا ليس الشعر، بل الاستطرادات التي جاء على هامش البحث والتي تتعلق بالقصص والأخبار المروية عن فترة الجاهلية.

يتبع طه حسين منهج الشك الديكارتية في هذا الكتاب. وقد أوصله هذا المنهج إلى الشك، وربما إنكار كثير من الأخبار المروية عن فترة ما قبل الإسلام، فيقول مثلا: ((وكل ما يروي عن تبع وحمير وشعراء اليمن في العصر القديمة، وأخبار الكهان، وما يتصل بسيل العرم وتفرق العرب بعده موضوع لا أصل له))¹. هو في هذه النقطة، نقطة "أخبار العرب" يتفق مع "ابن خلدون" الذي كان أقل إنكارا لهذه الأخبار، واكتفى بالتحذير من المبالغات والزيادات فيها. وما يهمنا بالضبط هو ذلك التحليل الذي أوصل طه حسين إلى هذه النتيجة، وهو تحليل مطول يعتمد على مفهوم "الانتحال" كما تم ذكر، ولكننا نعتقد أن اقتطاف بعض الفقرات وتثبيتها هنا سيكون مهما جدا فيما يلي من البحث، لذا سيتم عرضها هنا بنصها على أن تتم العودة إليها كل ما اقتضت الضرورة:

* - ((كان قصاص المسلمين يتحدثون إلى الناس في مساجد الأمصار فيذكرون لهم قديم العرب والعجم وما يتصل بالنبوات، ويمضون معهم في تفسير القرآن والحديث ورواية السير والمغازي والفتوح إلى حيث يستطيع الخيال أن يذهب بهم لا إلى حيث يلزمهم العمل والصدق أن يقفوا. وكان الناس كلفين بهؤلاء القصاص مشغوفين بما يلقون إليهم من حديث. وما أسرع ما فطن الخلفاء والأمراء لقيمة هذه الأداة الجديدة من الوجهة السياسية والدينية، فاصطنعوها وسيطروا عليها واستغلوها استغلالا شديدا وأصبح القصص أداة سياسية كالشعر))².

** - ((غير أن القصص لم يتأثر بالسياسة وحدها، وإنما تأثر بالدين أيضا. وتأثر القصص بشيء آخر غير السياسة والدين هو روح الشعب الذي كان يتحدث إليه، ومن هنا عني عناية شديدة بالأساطير والمعجزات وغرائب الأمور))³.

*** - ((نستطيع أن نقول إن هذا القصص كان يستمد قوته وثروته من مصادر مختلفة، أهمها أربعة:

- الأول: مصدر عربي هو القرآن وما كان يتصل به من الأحاديث والروايات، وما كانت تتحدث به العرب في الأمصار من أخبارها وأساطيرها.

¹ - المرجع السابق، ص: 116.

² - المرجع نفسه، ص: 104.

³ - المرجع نفسه، ص: 105.

- الثاني: مصدر يهودي نصراني، وهو ما كان يأخذه القصاص عن أهل الكتاب من أخبار الأنبياء والأخبار والرهبان وما يتصل بذلك.

- الثالث: مصدر فارسي، وهو هذا الذي كان يستقيه القصاص في العراق خاصة من الفرس مما يتصل بأخبارهم و أساطيرهم، وأخبار الهند وأساطيرها.

- الرابع: هو هذا الذي يمثل نفسه العامة غير العربية من أهل العراق والجزيرة والشام من الأنباط والسريان ومن إليهم من هؤلاء الأخطا الذين كانوا منبئين من هذه الأقطار والذين لم تكن لهم سيادة ولا وجود سياسي ظاهر¹.

بالإضافة إلى هذه المقطعات التي ستفيدنا بنصها كما ورد في المرجع، سنحيل على الفصل المعنون بـ "الشعبوية وانتحال الشعر" في نفس الكتاب. والذي يشير مؤلفه إلى عنصر المفاخرة بين الموالي من الفرس وبين العرب. هذه المفاخرة أدت حسب ما يقول إلى أن ((الشعبوية في مظهرها السياسي الأول قد حملت الفرس على انتحال الأشعار والأخبار وأكرهت العرب على أن يلقوا الانتحال بمثله. على أن هذه الشعبوية لم تلبث أن استحالت بعد سقوط الأمويين وقيام سلطة الفرس على يد العباسيين إلى خلاف أقرب إلى البحث والجدل في أنواع العلم منها إلى ما كان معروفا بين الغالب والمغلوب. وكان هذا النحو من الشعبوية أخصب من النوع السابق وأبلغ في حمل العرب والفرس وعلى الانتحال والإسراف فيه².

سنأخذ من "طه حسين"، إذا، نقطتين سترافقانا أثناء قراءتنا التاريخية في هذا الفصل، هما: الانتحال وخاصة فيما يتعلق بالأخبار، ومصادر هذه القصص والأخبار.

وتجدر الإشارة إلى أننا إذ نقتبس من ابن خلدون وطه حسين ضرورة "تمحيص الأخبار" و "الشك" من زاويتين مختلفتين: التاريخ والأدب. فإن هذا لا يعد تسليماً بمصادقية أو خطأ هذين الرأيين أو المنهجين، بقدر ما تهمننا النماذج والأمثلة التي استخدمها كل منهما.

أولاً - الخصائص التاريخية لشخصية سيف بن ذي يزن:

من خلال ما سبق، تتوضح الفرضية الأساسية التي نرغب في تثبيتها هنا على الشكل التالي: موضوع التبابعة وأخبار العرب بشكل عام، هي أحد المواضيع المفضلة لرواية "الأخبار"، سواء كانت هذه الأخبار صحيحة تاريخياً أم هي مجرد أدب محض، يعتمد على الخيال.

¹ - المرجع السابق، ص: 105، 106.

² - المرجع نفسه، ص: 125، 126.

وبغض النظر مبدئياً عن صاحب المصلحة في ترديد هذه الأخبار لفترات زمنية طويلة وترسيخها ضمن "الإطار الحضاري الإسلامي المدون"، فإن هذه الأخبار والقصاص أفرزت شيئاً فشيئاً سيرة شعبية متكاملة، تروى عن شخص يحمل اسم "سيف بن ذي يزن". ولا توجد لهذه السيرة جذور تاريخية أصلية وعميقة تسبق الإسلام، بقدر ما يمكن اعتبارها سيرة "إسلامية" كتبت على مراحل، وتداخلت فيها عناصر أسطورية متعددة حضارياً وجغرافياً، تصدر في أغلبها عن مصادر تغلب الأسطورة على التاريخ.

وللتأكد من صحة هذه الفرضية أو خطئها، سنتتبع تاريخياً، مجموعة من العناصر التي نستشف في السيرة وجوداً واقعيًا لها، وأبرز هذه العناصر على الإطلاق شخصية البطل فيها.

سيف بن ذي يزن حسب السيرة هو ((سيف بن ذي يزن بن تبع اليماني بن الملك أسد البيداء ابن الملك سام أخو الملك حام وجدي نوح عليه السلام))¹، وهو كذلك ((سيف ابن الملك ذي يزن بن أسد البيداء بن حسان التبعي اليماني بن مهلول بن مهيل بن أرجوان بن بحرون بن جندح بن حمير بن هاني بن مروان بن شر وان بن حمير بن عفيف بن كوش بن سام أخو حام بن نوح عليهم السلام))²، بالإضافة إلى عدة تنوعات أخرى للنسب تؤكد كلها انتماء "البطل" إلى "أسد البيداء" و"تبع" و"حمير" و"سام أخو حام" ابنا نوح - عليه السلام -.. وهو البطل الذي يتم على يديه نشر الدين الإبراهيمي الحنيف، والقضاء على الكفر والشرك والسحر، وأشياء أخرى مثل جريان نهر النيل، وتعمير مصر. وهذه الأشياء معقولة يمكن أن نجد لها نظيراً تاريخياً، بمعنى آخر هي أشياء يمكن أن تكون واقعية. إلا أن السيرة تضيف إلى هذا النسب صفات أخرى: فالبطل يسيطر على الجن "الحاكم على الإنس والجن"، ويدخل كنوز الأنبياء، ويمشي فوق الماء وينجو من مآزق لا يمكن لأي شخص آخر أن ينجو منها، بالإضافة إلى الدعم الإلهي غير المحدود، الذي تعبر عنه السيرة من خلال مجموعة صغيرة من العباد الصالحين، يرأسهم "الخضر" - عليه السلام - المطلع على الكتاب المحفوظ.. وبما أن السيرة إسلامية فإن "سيفا بن ذي يزن" لم يتحول إلى إله يعبد، أو إلى رمز ديني يتقرب إلى الله تعالى من خلاله، وهو أمر لا نستبعد حدوثه في مراحل مبكرة من تاريخ الإنسانية، ولكنه رفع إلى مرتبة الأنبياء، فـ"عيسى" - عليه السلام - قد مشى فوق الماء في بحيرة "طبريا"، وسيدنا "سليمان" قد سيطر على الإنس والجن، وإذ لم تعط السيرة سيفاً منزلة النبي بوضوح فإنه امتلاك العديد من الأمور التي تضعه في مصاف "أولياء الله الصالحين"، وهو أمر

¹ - السيرة، م 2، ص: 64.

² - المصدر السابق، م 8، ص: 64.

يمكن ملاحظته في السيرة بوضوح. أما في التاريخ، فإن المعطيات المتعلقة بهذه الشخصية كثيفة ومتشابكة. لذلك سنبدأ البعد التاريخي من البحث في معنى وأصل كلمة تبع، ثم نطلق إلى مناقشة بعض المعطيات المتعلقة بحمير، إلى أن نصل أخيراً إلى شخصية البطل نفسها.

أ - تبع:

ذكر تبع في القرآن بشكل عابر في مناسبتين هما: ((أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم ، أهلكتناهم إنهم كانوا مجرمين))¹. وفي آية أخرى : ((كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وأخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد))². ما يؤكد النص القرآني بشكل لا لبس فيه هو أن تبع وقومه موجودون فعلاً، وأنهم كانوا من الكفار، وبغض النظر عن كون تبع نفسه مؤمناً أم لا، ملكاً كبيراً أم صغيراً، نبياً أم غير نبى، وبغض النظر أيضاً عن ما أورده المفسرون المتقدمون منهم والمتأخرون، فإن ما يهم هو ما سكت النص القرآني عنه. فالنص القرآني تحدث في أكثر من مناسبة، وباستفاضة أحياناً عن فرعون مثلاً، وعن قوم لوط، وعن نوح، وتحدث عن ثمود وعاد بشكل أقل. وسكت عن أخبار "تبع" و"أصحاب الأيكة"، وذكرهم ذكراً عابراً. لماذا؟ لا ندري بالضبط، ولا نريد أن ندخل في نقاش قد لا يفضي إلى نتيجة مؤكدة. ولكن سنكتفي بإشارتين سنستفيد منهما بشكل أو بآخر:

- **الإشارة الأولى هي:** النقاش "القرآني" المكثف لأهل الكتاب من يهود ونصارى على عكس الذكر العابر لقوم تبع، الأمر الذي يوحي إما بعدم التداول المكثف "لأخبار" قوم تبع أثناء نزول الوحي على سيدنا محمد (ص) على عكس التداول المكثف لأخبار مصدرها أتباع هاتين الديانتين، أو أنه يوحي بإسقاط الأخبار المتعلقة به لسبب ما أثناء فترة التدوين.

- **أما الإشارة الأخرى:** هي أن النص القرآني ذكر "تبع" بصيغة المفرد: قوم تبع. وإذا قارنا هذه الصيغة بصيغ أخرى مشابهة: "قوم نوح، إخوان لوط، أصحاب الأيكة... الخ" نستطيع الافتراض أن "تبع" هو شخص فرد، سواء كانت كلمة "تبع" اسماً أو صفة تطلق على شخص، أو لقباً يطلق على سلسلة من الملوك. وإن كنا في الحقيقة لا نستطيع من خلال النص القرآني نفسه ترجيح واحد في هذه الاحتمالات، فالقرآن لم يذكر لنا أية تفاصيل أخرى توضح الزمن الذي وجد فيه هذا "التبع"، ولا المكان الذي وجد فيه، ولا أي شيء آخر يمكن أن يدل عليه، ولا حتى اسم النبي الذي أرسل إلى هؤلاء القوم على افتراض أن تبع اسم الملك.

¹ - القرآن الكريم، سورة الدخان، الآية: 37.

² - القرآن الكريم، سورة ق، الآيات: 12 - 14.

هذا الغموض في النص القرآني فتح بابا واسعا للاجتهادات بين المفسرين للنص القرآني، وكثر القيل والقال في هذا الموضوع، وإن كان من شبه المتفق عليه بينهم هو أن "التبع أو التبابعة" هو لقب حازه الملوك الكبار من حمير في اليمن، وهو "اتفاق" لا نجد له أثرا في النصوص اليمنية القديمة: ((ولكن هذه اللفظة - تبع - أو لقب تبع لا نجدها إلا في تلك المصادر (العربية الإسلامية)، بينما لا وجود لها في النصوص اليمنية، ولا بمعنى آخر له علاقة بحكم أو بوظيفة، ولو كانت تلك اللفظة للملوك لما أغفلتها النصوص الرسمية وغير الرسمية))¹.

وبالتالي، فإنه بالإمكان الاحتفاظ على "تاريخية" لفظ تبع بالمعنى العلمي للكلمة، ما دامت لم تؤكد مصادر أخرى خارجة عن الإطار العربي الإسلامي، مع الاحتفاظ للمصادر العربية الإسلامية بأهمية الاجتهاد في تأويل أو تفسير لفظ "تبع" وإسناده إلى اليمن، وهي اجتهادات ((اختلطت بها الأسطورة والخرافة))²، كما لاحظ أحد الباحثين. بل إن هذا الباحث حاول أن يفسر سبب إسناد أهل الأخبار لفظ تبع إلى الحميريين من أهل اليمن، وجاءت محاولته تأكيدا لطابع الحكاية في هذا الصدد، أكثر منها تأكيدا للطابع التاريخي المؤكد علميا.

كما نجد أن باحثة أخرى تطرقت إلى موضوع "سيف بن ذي يزن" في كتاب منفصل ولم تذكر إطلاقا أي شيء يتعلق بـ "تبع أو التبابعة". وبما أن هذه الباحثة تقول أن منهجها "تاريخي مادي جدلي علمي"، فإننا نتوقع أن تكون قد أسقطت الحديث في هذا الموضوع لعدم مصداقيته "العلمية"^{*}.

إذا، الافتراض بشيء من الثقة أن "تبع والتبابعة" هو لفظ تم تداوله حصرا في الأعمال العربية الإسلامية تداول حكايا دون أي سند تاريخي فعلي، في محاولة من رواة "الأخبار" لتفسير الآيات القرآنية المشار إليها. وبالتالي فإننا سنتابع التعامل مع هذا المعطى على أنه معطى أسطوري حكايا لا أكثر ولا أقل.

"التبع" عند أهل الأخبار هو: ملك من السلالة الحميرية في اليمن القديم. ((وملك اليمن هذا لا يسمى تبعا حتى يملك سبأ وحضرموت وحمير))³. هذا وقد وردت أخبار كثيرة عن التبابعة، وما يهمننا منها هي تلك الأخبار التي وردت عن "الأسعد الكامل" أو "أسعد أبو كرب"؛ حيث أشار أغلب المتقدمين العرب إلى أن "التبع" المذكور في القرآن هو (أسعد أبو كرب)، وهو من أشهر الملوك الحميريين، وهو الذي نسبت إليه العديد من الغزوات والفتوحات والانتصارات التي غلب عليها الطابع الأسطوري الخرافي، وهو الذي ((قيل عنه أنه كان رجلا صالحا

¹ - باوزير محمد، اليمن القديم في القرآن الكريم والشعر الجاهلي وكتب المؤرخين والجغرافيين العرب القدامى، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط 1، 2004، ص: 186.

² - المرجع نفسه، ص: 186.

^{*} - انظر: منقوش ثريا، سيف بن ذي يزن بين الحقيقة والأسطورة والأمل، دت، دم ن.

³ - باوزير محمد، اليمن القديم في القرآن الكريم والشعر الجاهلي وكتب المؤرخين والجغرافيين العرب القدامى، ص: 186.

مؤمناً، وقيل أنه أول من كسا الكعبة وغيرها من الأعمال المنسوبة له، الأمر الذي جعله علماً بارزاً عند المتقدمين العرب وبالتالي جعلوه التبع المذكور في القرآن))¹.

((وكان على وشك تدمير مدينة يثرب، لولا أن تدخل اثنان من أخبار اليهود، وأقنعه بأن هذه المدينة ستكون المكان الذي يهاجر إليه نبي من قريش وتكون داره، وأدخله في الدين اليهودي، وبعد ذلك توجه إلى الكعبة فكساها، وعاد إلى موطنه، وأدخل قومه إلى اليهودية بمساعدة الحبرين... واختلف في وفاته: هل كانت طبيعية أم تم اغتياله؟))².

ألا يذكرنا هذا بالملك "ذي يزن" ذو العز والتمكين في السيرة؟ نعم، تذكرنا هذه الرواية "التاريخية" بوالد "سيف بن ذي يزن" الأسطوري، مع بعض الاختلافات طبعاً؛ إذ لولا عنصر "مدينة يثرب" التي بناها الوزير في السيرة، وكانت مبنية فعلاً في الرواية التاريخية، وعنصر الحبرين اليهوديين، يكاد التطابق أن يكون كاملاً، حتى على مستوى وفاة "ذو يزن" في السيرة؛ حيث ترك الراوي الباب مفتوحاً أمام احتمال وفاته وفاة طبيعية أو تم اغتياله، خاصة وأنه في السيرة مات موتاً مفاجئاً لا مبرر له.

نحن هنا، إذاً، أمام نقل أو اقتباس شبه حرفي لقصة تبع؛ حيث يرى المتقدمون احتمالاً كبيراً أن يكون هو "التبع" المذكور في القرآن، مع فارق "ديني" إن صح التعبير. فـ"ذو يزن" مؤمن "إبراهيمي حنفي" بينما "الأسعد أبو كرب" مؤمن يهودي، وبناء مدينة يثرب تم في السيرة على يد وزير "إبراهيمي" وهو ما يسقط عن الحبرين اليهوديين مهمة الحفاظ على "مدينة يثرب". وهناك فارق أبسط وأقل أهمية هو أن السيرة أسقطت عن "ذي يزن" لقب "التبع" وغزواته المذكورة في المعطى "التاريخي" لتجعله "ملكاً ذو عز وتمكين".

وإذا تم الأخذ بعين الاعتبار أن القصة الإسلامية تجعل من ((زمان ظهور التبع الأسعد هو 400 م))³، تؤيدها في ذلك ((معطيات تاريخية تجعل ظهوره في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس ميلادي))⁴، فإن هذا "التبع" لن يكون عملياً هو والد "سيف الأسطوري"، ذلك أن "سيف بن ذي يزن" ظهر تاريخياً في أواخر القرن السادس ميلادي كما سنتم الإشارة إليه لاحقاً.

نجد أنفسنا هنا أمام احتمال شبه أكيد يقضي باستعارة مؤلفي السيرة لقصة "التبع الأسعد" من الإطار الإخباري الإسلامي غير المدعوم تاريخياً بمصادر

1 - ابن كثير عماد الدين أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن الكريم، ج 7، ص 432.

2 - وهب بن منبه، التيجان، ص: 305-307.

3 - البكر منذر، دراسات في تاريخ العرب القديم: تاريخ الدول الجنوبية في اليمن، منشورات جامعة البصرة، العراق، 1980، ص: 354، 355.

4 - باوزير محمد، اليمن القديم في القرآن الكريم والشعر الجاهلي وكتب المؤرخين والجغرافيين العرب القدامى، ص: 228.

أخرى، وإصاقها بشكل آخر ومعدل بالسيره. وهو أمر ربما يثبت احتمال أن تكون السيرة مجرد تجميع لأخبار متفرقة وجعلها تنتظم في إطار سيرة ذات نفس ملحمي.

أما فيما يخص شخصية البطل - سيف بن ذي يزن - فإن انتسابه إلى "التبع" أيا كان هذا "التبع" لا يملك أساسا تاريخا حقيقيا، طالما ظل الشك في لفظ "تبع" قائما تاريخيا، ولكن هذا الطرح لا ينفي أن يكون "سيف" ابنا لأحد الملوك الكبار من بني حمير اليمنيين.

وكنتيجه، يمكن القول أن لفظ "تبع" هو في حد ذاته وصف أسطوري يطلق على مجموعة من ملوك اليمن المثبتين تاريخيا. بمعنى آخر: البعد التاريخي حقيقي ولكن الصفة أو الاسم تحمل بعدا أسطوريا.

ب - حمير:

سندخل مع ميدان التاريخ فعلا. ونتوقع في هذا الصدد أن تكون المعطيات التاريخية المتعلقة بحمير أكثر دقة من تلك المتعلقة بالتبابعة، نظرا لعدم ورود ذكر لهم في القرآن الكريم، هو أمر يسحب عنهم هالة القداسة لعدم ارتباطهم بالنص المقدس، الأمر الذي يقلل من عدد الاجتهادات التفسيرية، ويفسح المجال بشكل اكبر أمام نوع آخر من الاجتهادات ربما تكون أكثر واقعية و"تاريخية". فما هي مصداقية هذا الرأي؟.

كما يرى أحد الباحثين أن (("تبع" والجمع "التبابعة" لقب للملوك الحميريين وليس اسما لملك بعينه))¹، أي انه لقب مرتبط بحمير أولا، وتلقب به سلسلة من ملوكها ثانيا. ترى ما هو التفسير التاريخي لذلك؟

التفسير الأولي البسيط بالاعتماد على المصادر الإسلامية* هو أن أول ملك وحد اليمن كاملا تحت سيطرته وحاز على لقب "التبع" كان حميريا، واستمر بعد ذلك حكم الحميريين "لليمن الموحد" فاستمرت حيازتهم لهذا اللقب.

وانتقلت فكرة الارتباط بين تبع وحمير هذه آليا إلى السيرة، على اعتبار أن رواة السيرة عملوا على إنتاج السيرة ضمن إطار الذهنية العربية الإسلامية التي تركز آليا هذا الربط. وهو الأمر الذي يوحى حاليا بوجود بعد تاريخي لهذه السيرة. ولعل قضية أصول حمير هي التي تؤكد البعد التاريخي الإسلامي للسيرة. فبالنسبة لقدامى العرب تنتسب حمير إلى ((حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان))². بناء على ذلك فإن ((عنصر المفاخرة بين القحطانيين والعدنانيين يعتبر عنصرا من

¹ - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ج 2، ص: 193.
* - سوف نعتمد كثيرا هنا على المعطيات المتوفرة في الفصل المتعلق بالتبابعة والحميريين في كتاب محمد باوزير نظرا الكثافة مصادره من جهة، واعتماده على محورين مختلفين في التحليل هما المصادر الإسلامية والكشوفات الأثرية من جهة أخرى.
² - باوزير محمد، اليمن القديم في القرآن الكريم والشعر الجاهلي وكتب المؤرخين والجغرافيين العرب القدامى، ص 189.

العناصر التي أدت إلى تداول مرويات وشفويات، أدت إلى إنتاج السيرة¹، هذا إذا تتبعنا القضية في الإطار الإسلامي، ولكن الأمر مختلف قليلا ((بالنسبة للباحثين أو المؤرخين المحدثين، فإن حديثهم عن بني حمير يختلف عن ذلك كثيرا، فهو بعيد عن الأسطورة والخيال لاستنادهم على البحوث الأثرية ونصوص المسند التي وفرت لهم مادة طيبة عن تاريخ حمير، فاستفادوا منها وحققوها على ضوء الموروث الشعبي وبذلك تردد صدى تاريخ حقيقي لحمير²)).

تكرر النصوص اليمنية الأثرية* اسم "حمير" كثيرا، وتقرنه باسم آخر هو ذي ريدان. وحمير في النص (حميرم)، ونجدها في المعجم السبأي بلفظة (حمرم) التي تعني ميثاق أو حلف قبلي سياسي، فحمير لم تظهر في النصوص كقبيلة واحدة بل كحلف أو تجمع قبلي سياسي، فكانت تذكر كشعب أو شعوب، ومعنى شعب في لغة النصوص اليمنية: قبيلة من الحضر واتحاد قبلي، فتكرر ذكر حمير مقترنا بلفظة شعب أو أشعب (أشعب حميرم)³.

أما "ريدان" فهو اسم لحصن جنوب مدينة " تمنع " عاصمة " قتبان "، قد أقام أسياذ حمير على ذلك الجبل حصنا أو قصر لهم حمل الاسم نفسه، ومن ثم صاروا ينسبون إليه ويسمون باسم (بني ذي ريدان) أو الريدانيين. ويتضح مما تقدم أن بني حمير الريدانيين اتحاد قبائل أو (شعوب) حمير. وأنهم كانوا يدورون في فلك مملكة "قتبان"، ثم انفصلوا عنها واستقلوا بمنطقتهم تقريبا في نهاية القرن الثاني أو أوائل القرن الأول قبل الميلاد، مكونين حلفا قريبا سياسيا مستقلا.

توافرت للحميريين ظروف ملائمة جعلتهم يبرزون كقوة سياسية كبرى في الساحة اليمنية، فأقاموا دولتهم بعد أن كانوا تابعين لدولة "قتبان"، والدولة الحميرية هي آخر دول اليمن القديم ظهورا وأكثرها شهرة، وقد ارتبط ظهورها ببداية التقويم الحميري وربما كان ذلك بين (110 و115 ق.م). ولم تكن حمير حينها إلا إمارة مستقلة، ولم تصبح قوة سياسية كبرى إلا في القرن الأول الميلادي. وشهدت الفترة الممتدة بين القرن الأول ميلادي ونهاية القرن الثالث ميلادي صراعات داخلية عديدة انتهت ببروز اتحاد بين دولتي سبأ وحمير تسيطر عليه حمير في نهاية القرن الثالث للميلادي.

ودون توغل كبير في تفاصيل تاريخية كثيرة قد لاتهمنا هنا، نستطيع القول أن حمير أستطاعت ك "اتحاد قبلي" أن توحد اليمن، وتسيطر عليه تماما على مرحلتين:

¹ - منقوش ثريا، سيف بين الحقيقة و الأمل والأسطورة، ص: 142.
² - باوزير محمد، اليمن القديم في القرآن الكريم والشعر الجاهلي وكتب المؤرخين والجغرافيين العرب القدامى، ص: 189.
^{*} - مرجعنا الأساسي في الحديث عن النصوص اليمنية الأثرية هو كتاب باوزير محمد.

³ - المرجع السابق، ص: 70.

المرحلة الأولى على يد ملك (شمر يهرعش) ابن (ياسر يهنعم)، الذي صفى الجيوب الحبشية في "تهامة"، وسيطر على "شبوّة" عاصمة حضرموت، وذلك في الفترة الممتدة بين أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع ميلادي.

وقبل أن ننتقل إلى المرحلة الثانية من عملية توحيد "اليمن" على يد الحميريين يجدر التوقف قليلا عند نقطتين مهمتين جدا.

النقطة الأولى: تتعلق بظهور "اليزنيين" في هذه المرحلة بطريقة توحى بأنهم لم يكونوا من المؤسسين للتحالف "الحميري"، فقد استعان بهم (("ثاران يهنعم بن ذمار" على أحد خلفاء "شمر يهرعش" في الدفاع عن الجهود الوحودية لسلفه، خاصة وأن دورهم قد بدأ يبرز على الساحة اليمنية، وقد أستفاد منهم في توطيد سلطة دولته الحميرية في مناطق حضرموت الداخلية، والمهرة، والمناطق التهامية، وأستعان بهم في إخماد محاولات التمرد فيها وإخضاعها للسلطة المركزية الحميرية، كما أستفاد من اليزنيين في التوسع الخارجي، إذا كانوا "رأس الحربة" في الإندفاع الحميري نحو قلب شبه الجزيرة العربية))¹. فمن هم اليزنيون؟

((اليزنيون : ينتسبون لذي (يزأن)، ويزأن إسم المحفد أو القصر كما جاء في نقش عبدان الكبير، وأن (ذا يزأن) تعني أصحاب القصر، تماما مثلما (ذي ريدان) تعني أصحاب القصر ريدان... كما أن القصر (يزأن) في النصوص القديمة هو القصر نفسه (ذو يزن) الذي وضعه الهمداني ضمن حصون السرو، فيبدو أن (يزان) أو (يزن) هو اسم تعرف به السلالة الحاكمة صاحبة القصر (يزأن) في عبدان (وادي عبدان في محافظة شبوة)، كما انه لم يقتصر على تلك السلالة، بل أطلق في بعض الظروف على جموع القبائل المحاربة من منطقة الأقبال اليزنيين))².

النقطة الثانية: تفيد بأن هذه الفترة شهدت ((تحولات دينية هامة، إذ تخلى الحميريون أو التبابعة كما تسميهم المصادر الإسلامية العربية عن التقرب إلى الآلهة الوثنية، واعتنقوا عقيدة التوحيد الشبيهة بمذهب الأحناف، وهو الأمر الذي مهد لقبول الديانتين اليهودية والمسيحية))³. وهو الأمر الذي يحيلنا مباشرة إلى السيرة، وإلى الإيمان "الحنفي" الذي يحاول أن ينشره سيف بن ذي يزن.

إذا، "ذو يزن" هو اسم قصير أو محفد وليس اسما لشخص، وترافق ظهور هذه السلالة التي تسكن هذا القصر مع ظهور عقيدة توحيد شبه حنفية، وذلك في المرحلة الأولى من توحيد "اليمن" تحت سيطرة الحميريين.

¹ - المرجع السابق، ص: 210، 211.

² - المرجع نفسه، ص: 215.

³ - المرجع السابق، ص: 230.

دشن (("أبي كرب أسعد بن ملك يكر ب يهأمن المرحلة الثانية من عملية التوحيد، في القرن الخامس ميلادي، وكان أول من حمل لقب ملك "سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة وأعرابهم طودا وتهامة))¹.

وهذا هو "الأسعد أبو كرب"، أو "الأسعد الكامل" الذي ذكرته المصادر الإسلامية العربية، واستفاضت في ذكره كما رأينا ذلك سابقا. ودون توغل كبير في التفاصيل التاريخية المتعلقة بهذا الموضوع، سنكتفي بعنصرين قد يفيداننا في ما سيأتي : دخلت الديانتان اليهودية والمسيحية إلى اليمن بعد هذه المرحلة، وترافق دخول هاتين الديانتين بظهور صراعات سياسية كبيرة، خاصة بين الأحباش واليمنيين، حيث يرجح أن يكون العامل الديني سببا أو ذريعة لغزو الأحباش لليمن، وهذا هو " أي الغزو الحبشي " هو العنصر الثاني.

إن الغزو الحبشي لليمن في مرتين متتاليتين في الربع الأول من القرن السادس ميلادي، الأولى عام 518م والثانية في 525م، هو العامل الرئيسي الذي سيمهد لظهور شخصية تاريخية تحاول تحرير اليمن من الغزو الحبشي بعد حوالي خمسين عاما، حوالي 575م. تدعى هذه الشخصية "سيف بن ذي يزن". وقبل أن ندخل في تفاصيل شخصية بطلنا، يجدر التأكيد على أن لفظ "تبع" هو لفظ ينحصر تداوله في المصادر العربية الإسلامية دون أي سند تاريخي آخر، وأن حمير هي اتحاد قبلي في الأساس، انضمت إليه في مرحلة لاحقة جماعة تسكن محفد أو قصر أو حصن "ذا يزان". هذا الاتحاد القبلي سيتخذ صيغة تقترب كثيرا من صيغة القبيلة الواحدة دون أي تأكيد فعلي يثبت أن القبائل التي انضمت تحت لواء حمير تنتمي فعلا إلى نسب واحد تلتقي عنده هو "حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان" كما يقول قدامى العرب.

ج - سيف بن النعمان بن عفير:

تبدو العلاقات اليمنية - الحبشية في الفترة الممتدة بين 518 م، تاريخ الغزو الحبشي الأول لليمن، وبين 575م، تاريخ تحرر اليمن من الغزو الحبشي، مدخلا رئيسيا للحديث عن شخصية "سيف بن ذي يزن". ولكن هذه الفترة تبدو طويلة جدا، ومليئة بتفاصيل لا يحتاجها هذا البحث، لذلك نكتفي بالإشارة إلى أن الوضع الدولي كان منقسما آنذاك بين إمبراطورية بيزنطة وفارس، وكانت الحبشة متحالفة مع بيزنطة. ونكتفي كذلك بتلخيص لأهم الأحداث المستجدة في هذه الفترة و ترتيبها زمنيا، على أن نواصل التحليل بعد ذلك عن طريق اقتطاف المعطيات التي تهم هذا البحث.

- معطيات تاريخية:

¹ - المرجع نفسه، ص: 212.

*** - 252 م:** الغزو الحبشي الثاني لليمن، هو الغزو الذي أدى إلى الاحتلال. ولهذا الغزو عوامل متعددة. ولن ندخل هنا في نقاش يدور حول أولوية هذا العنصر أو ذلك، ولن نرتب هذه العوامل حسب الأهمية، بل سنكتفي بمجرد ذكرها.

العامل الديني: المتمثل في ذلك الصراع الكبير الذي كان يدور بين ديانتين توحيديتين رئيسيتين، ((المسيحية في الحبشة واليهودية في اليمن. نتحدث هنا عن الدين الرسمي للدولة، ويبدو أن هاتين الديانتين كانتا منتشرتين على طرفي النزاع اليمني الحبشي))¹. ويبدو أن الحادثة الرئيسية التي شكلت حجة هامة من حجج الحرب هي حادثة نجران أو أصحاب الأخدود، حيث أحرق نواس الحاكم اليمني اليهودي أهل نجران النصارى، الأمر الذي يبدو أنه استدعى تدخل الحبشة المسيحية المدعومة من بيزنطة.

العامل الاقتصادي: المتمثل في أهمية موقع اليمن الاستراتيجي المهم، لأنها تقع في ملتقى طرق تجارة الغرب مع الشرق، كما أنها مطلة على البحر الأحمر والعربي، وكما أنها منطقة غنية زراعيًا. أما ((السبب المباشر فيتعلق على ما يبدو بمضايقات تعرض لها تجار رومان في اليمن، ربما وصلت إلى حد القتل))².

العامل السياسي العسكري: الذي يبدو أنه تشكل بناء على المعطيات السابقة بالإضافة إلى الطبيعة التوسعية التي تحكم هذا النوع من الصراعات الإمبراطورية.

- 542 م: ثورة يزيد بن كبشة وأقبال سبأ وآل ذي يزن: والواضح أن ما يهمنا في هذه الثورة هو انضمام اليزنيين إليها. وهو ما يثبت إلى حد كبير الفكرة القائلة بتميز اليزنيين كأسرة أو سلالة عن حمير، وإفرادها بالذكر كواحدة من مكونات "المجتمع اليمني" آنذاك. بالإضافة إلى سبب آخر هو أن إخماد هذه الثورة يعود إلى ((أن اليزنيين كانوا غير متحدين وأنهم كانوا على خلاف وتمزق بين صفوفهم. وهو الأمر الذي أضعفهم وجعل ثوراتهم أو انتفاضاتهم تنتهي بالفشل... وفي نفس الفترة تقريباً انهار سد مأرب فقام أبرهة الأشرم بترميمه))³. وهذا عامل نعتقد أنه مفيد وسنعود إليه لاحقاً.

- 570 م - 571 م: عام الفيل، أو حملة أبرهة المخصصة لهدم الكعبة المشرفة، وبالمناسبة نذكر أن هذه هي الحادثة التاريخية الأبرز وربما الوحيدة التي نتحدث فصلاً عن محاولة حقيقية لهدم الكعبة. وقد انتهت هذه المحاولة، كما هو معروف، بأن

* - الواقع أن المؤرخين يتحدثون عن محاولتين للغزو: الأولى عام 518 م، والثانية 528 م، ولا ندري إلى أي مدى يمكننا الحديث عن هاتين المحاولتين بصفتها حدثاً. ولكننا لم نلمس أي تغيير جذري في العوامل التي أدت إلى الغزو، فالاحتلال. الأمر الذي جعلنا نتعامل عملياً مع هاتين المحاولتين هنا بصفتها حدثاً واحداً تم على مرحلتين.

1 - دلو برهان الدين، جزيرة العرب قبل الإسلام، ط1، الفارابي، بيروت، 1989، ج2، ص: 222 - 223.
2 - باوزير محمد، اليمن القديم في القرآن الكريم والشعر الجاهلي وكتب المؤرخين والجغرافيين العرب القدامى، ص: 254، مستندا إلى مصادر متعددة.
3 - المرجع نفسه، ص: 284.

حمى رب البيت بيته عن طريق "طير أباييل" أصابت جيش أبرهة "بأمراض غريبة". ألا يمكن لنا هنا أن نقرن بين هذه الحادثة وبين محاولة ذي يزن - في السيرة - هدم الكعبة ونقلها إلى مدينته؟ خاصة ((وأن ذو يزن قد أصابته هو الآخر بأمراض تتمثل في انتفاخا كبيرا جعله كالفييل، وأعجزه عن الحركة، ولم يشف منها إلا حين أعلن إسلامه وكسا الكعبة))¹. بمعنى أدق: تروي المصادر العربية الإسلامية حدثا "تاريخيا" عن تبع من التبابعة حاول هدم الكعبة ثم تراجع، وتورد السيرة نفس الحدث منسوبا إلى "ذي يزن". ألا يمكن لنا اعتبار هاتين "القصتين" صدى من الأصداء الإسلامية الموازية لحادثة عام الفيل، أو نسجا أسطوريا على منوالها؟

572 م - 575 م: ثورة يمنية ضد الأحباش تنتهي بانتصار اليمنيين. وهذا هو الحدث الذي يهم بحثنا، والذي ترتبط به شخصيتنا: سيف بن ذي يزن.

*** - الثورة اليمنية ضد المحتل الحبشي:** يبدو أن فشل "أبرهة الأشرم" في هدم الكعبة المشرفة قد أدت إلى إضعاف سلطته القوية على اليمن. فقد هزم جيشه، واعتبر العرب ومنهم اليمنيون الأمر انتصارا "الإلهيا" رفع معنوياتهم. وحالة وفاة أبرهة دون أن ((يستطيع رأب الصدع الذي أصاب جيشه، ويبدو أن ابنه يكسوم ومسروق قد اختلفا بعده، مما أدى إلى ضعف السلطة وقيام الأقبال والأدواء بحركتهم في أماكن متفرقة من اليمن ضد السلطات الحبشية))². وهنا مرتبط الفرس. يبدو من مختلف المؤشرات التاريخية أن حركة التحرر اليمنية لم تكن وطنية بالمفهوم المعاصر. لماذا؟

بداية، لم يتفق الجغرافيون والمؤرخون العرب قط على حدود جغرافية واضحة لليمن، ذلك أن الحدود والمساحة كانت تتذبذب بين الضيق والانتساع، حسب الظروف السياسية في اليمن، أي تتغير الحدود السياسية تبعا لضعف وقوة الدولة المركزية آنذاك*. ويبدو أن الأمر منطقي جدا، فاليمن القديم كان عبارة عن ممالك متفرقة وقصور ومحافظ. ولم تتجه الأمور فيه نحو التوحيد السياسي أو الجغرافي إلا مع الاتحاد القبلي الحميري "أشعب حميرم"، وقد تم ذلك على مراحل كما ألمحنا إلى ذلك سابقا. ويتجلى ذلك واضحا من تطور اللقب الملكي الذي كان يعطي للحاكم على اليمن (ملك سبأ وذي ريدان) ثم ملك (سبأ وذي ريدان وحضر موت ويمنة) الذي ناله الملك "شمر يهرعش" ثم ملك (سبأ وذي ريدان وحضر موت ويمنة و أعرابهم طورا وتهامة) الذي حملة الملك "أبو كرب أسعد بن ملك يكرب يهأمن**"،

¹ - المرجع السابق، ص: 285.

² - منقوش ثريا، سيف بن ذي يزن بين الحقيقة والأمل والأسطورة، ص: 32، 33.

* - باوزير محمد، اليمن القديم في القرآن الكريم والشعر الجاهلي وكتب المؤرخين والجغرافيين العرب القدامى، ص: 78 - 82.

** - المرجع نفسه، ص: 210 - 212.

وصولاً إلى "أبرهة الأشرم" الذي تلقب باللقب الرسمي الذي كان يتلقب به التبابعة ملوك حمير قبل سقوط دولتهم... واللقب هو "أبرهة نائب ملك الجعزيين رمحس زبيمن ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت وإعرابهم في النجاد وتهامة"، وقد أضاف أبرهة عبارة (رمحس زبيمن)، وهي عبارة لم تكن مستخدمة عند التبابعة الحميريين، ومن ثم فإنها قد تكون لقباً أو نعناً خاصاً استحدثه أبرهة لنفسه.

إذاً، كما يتضح من هذه النقطة أن الأمور في اليمن كانت تتجه فعلاً نحو تأسيس دولة - وطن - يقوم على تجميع القبائل والممالك معاً ضمن إطار دولة مركزية، ولكن هذا المشروع لم يتطور إلى الحد الذي يسمح بصهر هذه العناصر المختلفة ضمن إطار وطن واحد، يحصل فيه الحاكم على لقب يعكس وحدة هذا الوطن، والجدير بالذكر أن هذا المشروع لم يتطور لعدة أسباب أهمها الغزو الخارجي تحديداً الذي تم في مرحلة ما قبل الدولة.

ولعلنا نستطيع تأكيد هذه النقطة بالعودة إلى الثورة التي قام بها "يزيد بن كبشة" والتي قامت على أساس قبلي - أسري: ((فالنص CIH541 أشار إلى ثورة يزيد بن كبشة، وأتبع تلك الإشارة باللفظة الحميرية (عمهو) أي معه (مع يزيد)، وحرص النص على ذكر أسماء الأقبال الثائرين، وربما المناصرين ليزيد بن كبشة، وهم أقبال "سبأ" و"آل ذي سحر أو الأساخر وهم: مرة وثمامة وحنش ومرثد، وحنيف وذو خليل، ومن اليزنيين: معد يكرب ابن سميف وهعان. واخوته بني أسلم))¹. فحتى هذه الثورة ضد الأحباش تظهر البعد القبلي الذي يطغى تماماً على البعد الوطني في تلك الفترة، بل إن دخول أهل اليمن إلى الإسلام كان دخولا "قبلياً"، وإن رافق ذلك مؤشرات على وحدة المنطقة التي جاؤوا منها. ولا تتناقض هنا بين هذين الأمرين، فالوضع في اليمن كان قبلياً يتجه إلى التوحيد الوطني ولم يبلغه بعد. وبالتالي، فإننا نميل إلى اعتبار حركة التحرر اليمنية ضد الأحباش حركة اتحاد قبلي مؤهل ليصبح وطنياً في مراحل تاريخية لاحقة. وإذا كان الأمر كذلك، فلنر موقع اليزنيين من هذا الاتحاد ودورهم فيه.

تمت الإشارة سابقاً إلى الدور الذي قام به اليزنيون في المرحلة الثانية من مراحل توحيد اليمن في بدايات القرن الخامس الميلادي، كانت هذه المرحلة التي برزوا فيها على الساحة اليمنية، ونستطيع الافتراض أنهم أصبحوا واحداً من المكونات الرئيسية للمجتمع القبلي الناشئ آنذاك، والناتج عن حركة توحيد مطردة النمو. اللحظة التاريخية الثانية التي نلمح فيها تأكيداً لهذا الافتراض كانت في بدايات القرن السادس الميلادي، وتحديداً في الفترة التي تولى فيها ملك يدعى "يوسف ذو نواس" الحكم في اليمن بين عامي 516 م و518 م.

¹ - المرجع السابق، ص: 283، 284.

لقد اختلفت المصادر الإسلامية في تسمية هذا الرجل وإن كان "ذو نواس" القاسم المشترك بين كل محاولات تسمية هذا الرجل، بينما سمته الحميرية باسم (يوسف أسار يثار). وكالعادة نجد مرويات كثيرة تحكي كيفية وصوله إلى السلطة ولكننا بالاعتماد على المصادر التاريخية بما فيها النقوش يمكن أن نستنتج أن وصوله إلى السلطة كان في الفترة الواقعة بين أواخر عام 516 م ومطلع 518 م، خلفا لملك يدعى (معد يكرب يعفر ملك سبأ وذو ريدان وحضر موت ويمنت وبدورهم في طور وفي تهامة).

ويبدو أن "ذو نواس" تهود في مرحلة سابقة لوصوله إلى الحكم، وأن وصوله للحكم تم لأن الملك "معد يكرب" انتهج سياسة موالية لبيزنطة والحبشة، وكان "ذو نواس" ضد تلك السياسة، فجمع القبائل القوية من حوله وأبرزها اليزنيون وقضى على سلفة "معد يكرب" وانتزع منه الحكم. وربما لم ينتزع منه الحكم بل خلفه في الحكم بعد موته*.

وصل اليزنيون إلى الحكم من خلال مساعدتهم لـ "ذو نواس"، ولكن لم يقدر له ولهم الاستمرار في حكم اليمن بسبب الاحتلال الحبشي الذي وقع في عام 525م. ويبدو - اعتمادا على الروايات الإسلامية - أن أحد أسباب الهزيمة اليمنية أمام الأحباش كان التمزق والاختلاف بين القبائل التي لم تكن كلها موحدة تحت راية ذو نواس. ((لأن عهد ذي نواس تميز ببروز المكيات والإقطاعيات ومالكيها الأنواء، مما سداهم في ضعف نفوذ الحكم المركزي وتقلصه، وأدى هذا بدوره إلى ضعف الملك وعدم قدرته على مواجهة الغزو الحبشي، ومن ثم هزيمته في عام 525 م))¹. لا نعتقد هنا أن الأمر يتعلق ببروز ملكيات وإقطاعيات، بل يبدو أن الملكيات والإقطاعيات والتجمعات المعتمدة على معطيات قبلية وأسرية كانت موجودة فعلا وبوضوح في بنية المجتمع اليمني. وكل ما في الأمر أن الوقت لم يسمح بانصهار هذه المكونات في بنية وطنية واحدة، فجاء الغزو الحبشي وأعاد هذه المعطيات إلى الواجهة مرة أخرى.

ولعل أبرز ما يؤكد هذا التوجه هو ثورة "يزيد بن كبشة" - التي أشرنا إليها سابقا- والتي قامت على شكل تجمع يضم أنواء وأقيال وقبائل، والتي فشلت بسبب التمزق والخلاف وعدم الاتحاد، وكان اليزنيون من المشاركين في هذه الثورة.

إذا، برز اليزنيون كوحدة أسرية أو قبلية في مرحلة حاسمة من مراحل توحيد اليمن تحت سلطة حكم موحد، ثم وصلوا إلى السلطة بمعوية "ذو نواس"، ولكن الغزو

* - باوزير محمد، اليمن القديم في القرآن الكريم والشعر الجاهلي وكتب المؤرخين والجغرافيين العرب القدامى، ص: 242-245، وقد تحدث هذا الباحث باستفاضة عن الأسماء "الإسلامية" الذي نواس، وعن العديد من الروايات التي قيلت فيه، معتمدا في ذلك على مصادر إسلامية وتاريخية متعددة.

¹ - المرجع نفسه، ص: 270-271.

الحبشي أزاحه ومن معه عن الحكم، فشارك اليزنيون مع أطراف أخرى من الأنواء والأقبال في الثورة ضد الأحباش التي أدت إلى إنهاء الاحتلال.

عند هذه الثورة يصمت المنطق القبلي السائد في اليمن صمتا غريبا ونهائيا، وتتوحد جميع المصادر التاريخية في الحديث عن الثورة التي أطاحت بحكم الحبشة المتمثل في أولاد "أبرهة الأشرم"، إذ يفترض حسب المتفق عليه بين هذه المصادر على أن هذه الثورة تمت بقيادة يزنية تتمثل في رمز تاريخي هو "سيف بن ذي يزن".

نتفق مع هذا التوجه - من منطق البعد الزمني - فقد شارك اليزنيون كأتباع في توحيد اليمن، ومشاركين في الحكم لاحقا مع "ذو نواس"، وكأنداد في الثورة الرئيسية على الأحباش، الأمر الذي جعلنا نتوقع تصددهم للثورة الناجمة ضد الأحباش في الأعوام 572 - 575 م. ولكننا لا نتوقع أن يكونوا وحدهم من قام بالثورة، ولا نستطيع أن نفترض هكذا ببساطة أن يحصل اليزنيون على الولاء المطلق من جميع مكونات المجتمع اليمني ليقودوا هم وحدهم هذه الثورة على يد شخص واحد فقط. ما نتوقعه هو أن مجموعة من الأنواء والأقبال والقبائل تجمعت حول اليزنيين كقوة رئيسية للعودة إلى الحكم مرة أخرى؛ إذ لا توجد أي مؤشرات تدل على اختفاء المنطق القبلي أو اضمحلال قوته لا في اليمن ولا في أي منطقة من مناطق الجزيرة العربية التي كانت تعيش على نفس الإيقاع القبلي. وإذا كان طرد الأحباش والعودة إلى حكم اليمن هدفا يمكن أن يضبط الإيقاع القبلي مرحليا، فإنه لا يمكن أن يضمن الانصهار الكامل في كيان واحد على المدى البعيد، إلا إذا حصل تواصل تاريخي أدى إلى تحول جذري في البنية الحضارية والسياسية للمنطقة.

إن المنطق القبلي يصمت تماما عند الحديث عن الثورة التي أدت إلى إخراج الأحباش من اليمن، ولكن إذا افترضنا أن هذا الصمت لا ينفي البعد القبلي والأسري لهذه الثورة، فإننا نستطيع أن نعتبر أن تجمعا قبليا يقوده اليزنيون قد قرر الثورة على الأحباش، وبالتالي فإن الفعل التاريخي هنا يعود إلى وحدته الأساسية "القبالية أو الأسرة". وهذا ما جعلنا نعتبر الشخص الذي تتفق مختلف المصادر على قيادته الثورة، وإن كانت تختلف في اسمه ونسبه*، لم يكن أكثر من رسول أو ممثل كلف بالحديث باسم هذا التجمع، وإذا كان هذا الشخص رسولا في تلك الفترة، فهذا أمر ينسجم مع المعطيات القبالية: فالرسول عادة ما من الأشراف، والأشراف هنا يتصددهم اليزنيون، وإن كان ليس القائد الفعلي للقبيلة أو للتجمع القبلي. وإذا كان هذا الشخص رسولا، فهذا الأمر يمكن أن يوسع هامش الاختلاف في الاسم

* - وهذا أمر غريب إلى حد ما، فالقبائل العربية تتفق عادة على أسماء قادتها وأبطالها وأنسائها.

والنسب، وهذا ما يجعله ينطبق على "سيف بن يزن"، لنعد إلى المصادر التي تحدثت عن هذا الموضوع، ولنر ما هي مصداقية هذا الطرح. ولنبدأ بالشخص.

يورد الباحثان محمد باوزير¹ وثرثيا منقوش² مجموعة من الآراء عن شخصية "سيف بن ذي يزن" نقلا عن: المؤرخ اليمني: أبو الحسن الهمداني في الإكليل، الجزء الثاني والطبري: تاريخ الرسل والملوك، وابن هشام: في السيرة، وابن خلدون، والدينوري: الأخبار الطوال، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، وآخرين، ما يلي :

- عند الهمداني " سيف بن ذي يزن " هو "النعمان بن معدي كرب بن قيس بن عبيد بن سيف بن عامر ذي يزن"، ويحاججه أبو نصر بعد أن يورد سلسلة من الأنساب على أن الشخصية اليمنية التي نزلت إلى كسرى أو شروان، والتي استقبلت وفد قريش برئاسة عبد المطلب هو "سيف بن ذي النعمان". وتأتي تعريفات أخرى* لتقول بأن شخصية "سيف بن ذي يزن" هي الشخصية المعروفة بـ"سيف ذي يزن بن ذي أصبح بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن العرنجج، وهو حمير بن سبا وكان يكنى "بأبي مرة".

ويقال أيضا أنه "سيف ذي يزن النعمان بن عفير بن زرعة بن الحارث بن النعمان بن قيس بن عبد بن سيف الأكبر بن عامر ذي يزن".** ويروى أيضا أنه "معد يكر بن أبي مرة الفياض" وكان من أشرف حمير. ((ومن الروايات ما تسميه معد يكر بن سيف وأنه ولد بصنعاء، والمعروف أن الاسم "سيف" ليس من الأسماء المعروفة كثيرا في اليمن قبل الإسلام، إذا رجعنا إلى النصوص اليمنية القديمة، بينما الاسم معد يكر من الأسماء الشائعة، بل كان اسما لقييل يزني (معد يكر بن سميفع) معاصر لأبرهة الحبشي وهو ضمن أمراء المناطق الذين ثاروا على أبرهة))¹.

وإذا تم استثناء المقارنة بين هذه الآراء، وبين ما ورد في السيرة من نسب لنفس الشخص، على اعتبار أن ما دونته السيرة يميل بشدة إلى كونه أسطوريا، فإن السؤال البديهي الذي يمكن طرحه هو: ما الذي يبرر هذا الاختلاف الشديد أحيانا، في التعريف بزعيم يماني حرر اليمن من الأحباش في فترة تاريخية قريبة من

¹ - باوزير محمد، اليمن القديم في القرآن الكريم والشعر الجاهلي وكتب المؤرخين والجغرافيين العرب القدامى، ص: 308-310.

² - منقوش ثريا، سيف بن ذي يزن بين الحقيقة والأمل والأسطورة، ص: 38-42.

* - وردت هذه "التعريفات الأخرى" في كتاب ثريا منقوش، وهي تضمها إلى الاجتهادات اليمنية، فقد أوردت رأي الهمداني، ثم أوردت هذه التعريفات الأخرى، ثم انتقلت إلى المؤرخين والرواة العرب.

** - هذا النسب نقله باوزير عن الهمداني، وهو يختلف قليلا عن النسب الذي نقلته منقوش عن نفس المصدر فآثرنا إيراده هنا.

³ - باوزير محمد، اليمن القديم في القرآن الكريم والشعر الجاهلي وكتب المؤرخين والجغرافيين العرب القدامى، ص: 306.

الإسلام، حيث يفترض أن تكون الذاكرة هنا أقوى خاصة إذا علمنا أن هذا الزعيم قابل وفد قريش بقيادة عبد المطلب، وبشرهم بميلاد النبي (صلى الله عليه وسلم)؟

يبدو أنه يمكن تبرير هذا الاختلاف بالاعتماد على أن هذا الزعيم لم يكن شخصا وحد القبائل والأسر اليمنية تحت رايته، توحيدا قضى عل الاختلافات بينهم. بل يبدو أن العكس هو الصحيح، فالتجمع القبلي بقيادة اليزنيين هو الذي أفرز هذا الشخص على أنه ممثل لهم وليس قائدا أو زعيما. ومن القرائن التي يمكن لها تساعدنا على تقوية هذا الافتراض هو أن البنية الاجتماعية في اليمن قبل الغزو الحبشي كانت قبلية تقوم على التوافق والاختلاف، وإن كانت سائرة نحو التوحيد على يد الحميريين الذين رأينا أن بداياتهم كانت عبارة عن اتحاد قبلي، وتكرست الاختلافات قبلية بعد الغزو الحبشي هذه الاختلافات تبدو عاملا رئيسيا من عوامل فشل ثورة "يزيد بن كبشة" ضد الأحباش وعدم الاكتمال في التوحيد يبرز على شكل انتفاضات محلية ضد الأحباش، ويبدو أن هذه الثورة الأخيرة الناجحة، لم تنجح بالاعتماد على توحيد داخلي لقبائل اليمن وهو أمر يمكن له أن يضمن النجاح، بل قدر لها أن تنجح بمساعدة خارجية مهما كان مصدر هذه المساعدة أو حجمها.

ثم عن المؤرخ اليمني "أبو الحسن الهمداني" الذي تعتبره "ثريا منقوش" ((المصدر الوحيد للتاريخ والمجتمع اليمني القديم، أي فترة ما بعد النقوش في المعهد الإسلامي الأول وهو كنسابة مجتهد أودى بحقائق أنساب الأسر اليمنية الكبيرة، وله في هذا المجال باع وذراع))¹. وقد أشار إلى أن أكثر من شخصية يمنية سارت تطلب النجدة، حيث ((توجهت الأولى إلى المناذرة ثم إلى كسرى وفارس، وهي شخصية قيل يعرف بسيف بن النعمان بن عفير*. كما توجهت الشخصية المعروفة ب: عمرو بن النعمان إلى قبائل قحطان بالشام (الغساسنة) وقيصر الروم))².

ومما يؤكد الاستمرارية التاريخية للمنطق القبلي أو الأسري الذي انطلق مع الإتحاد القبلي المسمى بحمير هو أن أهل اليمن دخلوا إلى الإسلام على شكل وفود يمثل كل منها المنطقة التي أتى منها، وبعد أن أسلموا ولاهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) حكاما كل على منطقتهم. ومع دخول الإسلام إلى اليمن تختفي الأخبار المتعلقة باليزنيين، هل قضي عليهم تماما؟ لا نعرف. ولكن ما نملكه الآن هو العودة إلى آخر أثر "تاريخي" واضح لهم وهو "سيف بن ذي يزن". ويبدو أنه لا يوجد عامل حاسم يثبت اسما محدد لهذا الشخص خاصة أن ((عهد استقلال اليمن خال من أي نصوص، فلم يترك شيء مدون عن هذا العهد لا بالمسند ولا بقلم الفرس الرسمي يشرح الأوضاع السياسية أو غيرها في هذا العهد، ولم يكن أمامنا سوى ما ورد في

¹ - سيف بن ذي يزن بين الحقيقة والأمل والأسطورة، ص: 41.

* - لاحظ التطابق بين اسم هذه الشخصية، وبين تعريف الهمداني لسيف بن ذي يزن، ويبدو لنا أنهما ليسا شخصين مختلفين بل هما شخص واحد هو مبعوث القبائل: سيف بن النعمان بن عفير.

² - منقوش ثريا، سيف بن ذي يزن بين الحقيقة والأمل والأسطورة، ص: 42.

كتب المؤرخين العرب القدامى))¹ التي اضطربت في تحديد اسم هذا الشخص، كما اضطربت في تحديد معطيات أخرى تتعلق باليمن. فما العمل؟

يقول باوزير: ((كل تلك الآراء والروايات على الرغم من اختلافها وتباينها تجمع أن الزعيم الذي تحمل عبء الجهاد في إخراج الأحباش من اليمن هو يزن، وربما كان اسمه سيف أو معد يكرب أو غيره. وطالما انه لا خلاف ولا تشكيك بأن هناك حركة وطنية شهدتها شبه الجزيرة العربية ضد الوجود الحبشي، فبالأكيد أن هناك من يتزعمها، لذا فليكن هنا باسمه التاريخي سيف بن ذي يزن ليكون هو رمزها الوطني))².

أما الباحثة ثريا منقوش فتقول: ((ومهما تعددت الآراء وتباينت واختلفنا مع بعضها، واتفقنا مع بعضها الآخر واعتمدناه، فإن ما يهمنا ونحن ننظر إلى التاريخ على أنه حركة الجماعة والجماهير أن نعتمد اسم من الناس، وليكن هنا باسمه التاريخي الشهير سيف بن ذي يزن ليكون هو رمز الحركة الوطنية الأولى من نوعها في الجزيرة العربية ضد الوجود الحبشي التي لا يختلف عليها اثنان. ويعني التشكيك فيها تشكيكا في التاريخ اليمني كله، ومن ثم العربي الإسلامي لما للتاريخ اليمني ولتلك الحركة من أثر فيه. ولولاها لخضعت الجزيرة للأحباش ولما كان الإسلام والحضارة الإسلامية العظيمة. وباختصار شديد لتغير مجرى التاريخ العربي ولسار في اتجاه مغاير. إننا نميل إلى تثبيت الصفة "سيف" الحالة محل الاسم حتى لا نوجد أي بلبلة أو تضاد في المعارف التاريخية لدى القارئ العربي واليمني على وجه الخصوص ما دام عملنا ذلك من الناحية التاريخية غير مدحوض ولا متعارض مع الأحداث كما أنه لا يلغي ولا يضرب الشعوب الوطني والقومي في العمق))³.

ما هو الاسم؟ وما هي الصفة؟ ... ((تجمع الآراء أن شخصية ما من آل ذي يزن ولنسمها شرحبيل كما هي عند الهمداني أو معد يكرب كما عرفها الطبري ... ويعود نسبها إلى آل ذي يزن، وقد كانت فخاذاً منهم من أشد أعداء أبرهة ... ويبرر الهمداني الصفة (سيف) بالمفاهيم الشعبية المتعارف عليها، فقال: فلان سيف إذا كان نجداً، وهو حصن إذا كان وقافاً...))⁴.

لهذه الشخصية إذا أكثر من اسم، ولكنها تحصل على صفة واحدة - رغم اختلاف المصادر والمرجعيات بما في ذلك السيرة - هذه الصفة هي "سيف". ويبدو أن "الجميع" متفقون ضمناً حول هذه الصفة، والنتيجة هي أننا الآن نطلق على هذه الشخصية الاسم الأسطوري المعروف تاريخياً: سيف بن ذي يزن، ويبدو أنه لا

¹ - باوزير محمد، اليمن القديم في القرآن الكريم والشعر الجاهلي وكتب المؤرخين والجغرافيين العرب القدامى، ص: 320.

² - المرجع نفسه، ص: 321.

³ - سيف بن ذي يزن بين الحقيقة والأمل والأسطورة، ص: 41، 42.

⁴ - المرجع نفسه، ص: 41.

توجد أي مشكلة في نسبة الشخصية إلى "ذي يزن" فقد رأينا سابقا أن "ذا يزن" يمكن أن يكون اسم القصر أو المحفد الذي نسب إليه اليزنيون، وحملوا اسمه، فأصبحوا آل ذي يزن. وإذا كان الإجماع واضحا حول النسب اليزني، فإن المشكلة في الاسم. في السيرة، ذو يزن ملك تبعي حميري أي أنه شخص واحد. هذا الملك أنجب طفلا كني لفترة ما في السيرة باسم "وحش الفلا"، إلى أن دخل الإسلام على يد عابد عرفه بأبيه، وسماه: "أنت سيف من عند الله". وكأن رواية السيرة أرادوا أن يختصروا كل هذا الجدل، فأعطوه هذا الاسم "الذي يذكر بلقب خالد بن الوليد: سيف الله المسلول" ونسبوه إلى عائلة أو آل ذي يزن.

ما نرغب في تثبيته هنا هو اسم آخر أقرب إلى منطق الأمور، وليكن "سيف بن النعمان بن عفير" وقد آثرنا فعل ذلك لنفصل بين البعد الواقعي لهذه الشخصية وبين البعد الأسطوري الذي امتلأ بعناصر مختلفة يمكن أن تكون قد ابتعدت عن هذه الشخصية ابتعادا كبيرا عن حقيقتها.

إننا بالرغم من البحث المكثف، لم نجد إجابة وافية وحاسمة عن السؤال الوحيد الذي يهمننا في هذا الإطار، وهو: ما دام هناك تضارب حول اسم الشخص الذي حرر اليمن فكيف تكرر الاسم الأسطوري "سيف" وأصبح عنوانا لسيرة شعبية في مرحلة لاحقة؟

وبالتالي فقد افترضنا فرضيتين، الأولى: ارتباط أخبار التبابعة بأية قرآنية ورد فيها ذكر "تبع" كما لاحظنا ذلك سابقا، جعل هذا الموضوع حيا طالما ظل الغموض يرافق كلمة "تبع" الواردة في القرآن. والفرضية الأخرى: الحديث عن شخصية حكمت اليمن عشية انتقال الحكم في اليمن إلى الفرس، وتنبأت لوفد قريش بظهور النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، كرس الحديث عن هذا الشخص في كتب التاريخ والأنساب والقصص. إذا، تكرر الحديث عن التبابعة وعن شخصية بحثنا هذا من خلال ارتباطها بالدين الإسلامي سواء عن طريق كتب التفسير، أو عن طريق طوابع السيرة المحمدية. ولكننا لم نستطع - كما ذكرنا - أن نفسر التضارب في تحديد اسم هذا الشخص على مستوى الكتب والمصادر، ما دام مهما إلى هذه الدرجة.

كتلخيص لما سبق، يمكن ترتيب تصورنا للأحداث على الشكل التالي: في العالم 525 ميلادي قامت مملكة أكسوم "الحبشة، أثيوبيا اليوم"، بغزو جنوب الجزيرة العربية. إثر ذلك، قامت عدة ثورات ضد المحتل الحبشي، كانت أبرزها ثورة "زيد بن كبشة" التي ذكرناها سابقا أنها عبارة عن تجمع قبلي يضم آل ذي يزن. ويبدو أن هذا التجمع قد لم شمل القبائل أو الأسر والأقبال والأندواء الذين يدينون باليهودية. فشلت كل هذه الثورات في الفترة الفاصلة بين عامي 572-575م، ثم تزعم

اليزنيون تجمعا قبليا لطرده الأقباش من اليمن، و أرسلوا " أي اليزنيين " عدة رسل إلى عدة جهات طلبا للمساعدة.

نجح مبعوث التجمع القبلي إلى فارس في إقناع قادتها بالمساعدة. وتختلف المصادر التاريخية في تحديد شخصية هذا المبعوث، ولكن الثابت لدى الجميع أنه يزني، ولا بد أن يكون- وقفا للعرف السائد آنذاك- من أشرف آل ذي يزن، كما اختلف في تحديد اسم هذه الشخصية. واكتشفنا أن هنالك ثلاثة احتمالات لهذا الاسم: "شربيل"، أو "سيف بن النعمان بن عفير" كما طرحها الهمداني، أو "معد يكرب" كما عند الطبري وغيره فثبتنا اسم "سيف بن النعمان بن عفير اليزني".

وتم تتويج هذا المبعوث الذي أتى بالمساعدة الفارسية ملكا على اليمن. والثابت إذا أن هذا المبعوث حكم جنوب الجزيرة العربية، واختلف- مرة أخرى- في المدة التي قضاها في الحكم. والمدة التي قضاها في الحكم غير مهمة لنا في هذا الإطار ولكن المهم هو أن حاكم "اليمن" الجديد استقبل عدة وفود مهنئة، من ضمنها وفد قريش وفيهم "عبد المطلب بن هاشم" جد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، و"أمية بن عبد شمس" جد الأمويين بالشام والأندلس، و"خويلد بن أسد" والد "خديجة" أم المؤمنين... وآخرون.

وبهذا نكون قد عرفنا الشخصية التاريخية لبطلنا، وحددنا اسمه التاريخي الأقرب إلى الدقة.

ثانيا - الخصائص التاريخية لشخصية عنتر بن شداد:

إن الأخبار عن عنتر كثيرة ومختلفة أحيانا، وسنحاول الوقوف عند أهمها كما ترويتها أقلام المؤرخين قديما وحديثا، وكما استقيناها من أشعاره بعد أن قمنا بعملية استقصاء كانت صعبة حيث اعتمدنا بالدرجة الأولى على الديوان الذي يضم أربعاً وتسعين قصيدة متفاوتة الطول وقد تقصر أحيانا إلى إن تصل البيت الواحد، ومجموع هذه الأبيات التي اعتمدها يبلغ عددها ألفا وسبعمائة وأربعة وثلاثين بيتا، وكل هذه الأشعار ستكون عمدتنا في هذا العمل على اعتبار أنها وثيقة تاريخية، بالرغم من أن قسما كبيرا منها لا يمكن أن ينسب إلى عنتر لأسباب أهمها: أن مؤلفي السيرة كانت لهم اليد الطولى في صنع القصائد العديدة التي نلواها لبطلهم وهكذا يكون التمييز بين النوعين من الشعر صعبا جدا.

ولا يقودنا هذا العمل إلى الكثير من النتائج ولا يكون ذلك ممكنا إلا إذا عرفنا روح الشعر الجاهلية الإجمالية لنطبق ذلك على سائر الشعر المنسوب إلى عنتر، ما

لم نتمكن من تحديد تاريخ وضعه، وهذا العمل يخرج بنا في الحقيقة عن هدف بحثنا، ولهذا أردنا أن تشمل دراستنا هذه على كل هذه الأشعار لما في ذلك من فائدة وشمولية.

والواقع أن ما بقي من أخباره وأخلاقه إنما هو منقول عن شعره الذي وإن لم يكن همه أن يعرض الحوادث عرضاً علمياً مفصلاً فإنه يوضح بعض النقاط التي قد تكون مفيدة للباحث، إذ تعينه على توضيح بعض الغموض، بالإضافة إلى وصف ذلك الشعور النفسي الذي ينتج عن هذه الحوادث، وهي ناحية لا تستطيع كتب التاريخ العناية بها. ورغم ما سجله هذا الشعر من جوانب هامة تتعلق بحياة الشاعر وبنفسيته فإن ذلك لم يكن كافياً لرسم صور واضحة عن عنتر بن شداد التاريخي، ولهذا أصبح لزاماً علينا أن نتصفح كتب التاريخ الأدبي لعلنا نظفر بما يغني، وقد اعتمدنا لذلك مصدرين هامين وأساسيين هما: "الشعر والشعراء" لابن قتيبة، وكتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني.

وفي هذا الإطار يكون من الضروري الذكر بأن أخبار كثيرة وردت في السيرة يدعمها التاريخ، ولا بد من الوقوف عندها لنتمكن من الاقتراب من الحقيقة التاريخية، رغم ما وجدناه من صعوبات في انتزاع هذه الأخبار انتزاعاً، لأنها خضعت لتأويلات عديدة واشتبه فيها الصحيح بالموضوع.

وبعد الإطلاع على ما تحمله هذه المصادر والمراجع من أخبار تاريخية، يمكن تحليل النقاط الأساسية التالية التي لا تزال تشغل الباحثين عن الحقيقة التاريخية حتى يومنا هذا، وأردنا لأهمية الموضوع أن نساهم في عملية الاستقصاء لعلنا بذلك نقرب من الحقيقة. والسؤال المطروح هو: هل يمكن أن نستخرج ونحن نستقرئ هذه المصادر ما يمكن أن يفيدنا لمعرفة شخصية عنتر معرفة دقيقة بعيدة عن الخيال ليكون عملنا بعيداً عن كل انطباع لأن البحث العلمي يتطلب أساساً الموضوعية؟

ولهذا سنحاول الإجابة عن هذا السؤال وذلك بالتطرق إلى أربعة عناصر مهمة وهي: عنتر الإنسان، عنتر الفارس، عنتر الشاعر، وعنتر العاشق.

أ - عنتر الإنسان:

ينتمي عنتر إلى قبيلة عريقة في المجد والنسب، ورد أسماها في كتب التراجم قديمها وحديثها، وهذه القبيلة استوطنت بنجد بالجزيرة العربية، وورد في كتاب الأغاني تعريف بالتسلسل الأسري ما يلي: ((هو عنتر بن شداد وقيل: ابن عمرو بن شداد، وقيل: عنتر بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد بن مخزوم بن

ربيعة، وقيل: مخزوم بن عوف بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن الريح بن غطفان بن سعد بن قيس بن غيلان بن مضر¹.

أما ابن قتيبة فقد ذكر في كتابه أن عنتره ((هو ابن عمرو بن شداد بن عمرو بن قراد بن مخزوم بن عوف بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس بن بغيض))².

ويواصل المؤرخون جمع المعلومات وتقصي الحائق حول الأسرة وابنها عنتره، فيذكرون أنه ابن أمة حبشية سوداء اسمها "زبيبة"، وبذلك يصل عنتره إلى سلالة سامية من جهة الأب وسلالة حامية من جهة الأم، وقد ذكر شوقي عبد الحكيم أن عنتره ((تجلت فيه خصائص الحاميين والساميين وهو يختص بازواجية الانتماء))³. وما التأكيد على النسب - في رأينا - إلا رغبة في البرهنة على قيمة هذا الرجل.

ويمكن أن نضيف أيضا أن شخصيتي "حام" و"سام" هما من سلالة سيدنا نوح عليه السلام، الذي قدر الله له النجاة عندما أمره بحمل أبنائه وزوجاتهم في السفينة.

وفي هذا الإطار أيضا نشير إلى أن أباه ادعاه بعد الكبر لأنه لم يكن يعترف به جريا على عادة العرب في ذلك العصر، لأنهم كانوا يستعبدون أولاد الإماء ولا يعترفون بهم إلا بعد أن ينجبوا.

أما عن مولده، فأكثر الروايات لا تتعرض إلى تاريخ الولادة ويبقى الأمر مجرد اجتهاد شخصي من البعض كما فعل "فؤاد أفرام البستاني" حيث استنتج أن عنتره قد يكون ولد سنة 525 م، معللا ذلك بأنه حضر حرب "داحس والغبراء" التي انتهت بين سنتي 608 و610 م، وأنه غزا غزوة كان فيها الحطيئة الذي أدرك الإسلام وروى عمر بن الخطاب شيئا من تلك الغزوة*.

ومهما يكن من أمر، فإن الخلافات في التعريف بشخصية عنتره كثيرة لكن ذلك لا يعني على الإطلاق الشك في وجود شخصية عبسية عرفت عبر التاريخ بهذا الاسم.

هذه هي أذن أسرة عنتره جمعها المؤرخون وذكرها عنتره في شعره فهو القائل:

إني امرؤٌ من خير عبسٍ منصِبًا شَطْرِي و أَحْمِي سَائِرِي بِالْمُنْصَلِ⁴.

أما عن لون بشرته، فلا أحد يشك في أن عنتره كان أسود، وقد شاء القدر أن يولد هذا الطفل على غير لون أبيه في عصر كان العرب يقصدون فيه العرقية الدموية

1 - الأصفهاني أبو الفرج، الأغاني، دار الثقافة، بيروت، لبنان، م 8، ص: 135.

2 - الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دم ط، دت، م 1، ص: 250.

3 - عبد الحكيم شوقي، السيرة و الملاحم الشعبية، دار الحداثة، بيروت، لبنان، 1984، ص: 120.

* - عنتره بن شداد، سلسلة الروائع، منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، دت، ص: 388.

4 - ديوان عنتره، دار صادر، بيروت، ص: 57.

ويظهرون اشمئزازهم الكبير من اللون الأسود، ولعل الأمر يعود في ذلك - كما رأينا في سيرة سيف بن ذي يزن - إلى الأسطورة النوحية التي تفسر السواد الطارئ على بشرة ذرية "حام" - أحد أبناء نوح - بأنه ناتج عن دعاء نوح عليه السلام - عليه بالسواد عندما ضحك لما رأى عورته، وواقع زوجته بعد أن منعه من ذلك.

فالسواد بهذا التفسير يصبح عقابا منجرا عن الخضوع لنوازع الشهوة البهيمية ((وعندما ولدت امرأة حام غلاما جاء أسود اللون وسموه كوشا، وولد لكوش الحبشة بن كوش...))¹.

فعلى هذا النحو يجيء ((التفسير للعبودية والتسيد متسقا بالطبع مع البنية الجنسية (Racisme) الشوفينية لصراع الساميين - العرب - والحامين - السود - الأفارقة))².

وإذا انطلقنا مما ورد في هذه الأسطورة التي مزجت بين الواقع والخيال علمنا أن قضية اللون قديمة جدا وهي شاهد منذ القديم على العبودية، ولهذا لازم عنتره الاضطهاد بسبب لونه " الغرابي " الأسود؛ حيث أن أمه أمة سوداء غرابية، فعد لذلك عنتره من "أغربة العرب"، وبقي اللون السبب المباشر في كل المشاكل التي تعرض لها في حياته.

فبالرغم مما أسداه عنتره من انتصارات لقبيلته "بني عبس" على سائر القبائل العربية الأخرى، ظلت تلاحقه سياط لونه الأسود، ولهذا كان يولي للون بشرته الاهتمام الأول، وقد وردت أبيات كثيرة ذكر فيها عنتره لونه فهو القائل:

وَإِنْ يَعْيُبُوا سَوَدًا قَدْ كُسِبَتْ بِهِ فَالذُّرُ يَسْتُرُهُ ثَوْبٌ مِنَ الصَّدَفِ³
يَعْيُبُونَ لَوْنِي بِالسَّوَادِ جَهَالَةً وَلَوْ لَا سَوَادُ اللَّيْلِ مَا طَلَعَ الْفَجْرُ⁴
وهو القائل أيضا:

شَبِيهُ اللَّيْلِ لَوْنِي غَيْرَ أَنِّي يَفْعَلِي مِنْ بَيَاضِ الصُّبْحِ أَسْنَى⁵
وَمَا وَجَدَ الْأَعَادِي فِي عَيْبًا فَعَابُونِي بِلَوْنِ فِي الْعُيُونِ⁶

وكأن في ذكر لونه تعبيراً عن القمع الذي يمارسه المجتمع على العبد الأسود وبحثا في نفس الوقت عن وسيلة لتغطية مركب النقص الذي ملك كل مشاعره

1 - شوقي عبد الحكيم، السير والملاحم الشعبية، ص: 112.

2 - المرجع نفسه، ص: 111.

3 - الديوان، ص: 172.

4 - الديوان، ص: 155.

5 - الديوان، ص: 231.

6 - الديوان، ص: 234.

وأصبح عبئاً ثقيلاً لا يستطيع الشاعر تحمله، فكان الحل في خوضه للمعارك والافتخار ببطولته وشجاعته وأفعاله، فهو القائل :

أنا الحِصْنُ المَشِيدُ لآلِ عَبَسٍ إِذَا مَا شَادَتْ الأَبْطَالُ حِصْنًا¹
وَعُدْنَا وَالْفَخَارُ لَنَا لِبَاسُ نَسُودُ بِهِ عَلَى أَهْلِ الزَمَانِ²
وهو القائل أيضا:

وَلَمَّا أَوْقَدُوا نَارَ المَنَايَا بِأَطْرَافِ المُنْقَفَةِ العَوَالِي
طَفَّاهَا أَسُودٌ مِنْ آلِ عَبَسٍ بِأَبْيَضِ صَارِمٍ حَسَنِ الصِّقَالِ³

إن السواد عند العرب كان دائما مقترنا بالعبودية، ولهذا كان عنتره يلقب بـ"أسود بني عبس" تارة، وبـ"ابن زبيبة الحبشية" تارة أخرى، وهو أحد الثلاثة الذين جعلهم المؤرخون من أغربة العرب وهم: ((عنتره وأمه زبيبة وكانت سوداء، وخفاف بن عمير التارايدي من بني سليم وأمه ندبة وكانت سوداء، والسليك بن عمير السعدي وأمه سلكة واليها ينسب وكانت سوداء))⁴.

إن عنتره أسود أولا وعبد ثانيا وعليه أن يواجه هذه الظروف القاسية التي ولد فيها ونشأ وتكون؛ لأن قضيته مرتبطة بالواقع المعيش الذي كان يمارسه العرب قبل ظهور الإسلام، فتصبح محاولة الخروج من هذا الوضع المتردي مسألة شخصية تمس وجود عنتره كإنسان، لكنها في النهاية تخرج من محيطها الضيق لتصبح رمزا لحتمية خلاص المجتمع والإنسانية عامة من الاستعباد والتفرقة العنصرية.

وفي هذا الإطار لا يجب أن نعتبر أن ما قام به عنتره حركة يرمي من ورائها إلى تحرير العبيد أو ثورة ضد القضية " اللونية " إنما يمكننا أن نقول – وهذا ما تتبناه السيرة ويؤكد المؤرخون – أن قضية اللون كان لها الأثر البالغ في كيان عنتره وهي التي جعلته يواجه عدة معوقات ويكافح من أجل حريته ويضحى بالنفس والنفيس في سبيلها، ولا يستطيع أن يحرز ذلك ما لم يلحقه أبوه بنسبه، وما لم تعترف له القبيلة بهذا النسب.

فللنسب عند العرب شأن عظيم، ولا يزال العربي يقيم له وزنا حتى في هذا العصر، فنسب الإنسان هو الذي يحميه ويحافظ على حقوقه ويردع الظالم عنه ويأخذ حق المظلوم منه، والعربي مضطر إلى حفظه وإلى عد آبائه وأجداده وذكر قبيلته أو عشيرته؛ لأنه بذلك يسلم ويطمئن فالانتماء إلى قبيلة أو عشيرة هو حماية للفرد وفخر له، ولهذا كان إخلاص العربي لقبيلته أمر محتما عليه، وهذا ما جعل عنتره يبذل كل

1 - الديوان، ص: 231.

2 - الديوان، ص: 233.

3 - الديوان، ص: 201.

4 - البستاني بطرس، أدباء العرب في الجاهلية و الإسلام، دار المكشوف ودار الثقافة، بيروت، لبنان، 1968، ص: 163.

جهد في سبيل التصالح مع أبيه أولاً ومع أبناء عمه ثانياً ليعترفوا به، رغبة منه بالشعور بذلك الانتماء.

وشعره في جوهره لم يكن بالدرجة الأولى ابتغاء استماله عبلة كما هو مبثوث في معظم الدراسات، وإنما الهدف الحقيقي من حروبه والإشادة بانتصاراته وتضخيم ذاته هو ليبين كونه نافعا للقبيلة حتى تتبناه وتلحقه بنسبها وشرفها، وهذا مطلب خطير لأن عنتره لم تتوفر فيه الشروط الكافية ليلحق ببني عبس، فقد أنكره أبوه وتجاهله أهله، ولعل هذا ما جعل عنتره يفتخر ببني عبس ويبين ما قام به من أعمال لأجل نصرتهم و الدفاع عنهم فهو القائل:

وَأَنَا الْمُجْرَبُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا مِنْ أَلِ عَبْسٍ مَنَسِيْبِي وَ فِعَالِي¹
ولولا سِنَانِي وَ الْحَسَامُ وَ هِمَّتِي لَمَّا دُكِرْتُ وَ لَا نَالَهَا فَخْرُ²

إلى غير ذلك من الأبيات التي يتعرض فيها إلى ذكر اسم القبيلة التي يرغب بشدة في الانتماء إليها، وفي كل مرة يحاول من خلال ذلك أن يبين مدى أهميته وفضله على قومه ولولاه لما كانت بنو عبس في مثل ذلك العلو فهو القائل:

وَلَوْ لَا صَارْمِي وَ سِنَانُ رُمْحِي لَمَّا رَفَعْتُ بَنُو عَبْسٍ عِمَادًا³

من هذا كله نتضح الحالة النفسية التي يعيشها عنتره وهو مبتور النسب يواجه مجتمعه، ولا غرابة إذن أن يتصف بهذا الإسراف في حب الذات، وهذا ما يفسر الاغتراب لدى الشاعر، فرفض أبيه له ولد فيه نوعاً من الكراهية فلم يتعرض في شعره كاملاً إلى ذكر أبيه إلا مرة واحدة في هذا البيت:

مِنْهُمْ أَبِي شَدَادُ أَكْرَمُ وَالِدِ وَالْأُمُّ مِنْ حَامٍ فَهُمْ أَخْوَالِي⁴

أما ذكره لأمه فكان في عدة مناسبات، فهل يمكن القول أن عنتره يقف موقف الراض لأبيه؟

لقد ذكر عنتره أن أمه اسمها "زبيبة" وهي غرابية من آل "حام"، لكنه وهو يذكر أمه يعبر عن استيائه من قومه الذين أنذكروا زبيبة فلكي يعيروه بذلك الاسم ويحطوا من شأنه، فهو القائل :

يُنَادُونِي فِي السَّلْمِ بِابْنِ زَبِيْبَةٍ وَ عِنْدَ صِدَامِ الْخَيْلِ بِابْنِ الْأَطَايِبِ⁵

لكنه يبدو أنه يجب أمه، إذ أنه كثيراً ما يفتخر بنسبه من أمه و أخواله، ولا شك في أن الرجل يبحث من خلال ذلك عن جذوره حتى لا يشعر بالنقص وسط مجتمع

1 - الديوان، ص: 192.

2 - الديوان، ص: 155.

3 - الديوان، ص: 124.

4 - الديوان، ص: 191.

5 - الديوان، ص: 103.

يعتبر النسب من أهم وأعلى القيم الاجتماعية. فعنتره يعتز بأنه ابن أمه سوداء فيصف أمه وصفا جميلا نستشعر من خلاله مدى إحساسه النبيل نحوها، فهو القائل:

السَّاقُ مِنْهَا مِثْلُ سَاقِ نَعَامَةٍ وَالشَّعْرُ مِنْهَا مِثْلُ حَبِّ الْفُلْفُلِ
وَالتَّعْرُ مِنْ تَحْتِ اللَّيْتَامِ كَأَنَّهُ بَرَقَ تَلَالُأً فِي الظَّلَامِ الْمُسْدَلِ¹

ومن جهة أخرى، لم تعتن كتب تاريخ الأدب بنشأة عنتره بن شداد، وكل ما يمكن الاطمئنان إليه هو عبارة عن بعض المعلومات، وهذا دليل على أن الباحثين لم يكونوا يهتمون بهذه الناحية من حياة عنتره وهذا نقص فادح، وسنحاول في هذا الفصل أن نجمع شتات ما تبعثر في هذه الكتب.

فعن طفولته لا نكاد نعرف الشيء الكثير سوى أنه كان راعيا للإبل مولعا بالرماية والحرب والفروسية، ((وقد ورد في روايته أن أخوته قالوا له: أذهب فارح الإبل والغنم واحلب الصر فانطلق يرعى ويبيع منها ذودا واشترى بثمنه سيفاً ورمحاً وترساً ودرعاً ومغفراً ودفنها في الرمل وكان له مهر يسقيه ألبان الإبل))². وفي رواية أخرى ((قال له أبوه: كريا عنتره. فقال عنتره: العبد لا يحسن الكر وإنما يحسن الحلاب والصر. فقال: كر و أنت حر. فكر وهو يقول:

أَنَا الْهَجِينُ عَنْتَرَةَ كُلُّ امْرِئٍ يَحْمِي حِرَّهُ
أَسْوَدَهُ وَأَحْمَرَهُ وَالشَّعْرَاتِ الْمُشْعَرَهُ
الْوَارِدَاتِ مِشْفَرَهُ³

وكان أبوه شديدا معه، يعامله معاملة قاسية، ولم يكن يحجم عن ضربه ضربا مبرحا حتى شفعت به " سمية " - زوجة أبيه - بعد أن شكته إليه فقال فيها شعرا:

أَمِنْ سُمِيَّةٍ دَمَعُ الْعَيْنِ تَذْرِيفُ لَوْ أَنَّ مِنْكَ قَبْلَ الْيَوْمِ مَعْرُوفُ
كَأَنَّهَا يَوْمَ صَدَّتْ مَا تُكَلِّمُنِي ظَبِيٌّ بَغْسَفَانِ سَاجِي الطَّرْفِ مَطْرُوفُ⁴

فإذا اعتبرنا أن كل هذه الأخبار صحيحة فيمكن القول أن عنتره ((قد تألم في طفولته واحتمل الأذى في شبابه وأي أذى))⁵. وقد اكتفى طه حسين بذكر هذه المعلومة وسكت عن بقية التفاصيل. ورغم هذا الاختصار فجملته تنم عن المعاناة التي عاشها عنتره، وقد لقب أيضا بـ "عنتره الفلحاء" لشق في شفته السفلى، على أن المستشرق بروكلمان يشك في صحة هذا اللقب لأنه يعده ((مدعاة لاحتقار لم يكن

1 - الديوان، ص: 198.

2 - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ج 5، ص: 386.

3 - الأصفهاني، الأغاني، م 8، ص: 137.

4 - الديوان، ص: 53.

5 - طه حسين، حديث الأربعاء، دار المعارف، ج 1، ص: 149.

عنترة ليرضاه))¹. وفي رواية أخرى نجد أن ((عنترة أغار مرة مع العبسيين على بني طي، وأصابوا نعماء فلما أرادوا القسمة قالوا لعنترة: لا نقسم لك نصيبا مثل أنصابنا، لأنك عبد فغضب عنترة واعتزلهم))². وهكذا يتضح الوضع المأساوي ويتأكد، فمنذ نعومة أظفاره وعنترة يواجه صعوبات الحياة المختلفة، وهذه المواجهة لم تزده إلا عزيمة وتحديا وعنادا، فنشأ يناضل من أجل الحرية والمساواة، وليس له من مناص للتخلص من هذه العبودية؛ لأنه بقي طويلا عرضة لتهكم الكثيرين من أبناء قبيلته، ولحسد أبطالها وشعرائها وأعيانها، من ذلك ((ما قاله قيس بن زهير بعد أن هرب العبسيون أمام بني تميم فدافع عنترة عن قومه، فما كان من قيس إلا أن قال: والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء))³ وفي ذلك تحقير و أي تحقير!!

أما الحديث عن أخلاقه فليس أمرا هينا، فكتب التراجم هي أيضا لم تمدنا بالمعلومات الكافية، وما نجده مبنوثا فيها لا يكاد يخرج عما ذكره عنترة في شعره ماعدا بعض الروايات التي يشتهب فيها الصحيح بالموضوع.

انه من المنتظر أن يكون رد عنترة عنيفا على سلوك مجتمعه الذي احتقره وصغر من شأنه، وحرمه طويلا من النسب ووقف حاجزا بينه وبين عشيقته عبلة لكن هذا الرد كان على عكس مما كنا نتصور، حيث جمع عنترة من الصفات ما جعله مثلا في حسن الخلق وسهولة المعاشرة وطيبة السمائل، فلاشك أن كل ذلك الحرمان الذي عاشه كان له تأثيرا بليغ في شخصيته فقد أصبح له إحساس رقيق مرهف وطبع لين وسلوك متزن، فهذا هو "جرجي زيدان" يذكر أن عنترة ((كان صاحب أنفة وشرف، يأبى الضيم ويغار على العرض، إذا قال فعل، وإذا وعد وفى، وإذا اضطر إلى رهن قوسه، ولا قيمة للقوس بنفسها، ولكنها عندهم شرف الرجل فهو قائم بما رهنها له مهما كلفه))⁴. وقد لخص طه حسين أهم ما يتحلى به عنترة قائلا: ((هو حلو النفس رقيق القلب قوي العاطفة، جاءه ذلك من أنه عز بعد ذلة، وتحرر بعد رق. في عنترة معنى الرجولة العربية الكاملة فهو رقيق دون أن تنتهي الرقة به إلى الضعف، وهو شديد دون أن تنتهي الشدة به إلى العنف، وهو مقدم إذا كانت الحرب وهو عفيف إذا انقسمت الغنائم))⁵. وهو القائل:

وَأَرَى مَعَانِمَ لَوْ أَشَاءَ حَوِيَّتْهَا فَيَصْدُنِي عَنْهَا كَثِيرٌ تَحْشَمِي⁶

1 - تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، ط5، ص: 201.

2 - الأصفهاني، الأغاني، م. 8، ص: 137.

3 - البستاني بطرس، أدباء العرب في الجاهلية والإسلام، ص: 171.

4 - تاريخ آداب اللغة العربية، ج 1، ص: 95.

5 - حديث الأربعة، ج 1، ص: 149.

6 - الديوان، ص: 207.

أما بطرس البستاني فقد ذكر أن ((عنتره أشد أهل زمانه وأجرؤهم فؤادا وأسخاهم يدا، وهو مع ذلك حليم الطبع سمح المخالفة إذا لم يظلم.))¹. فهو القائل أيضا:

وَالْحِلْمُ أَوْقَاتٌ وَلِلْجَهْلِ مِثْلَهَا وَلَكِنْ أَوْقَاتِي إِلَى الْحِلْمِ أَقْرَبُ².

إن كل هذه الشرائع جعلته رمزا للفارس العربي، ((حتى قال فيه النبي (ص): <<ما وصف لي أعربي قط فأحببت أن أراه إلا عنتره>>))³.

ويبقى الربط وثيقا بين أخلاقه وشجاعته، فشجاعة عنتره أكثر من أن توصف فقد ((روي عن الهيثم بن عدي قال: قيل لعنتره: أنت أشجع العرب و أشدها قال: لا. قيل: فبماذا شاع لك هذا في الناس؟ قال: كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزما، وأحجم إذا رأيت الأحجام جزما، ولا أدخل إلا موضعا أرى لي منه مخرجا))⁴، وروي أيضا عن عمر بن معد بن يكر بن وكان معاصرا له حيث ((قال: لو سرت بظغينة وحدي على مياه معد كلها ما خفت أن أغلب عليها ما لم يلتقي حراها وعبدها، فأما الحران فعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب، أما العبدان فأسود بن عبيس (يعني عنتره) والسليك بن السلكة))⁵.

أما موت عنتره فيختلف المؤرخون فيه أيضا، ولكن اختلافهم فيه ليس شديدا كاختلافهم في مولده، والشيء الذي لا يثير الشك أن عنتره عمر طويلا غير أنهم لم يتفقوا على كيفية موته ولا سببه، فجلهم يرى أنه لم يموت مقتولا، وقد اتفق ابن قتيبة والأصفهاني على أنه كبير وعجز وأنه ((بينما كان في طريق هاجت رائحة من سيف وهبت نافحة وهو بين شرح وناظرة فأصابته الشيخ فهرأته، فوجدوه ميتا بينهما))⁶. ويقتصر ابن قتيبة على هذه الرواية. أما الأصفهاني فيذكر روايات أخرى مفادها أن عنتره قتله رجل يلقب بـ"الأسد الرهيص"، ويورد روايتين في كيفية قتله:

أولهما: أن ((عنتره أغار على بني نهان من طيء فطرد لهم طريدة وهو شيخ كبير وكان زر بن جابر النبھاني في فتوة فرماه وقال: خذها وأنا ابن سلمى. فقطع مطاه فتحامل بالرماية حتى أهله فمات))⁷.

أما الرواية الأخرى: فهي ((أن عنتره غزا طيباً مع قومه فانهزمت عبس، ولم يقدر من الكبر أن يعود فركب فدخل دغلا وأبصره ربيبة طيء، فنزل إليه وهاب أن يأخذه أسيرا فرماه وقتله))¹.

³ - أدباء العرب في الجاهلية والإسلام، ص: 163.

² - الديوان، ص: 94.

³ - أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، م 8، ص: 240.

⁴ - المرجع نفسه، ص: 242.

⁵ - بطرس البستاني، أدباء العرب في الجاهلية والإسلام، ص: 163.

¹ - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج 1، ص: 173.

² - الأصفهاني، الأغاني، م 8، ص: 242.

غير أن هذين المصدرين لم يذكرنا تاريخ موته، ويجب أن نترقب "الزركلي" لنراه يذكر في أعلامه أن عنتره ((توفي سنة 600 م))². أما بطرس البستاني فيكتفي بالقول بأن ((عنتره مات في العقد الأول من القرن السابع وعمره تسعون سنة))³.

وهكذا تنتهي حياة عنتره كانسان وتبقى كشاعر تتدارسه الأجيال وما تزال ذكره بوصفه أشهر أبطال العرب- باقية إلى اليوم في قصته المعروفة "بسيرة عنتره بن شداد".

ب - عنتره الفارس:

انه لمن المعروف، أن القبائل الجاهلية تعتمد في حياتها على الغارة والغزو، وانه لمن المعروف أيضا أن أيام العرب كانت مملوءة بالحروب، ولهذا كانت كل قبيلة تقدم الولايم وتقيم الأفراح كلما نبغ فيها فارس يجمع بين ركوب الخيل والقدرة على حمل السلاح والبلاء في المعركة، فكان اعتناؤهم بتربية الخيل كبيرا حتى أصبح هذا فنا يمكن الفارس من ترويض فرسه واستعماله استعمالا جيدا سواء أكان ذلك في الكر أم في الفر.

وقد اقتضى النظام القبلي العربي أن يكون للفارس فرس تتوفر فيه شروط أساسية، ليكون صاحبه مستعدا دائما للتعدي أو لدفع التعدي، فكانت الفروسية بذلك قوام حياة العرب الجاهليين، وقد تجاوز معناها مفهومها اللغوي الضيق، ليشمل الأخلاق العالية والقيم الأصيلة.

فقد ورد في لسان العرب في مادة (ف ر س) ما يلي: ((فرس فلان يفرس فروسة وفراسة إذا حذق أمر الخيل، وهو يتفرس إذا كان يري الناس أنه فارس على الخيل. ويقال رجل فارس: بين الفروسة والفراسة في الخيل، أو هو الثبات عليها والحذق بأمرها.))⁴.

والفارس هو صاحب الفرس على أرادة النسب، والجمع فرسان وفوارس ويقول نوري حمدي القيسي: ((الفروسية مظهر من مظاهر الحياة، نشأ نتيجة عوامل اجتماعية وأخلاقية، وقد ساعدت على تطوره خطوة عربية سليمة وجدت في المثل السامية قيمها الحقيقية وهدفها الذي تسعى إليه، وكانت الطابع المميز للحياة الجاهلية والسمة الغالبة على طبائع العرب))⁵. وقد حمل لواء هذه الظاهرة فرسان كثيرون كانوا مثالا البطولة والتضحية والكرم، وأشهر هؤلاء هو الملقب بأبي الفوارس عنتره

1 - المرجع نفسه، ص: 242.

2 - الأعلام، ط 3، ج 5، ص: 272.

3 - أدباء العرب في الجاهلية والإسلام، ص: 162.

4 - ابن منظور، لسان العرب المحيط، م 2، مادة: ف ر س، ص: 1072.

5 - الفروسية في الشعر الجاهلي، مكتبة النهضة، بغداد، 1964، ص: 25.

بن شداد الذي نازل أبطالاً بواسل وفرسان كواسر، وهو الذي خاض حرب "داحس والغبراء" وأبلى فيها البلاء الحسن. ويقول عنتر عن نفسه:

أَنَا عَنْتَرُ وَاسْمِي شَاعَ جَهْرًا أَبُو الْفَوَارِسِ مَنْ حَازَ الْمَعَالِي¹
وَأَنَا عَنْتَرُ الْفَوَارِسِ حَقًّا وَمُيَيْدٌ لِلْأَبْطَالِ عَبْدًا وَحُرًّا²

ولم يكن عنتره لينال ذلك اللقب لولا ما تميز به من صفات جعلته يتفوق على باقي فرسان العرب المعروفين زمن الجاهلية، ولولا تلك الظروف القاسية الشديدة التي عاشها فالصحراء أكسبته القوة والصبر والشجاعة، والحرب أكسبته البطولة والفروسية، ووضعها الاجتماعي المتردي في قبيلته أكسبه الإقدام والتحدي والتضحية والعناد، فظل أمام كل هذا صامدا ثابتا ((يستمد من نسب أمه الذي يطعن القوة والجلد والاندفاع لإثبات علو نسبه و أصالة فروسيته، ويستمد من نسب أبيه المذكور الذي ظل يبحث عنه نشوة النصر والاستهانة بالموت والإصرار على دحض الضيم والإذلال))³.

وإذا عدنا إلى الديوان استطعنا أن ندرك المفهوم المتداول لمعنى الفروسية في العصر الجاهلي كما صورته أشعار عنتره، فهي البطولة في الحرب، والبلاء في المعركة، فهو القائل:

وَمَنْ لَمْ يُرَوْ رُمْحَهُ مِنْ دَمِ الْعِدَا إِذَا اشْتَبَكَتْ سُمْرُ الْقَنَا بِالْقَوَاضِبِ
وَيُعْطِي الْقَنَا الْخِطِيَّ فِي الْحَرْبِ حَقَّهُ وَيَبْرِي بِحَدِّ السِّيفِ عُرْضَ الْمَنَاقِبِ
عَيْشٌ كَمَا عَاشَ الدَّلِيلُ بِعُصَّةٍ وَإِنْ مَاتَ لَا يُجْرِي دُمُوعَ النُّوَادِبِ⁴

وهي أيضا الكرم والعفة عند توزيع الغنائم وإطعام الضيف وحماية الجار والذود عن المرأة وتلبية دعوة المستغيث. يقول عنتره :

مَا اسْتَمْتُ أَنْتَى نَفْسَهَا فِي مَوْطِنِ حَتَّى أَوْفِي مَهْرَهَا مَوْلَاهَا
أَغْشَى فَنَاءَ الْحَيِّ عِنْدَ حَلِيلِهَا وَإِذَا غَزَا فِي الْجَيْشِ لَا أَعْشَاهَا
وَأَغْضُ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَأْوَاهَا⁵

وهكذا يتضح أن الفروسية تمثل جانبيين من جوانب الحياة الجاهلية: جانب الحرب وجانب المثل العليا، لأنهما بناء واحد و روح واحدة، فشخصية الفارس تملئ عليه أن يكون إنسانا ساميا في مثله إلي جانب بطولته وأخلاقه، وهي الأخلاق التي

1 - الديوان، ص: 25.

2 - الديوان، ص: 21.

1 - حمودي القيسي نوري، الفروسية في الشعر الجاهلي، ص: 27.

2 - الديوان، ص: 22، 23.

5 - الديوان، ص: 239.

يتصف بها العرب جميعا. ولأجل ذلك كله كان عنتره محبا للحرب، يكثر من خوض المعارك التي يخرج منها غالبا منتصرا، وربما لم يخض عنتره كل هذه المعارك إنما عاش بعضها واختلق بعضها الآخر لتغطية مركب النقص الذي يشعر به، والتعويض عن عدم قبول الجماعة له، ولهذا تطغى على شعره النزعة الفردية والذاتية الموغلة في النرجسية، فهو إذا أراد أن ينوه ببطولته يصف منازل به بأنهم كماة مدججون بالسلاح ذوو تجربة كبيرة... الخ، وعندما ينتهي من الإشادة بصفاتهم يعود ليقول أنه انتصر عليهم بسهولة. فهو القائل:

وَمُدَجَّجَ كَرَهُ الْكُمَاهُ نَزَالَهُ لَا مُمَعِنَ هَرَبًا وَلَا مُسْتَسَلِمَ
جَادَتْ لَهُ يَدَايَ بَعَاجِلِ طَعْنَةٍ بِمُتَّقَفٍ صَدَقَ الْكُغُوبِ مَقُومٍ¹

فحين يحاول عنتره أن يبين بطولة الفارس المقتول لا يفعل ذلك مدحا لهذا الخصم بل ليسبغ ويخلع هذه الصفات على ذاته من جهة، وليستشرف فوق هذه الصفات من جهة ثانية، بحيث يوحي لنا أن من يقتل رجلا له مثل هذه الفروسية إنما يتمتع بفروسية تفوقها ((ومن خلال ذلك ترسم الصورة الفريدة لعنتره التي تميزه عن كل الفرسان))².

ومهما يكن من أمر، فالمعروف عن عنتره أنه بطل مغوار لا يخاف الموت، لكنه يؤمن بحتميته كسائر الشعراء الجاهليين فهو القائل :

فَالْمَوْتُ لَا يُنْجِيكَ مِنْ أَقَاتِهِ حِصْنٌ وَلَوْ شَيْدَتْهُ بِالْجَنْدَلِ³
ثم يصل به الأمر أحيانا إلى أن يتحدى الموت كما في قوله:
وَلَوْ أَنَّ لِلْمَوْتِ شَخْصًا يَرَى لَرَوَعْنُهُ وَلَا كَثُرَتْ رُعْبَهُ⁴

وكأن الصدف شاءت أن تجعل عنتره رغم المحن التي عاشها والحروب التي خاضها يعيش طويلا وقد حنكته نوائب الدهر وجعلت منه أنسانا صاحب أنفة وشرف إذا قال فعل و إذا وعد وفى.

ج - عنتره الشاعر:

الحقيقة انه لا يمكننا الحديث عن عنتره فارسا دون الحديث عنه شاعرا، لأنه لم يكن فارس القبيلة فحسب بل كان شاعرها أيضا، وقد كانت القبائل قبل الإسلام تهتم بإعداد الشعراء ((لأنهم حماة الأعراض وحفظة الآثار ونقلة الأخبار))⁵، ولذا كانوا إذا نبغ فيهم شاعر أنت القبائل الأخرى فهنأتها، وكانوا لا يقبلون أن يكون لهم أبطال

1 - سيف الدين الكاتب و أحمد عصام الكاتب، شرح ديوان عنتره، دار مكتبة الهلال، ص: 191.

2 - نوري حمودي القيسي، الفروسية في الشعر الجاهلي، ص: 289.

3 - الديوان، ص: 197.

4 - الديوان، ص: 90.

5 - زيدان جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، ج 1، ص: 96.

من غير أن يكونوا شعراء، لأنهم على الأجمال أهل حافظة إذا أعجبهم البيت حفظوه وتناقلوه لأجيال عديدة، ولأنهم يدركون أيضا أن الشعر ضرورة مكملة للبطولة، وقد قيل أن أشهر الشعراء أربعة هم: زهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، وعترة إذا غضب.

والواقع انه لا أحد ينفي منزلة عنترة الشعرية؛ فالشعر عنده سلاح يستعمله للتفوق والنبوغ على من يناظره من الشعراء العرب، وهو منفذ يسلكه للهروب من الألم والشعور بالدونية، كما يسخره أيضا لخدمة فخره بنفسه واعتزازه بخصاله وبمواقفه البطولية، وعن طريقه يعيش أحلامه ويحقق أمنياته، ويضع مجده ويجذب الأنظار إليه.

نعم لقد عرفنا عنترة بن شداد فارسا مغوارا شجاعا جريء الفؤاد، طموحا إلى المعالي، و عرفناه كريما حلوما عفيفا وشريف النفس، فلا غرو أن تظهر جميع هذه الصفات في شعره ويكون لها أثر كبير فيه . يقول عنترة :

وَمَا الْفَخْرُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ عَمَامَتِي مُكْوَرَةَ الْأَطْرَافِ بِالصَّارِمِ النَّهْدِي¹
ويقول في بيت آخر :

وَفِي الْعَزْوِ أَلْقَى أَرْغَدَ الْعَيْشِ لُدَّةً وَفِي الْمَجْدِ لَا فِي مَشْرَبٍ وَطَعَامِ²

والملاحظ أن شعره يزخر بمناقب كثيرة قد يكون عنترة أختلق بعضها، لأنه يرى في ذلك ملجأ ينسبه واقعه المرير، وعندما نقرأ هذا الشعر نستشعر بتلك القوة والحياة. ونستشعر أيضا أن وراء هذا الشعر شخصية بارزة قوية، لا يستطيع من يلمحها أن يزعم أنها متكلفة أو منحولة أو مصنوعة أو مستعارة، هذه الشخصية تمثل رجلا صادقا في مشاعره وصادقا في حبه وصادقا في دفاعه عن الحرية، وفي ثورته ضد العبودية، ومن الطبيعي أن يكون هذا الفارس الشاعر من بين أصحاب المعلقة المعروفة.

أما شعره، فنستطيع أن نقسمه إلى قسمين كبيرين: أحدهما يتصل بعبلة، والقسم الآخر: يتناول وصف معاركه وحروبته، أو بعبارة أخرى قسم غزلي يذكر فيه حبه لابنة عمه وعتابه لها وما يتصل بذلك من وصف لها، وقسم فخري ينوه فيه ببطولته وشجاعته وأخلاقه وبطشه بخصومه وأعدائه.

وخلاصة رأينا في عنترة أنه شاعر استطاع أن يتصرف في فنون من الشعر أتى أكثرها جيدا ممتعا ولذيذا.

د - عنترة العاشق:

¹ - الديوان، ص: 129.
² - الديوان، ص: 218.

لا يعقل أن يكون عنتره فارسا كبيرا من جهة وشاعرا فذا من جهة أخرى أن لا يكون محبا عاشقا، وهل سمعنا عن شاعر جاهلي لم يتعلق بامرأة حتى وان كانت من نسج خياله، وهذا كلام يقودنا إلى الحديث عن عنتره العاشق.

فالحب عاطفة إنسانية ذات طبيعة خاصة بكل فرد، تتقدح شرارتها بالتقاء نظرات الذكر بالأنثى، ويبدو أن العربي في العصر الذي سبق الإسلام تلقائي في علاقته بالمرأة. يحترم الأعراف القبلية ولكنه ينساق أيضا وراء اللذة، ويستجيب للصبوة كلما سنحت الفرصة، والشعراء المحبون في ذلك المجتمع كثيرون وقصص الحب عنهم كثيرة ومتنوعة يشتهب فيها الصحيح بالموضوع، ولا نكاد نذكر أسم شاعر دون أن نذكر أسم حبيبته، وقد لعب الخيال دورا كبيرا في تضخيم هذه القصص التي زخر بها الأدب العربي القديم.

وإذا اعتبرنا أن الشعر ديوان العرب وسجل أخبارهم اتضح لنا أن هذا الشعر غزلي في أساسه، وقد أتى مليئا بمغامرات العشاق الهائمين، وكانت الوقفة الطللية في القصيدة العربية تعبيرا عن تلك العلاقة بين الرجل والمرأة، وقد عرف العصر الجاهلي الحب في جميع مستوياته الحسية والعذرية والطبيعية الشاذة، حتى كاد الحب في هذه القصائد يصبح مصدر الهام الشعراء وإبداعاتهم.

وفي الطرف المقابل كان تقبل المستمعين لهذه القصائد عظيما والتنافس من أجل حفظها وروايتها كبيرا؛ لأن هناك دافعا غريزيا قويا يشد الإنسان إلى سماع هذه القصص والتأثر بها، لأن الحب استعداد متأصل في النفس، وأن التعاطف بين الذكر والأنثى أمر تمليه الفطرة والغريزة الإنسانية، والشعراء هم الذين انتقلوا بهذه من مستوى الظاهرة السلوكية إلى مستوى الظاهرة الفنية، وهذا لا يعني أن الشاعر قد عاش حقا تلك التجربة عندما يتحدث عن محبوبته، فخياله وحده يستطيع أن يقوده إلى السباحة في عالم يطمح ويصبو إليه ليروي جفاف مشاعره في تلك البيئة القاحلة وينسى قساوة الصحراء ولفح الهاجرة ومرارة الفراغ، ولهذا كله احتلت المرأة في شعر عنتره مكانة هامة ومميزة، وهي قطب الرحي التي تدور حوله كل معاني شعره.

وإذا كان الحديث عن عنتره الفارس قد شغل الناس وملا كتب تاريخ الأدب العربي، فإن فروسيته ظلت دائما مقترنة بحبه لعبله ابنة عمه التي احتلت جانبا كبيرا من جوانب حياته، حتى لا نكاد نقول أن عبله هي السبب المباشر في بروز عنتره وفي شهرته. ولعل ما غرسته فيه الفروسية من شهامة ومروءة وتقان وإخلاص كان له الأثر البالغ في تكوين شخصيته وفي تغذية عاطفته النبيلة وإيقاظ صفات الرجولة فيه فكان عنتره العاشق بدون منازع.

إن أكثر ما قاله عنتره من الشعر وما نسب إليه - أن لم نقل جله - يدور حول حبه لعبله واجتهاده في لفت نظرها إلى أخلاقه العالية وصفاته السامية التي تعوض - في نظره - سواد لون بشرته وشوائب نسبه، وكانت معشوقته من أجمل النساء وأعقلهن، فهو الذي وصفها قائلاً :

أَعْنُ مَلِيحُ الدَّلِّ أَحْوَرُ أَكْحَلُ أَرْجُ نَقِيَّ الخَدِّ أَبْلَجُ أَدْعَجُ¹

هذا الجمال السحري في نظر عنتره هو الذي أهاج شاعريته وجعله يهيم بها حتى اشتد وجدده، وفي هذا الإطار تجدر الإشارة إلى أن وضع عنتره كما هو معلوم يختلف عن بقية الشعراء المحبين وإن كان شعره يمثل غزل الفرسان في أبلغ صورته وأسمى عواطفه، لكن عنتره الأسود ابن الأمة السوداء كان يشعر بالحرمان واللوعة ولم يجد منفذا يريحه أحسن من التعبير عن شغفه بعبله التي أصبحت مصدر إلهامه في المعارك ومصدر جميع آماله وطموحاته في لحظات الهدوء حين كان يلتمس العزاء في الخيال والذكريات.

فهو القائل :

وَأَرْجُو النَّدَانِيَّ مِنْكَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ وَدُونَ النَّدَانِيَّ نَارُ حَرْبٍ تَضْرَمُ²

لقد أحب عنتره عبله وخاض من أجلها أشد المعارك، وتحمل المظالم وسبب الأبطال وذاد عن قومه في سبيل إرضائها وطمعا في نيل مودتها، ومن أجلها طلب الحرية رغم الموانع التي اعترضت سبيله ورغم الشروط المجحفة التي حالت دونه ودون الظفر بها، وقد ارتقى بهذا الحب إلى أرقى درجات الفضيلة حتى أصبح يتسامى في خلقه وفي حبه:

وَلَقَدْ نَزَلَتْ فَلَا تَظْنِي غَيْرَهُ مِنْي بِمَنْزِلَةِ الْمُحِبِّ الْمُكْرَمِ³

وقد فرق عنتره بين الحب والجنس أو بين المحبة والاشتهاء، فقد ربط حبه دائما بالعفة والمروءة والتسامي بالغريزة، وهذا النفس قد يكون متسللا من التصور العذري الذي ظهر متأخرا في بني عذرة، ولا نظن بأية حال أن العفة من هذا النوع كانت وقفا على أولئك القوم دون غيرهم، ولا يجب أيضا بأية حال تخصيص العفة بعصر أو قبيلة أو بشاعر معينين ((فليس من الغريب أن نجد أسس العذرية أو الحب العفيف موجودا في العصر الجاهلي))⁴، ويمثل جذوره عنتره بن شداد الذي جاء غزله العفيف تعبيراً عن المثل الأعلى للحب الأفلاطوني. ويبدو أن الحبيبة عبله

¹ - الديوان، ص: 110.

² - الديوان، ص: 208.

³ - الديوان، ص: 16.

⁴ - محمد حسن عبد الله، الحب في التراث العربي، عالم الفكر، عدد 36، محرم، صفر 1401هـ / ديسمبر 1980، ص: 111.

لا تبادله هذا الحب فهي كثيرا ما تخضع لأوامر أبيها - مالك - ونواميس القبيلة وعاداتها، فتضطر حينئذ أن تغدق دونه الفئاع وأن تتجافاه غاضبة حانقة محتقرة للون بشرته. يقول عنتره :

لَعَلَّ عَبْلَةَ تُضْحِي وَهِيَ رَاضِيَةٌ عَلَى سَوَادِي وَتَمْحُو صُورَةَ الْغَضَبِ¹

وهذا الموقف الراض لم يزد عنتره إلا هياما بها وتعلقا بمفاتها لأن الحب ضالته التي ينشدها، وهو إذ ينشد ضالته هذه فلأنها وحدها كفيلة بإرواء ضمئه الشديد وفي ذلك تعزية لنفسه وحمل لها على السلوان وتعويض عما حرمه الواقع منه، فحبه لعبلة بهذه الصفة كان حبا مثاليا سار مسير المثل رغم ما بينهما من اختلاف في اللون والمزاج والمنزلة الاجتماعية.

والمرأة في حياة عنتره لا تمثلها عبلة فحسب بل كان موقف الشاعر منها موقف المدافع والحامي لعرضها والذائد عنها في كل الأوقات. فهو القائل :

وَأَحْضَنْتُ النِّسَاءَ بِحَدِّ سَيْفِي وَأَعْدَائِي لِعُظْمِ الْخَوْفِ قُلُوبًا²

وقد كان يحترمها احتراما كبيرا إلى حد أنه يتصرف إزاءها بكل عفة وتخلق.

بقي أمر غريب لم نجد له أثر في شعره وكثيرا ما يكون موضوع تساؤل لدى أكثر المولعين بعنتره، هذا الأمر يتعلق بزواج عنتره، هل تزوج من عبلة؟

ليس هنالك أية إشارة تثبت أو تنفي زواجه من عبلة أو من غيرها، وليس هناك أية إشارة أيضا تشير إلى أنه أنجب منها، وهذه النقطة تبقى هامة في نظرنا كحقيقة تاريخية حتى نتثبت في ما زعمه صاحب السيرة من أن عنتره تزوج.

غير أن شعره رغم كل ذلك فيه جوع عاطفي، وفعلا فإن نكران أبيه وحقد أبناء عمه عليه ووضعيه أمه الأمة ولونه الأسود كل هذه الأمور صبغت شعره بهذا الجوع الذي أدركته محاولاته الفاشلة مع عبلة، ويحدثنا التاريخ عن الصعوبات التي لقيها عنتره في طريقه هذه الصعوبات التي ضاعفت مأساته وجعلته يشعر بالنقمة على مجتمعه الذي كان قاسيا معه. فهو القائل:

بَنَيْتُ لَهُمْ بِالسَّيْفِ مَجْدًا مُشِيدًا فَلَمَّا تَنَاهَى مَجْدُهُمْ هَدَمُوا مَجْدِي³

وَدَكَرَنِي قَوْمًا حَفِظْتُ عُهْدَهُمْ فَمَا عَرَفُوا قَدْرِي وَلَا حَفِظُوا عَهْدِي⁴

وكان لهذه المأساة تأثير كبير في نفسه وشعره الذي جمع بين الحماسة والرقعة وبين التحدي والخضوع، وبين الشجاعة والخوف.

1 - الديوان، ص: 102.

2 - الديوان، ص: 190.

3 - الديوان، ص: 129.

4 - الديوان، ص: 140.

ومهما يكن من أمر، فعنترة صورة للعشق بمعناه الفلسفي والروحي رغم أنه لم يظفر بحب من أحب، ومن هنا ارتبط معنى الحب بمعنى التفوق والسمود، ولم يعد غاية إنما أصبح وسيلة لتغطية الوضع المزري الذي يعيش فيه. وتطلعنا كتب التاريخ أن قبيلته وان اعترفت به وأحقته بنسبها فإنها لم تنس لونه ثم أن عبلة لا تريد لنفسها إلا سيد الفرسان لا لشيء سوى أن قبيلتها لا تريد لها عبدا أسود.

إن الذي يلفت الانتباه حقا أن الباحثين والمؤرخين لم يفرّدوا دراسات خاصة بعبلة أو بأخبارها بالرغم من وجودها المكثف في أغلب شعر عنترة، فكم نحن في حاجة إلى البحث في هذا الجانب الحيوي، وفي الحقيقة أن الدراسات العربية عن موضوع الحب بقيت محدودة جدا و كأن هذه المسألة ثانوية جدا رغم ما نعرفه من أن الحب عاطفة إنسانية تتحدد المسالك فيها بنظام المجتمع وقيمته الأخلاقية.

وإذا أردنا أن نقارب بين عنترة في التاريخ وعنترة في السيرة تبين لنا أن لا فائدة للتعرض لوجوه الاختلاف، لأن الشخصيتان تلتقيان عند نقاط كثيرة يمكن حصرها فيما يلي في إيجاز:

أولاً: أن عنترة عبد أسود ابن لأمة حبشية ولأب من أعيان بني عبس يدعى شداد.

ثانياً: أنه فارس القبيلة وشاعرها بدون منازع.

ثالثاً: أنه خاض حروبا ومعارك كثيرة أشهرها حرب داحس والغبراء التي ملأت أحداث التاريخ ولم تخص لها السيرة إلا بعض الصفحات.

رابعاً: أنه أحب ابنة عمه عبلة وقال فيها شعرا كثيرا فيه الصحيح وفيه المنحول وهو الأكثر.

خامساً: أنه مات بعد أن كبر، غير أن كيفية الموت هي التي اختلف فيها المؤرخون فيما بينهم إلا أنهم جميعا متفقون مع السيرة على أن القاتل هو الأسد الرهيص.

هذه إذن باختصار نقاط الاتفاق إلا أن السيرة قد تعرضت إلى تضخيم كبير جعل من شخصية عنترة تعرف تحولات كثيرة ومنعرجات عديدة إلى حد أصبح الخيال هو الطاغى عليها، ذلك أن الذاكرة الشعبية أبت إلا أن تجعل من عنترة ذلك البطل الذي جمع فأوعى. فالراوي يحدثنا عن عنترة وهو لا يزال جنينا، ويشوقنا إلى المؤهلات البدنية والذهنية التي سيكون عليها المولود، وما أن يولد الطفل حتى يفاجأ القارئ / المروي له بما يلمسه فيه من صفات مذهلة تخرجه من المألوف والعادي لتجعله كائنا عجيبا يصارع السباع والأبطال البواسل وهو لا يزال يافعا، ثم تواصل السيرة في تضخيم الأحداث فتجعل عنترة في ثمانية مجلدات كاملة لا يعرف الهزيمة

أبدا فيخوض معارك جبارة ويحضر وقائع شديدة لا يشك القارئ / المروي له في أن عنتره سينتصر في النهاية رغم عدم تكافؤ القوى.

أما عن زواجه فالأمر يختلف تماما عما ورد في كتب التراجم فقد أهمل جميع المؤرخين تقريبا مسألة زواج عنتره من عبلة، وليس هناك دليل في شعره ينص على أنه تزوج. إلا أن السيرة قد خصصت صفحات كثيرة تتحدث فيها عن الاستعداد الكبير لهذا الزواج وتصف الصعوبات التي اعترضت سبيل عنتره للحصول على عبلة، ثم تواصل السيرة في وصف الاحتفال فتشير إلى كثرة المدعوين وكلهم من الأعيان والأمراء، وتذكر جميع أسماء القبائل التي حضرت يوم الزفاف وقد أتت كلها محملة بالهدايا الثمينة.

أما موته فأسطورة أيضا من الأساطير، فقد أورد الأصفهاني ثلاث روايات. والغريب أن هذه الروايات الثلاث لم يأخذ بأي واحدة منها رواة السيرة فقد فضلوا أن يميئوا عنتره بسهم مسموم من أسهم خصمه اللدود الأسد الرهيص وكأنهم ((أرادوا أن يجعلوا من موته مجالا فسيحا للمجد البطولي والعظمة الحربية))¹.

وقد كان لموت عنتره الأثر الكبير في نفوس العرب والأعاجم فقد "ندبته النوادب وبكت الحبايب على الحبايب وتباكت عليه الأخلاء ورثته الشعراء" وقيل أن هذا العزاء بقي سنة كاملة، وكأن رواة السيرة أرادوا أن يحافظوا على هيبة بطلهم حتى بعد مماته.

هكذا يظهر عنتره في السيرة وهو في ذلك يختلف عن عنتره التاريخ، وقد يتبادر إلى الذهن أن هذه الأخبار صحيحة وأن هذه الأحداث حقيقية لأنها متصلة ببطل يرتفع فينا وبنا، وقد حمل في طياته سمات العظمة وجمع صفات تبلغ حد الكمال.

أملنا في نهاية هذا الفصل أننا اهتدينا إلى كيفية دراسة شخصية كلا من البطلين سيف بن ذي يزن وعنتره بن شداد، واستطعنا أن نلم بهما من مختلف الجوانب، حتى يتمكن القارئ من أن يطلع على جملة من الآراء التي ترينا اختلاف الباحثين والمؤرخين في النظر لحياة هذين البطلين الحافلة بالأحداث.

والواقع أن شخصيتي كل من سيف وعنتره التاريخية مازالتا في حاجة ماسة إلى مزيد من البحث الجاد، خاصة إذا علمنا أن هناك قلة فادحة في المصادر والمراجع التي تناولتهما بالدراسة والتحليل.

¹ - موسى سليمان، الأدب القصصي عند العرب، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، لبنان، 1956، ص: 111.

الخاتمة

وفي نهاية هذا البحث، يجدر الآن القيام برصد جميع النتائج التي توصلنا إليها. وهي:

1 - السيرة الشعبية هي - من حيث الشكل - قصة تحكمها مبادئ السرد القصصي وتحافظ على ثباتها - كوحدة دلالية - عبر فترة طويلة من الزمن، الزمن "الحالي" الخطي، الممتد من الماضي فالحاضر فالمستقبل، وهي مجهولة المؤلف ويمكن اعتبارها نتاج خيال شعبي غالباً، الإنسان هو بطلها الرئيسي، قد تتضمن السيرة معطيات دينية، ولكنها لا تؤلف بالأساس لتجيب على أسئلة "الأصول"، بل لتسرد وقائع سيرة شخص ما يكون بطل السيرة الأوحده، بالإضافة إلى أشخاص متعددين تتفاوت أهميتهم حسب قربهم من البطل. وهي تحتوي أساساً تاريخياً يقوى ويضعف حسب السيرة، وحسب الظرف الحضاري التي وجدت فيه، وهي قصة منزوعة القداسة بالضرورة. وتحتوي على مبالغات تبدأ من مقدرة البطل على قتل عشرة مقاتلين بضربة سيف واحدة مثل عنتره بن شداد لتصل إلى المشي على الماء بواسطة خاتم مطلسم كما في سيرة سيف بن ذي يزن، وهي قصة طويلة حجماً، وإلا تحولت إلى حكاية شعبية، كما أن السيرة الشعبية في الإطار الحضاري العربي تختلف عن أنواع أخرى من السير: كالسيرة الشخصية، السيرة النبوية، المناقب والتراجم وسير الأبطال والقادة المعاصرين.

2 - تنقسم أحداث سيرة سيف بن ذي يزن إلى البنيات المحورية التالية:

أ - البنية المحورية الأولى: مرحلة ما قبل ميلاد البطل.

ب - البنية المحورية الثانية: مرحلة ميلاد البطل وتعرفه على مهامه.

ج - البنية المحورية الثالثة: مرحلة تخلص سيف من أمه الشريرة وزواجه

الأول.

د - البنية المحورية الرابعة: مرحلة رحلة سيف لإعادة زوجته "منية النفوس".

هـ - البنية المحورية الخامسة: مرحلة رحلة "عيروض" لجلب بذلة بلقيس.

و - البنية المحورية السادسة: مرحلة تعمير مصر وجريان نهر النيل.

ز - البنية المحورية السابعة: مرحلة تتويج "عفاشة" ملكاً على الجان.

3 - تنقسم أحداث سيرة عنتره بن شداد إلى البنيات التالية:

أ - البنية المحورية الأولى: مرحلة التكوين والفروسية.

ب - البنية المحورية الثانية: المرحلة الأسطورية.

ج - البنية المحورية الثالثة: المرحلة الملحمية.

د - البنية المحورية الرابعة: نهاية عنترة بن شداد.

4 - تتنوع الشخصيات التي يبدعها خيال الراوي الشعبي تنوعا مثيرا من حيث البناء والرؤية للعالم، وكذا البعد العلائقي مع غيرها من الشخصيات الأخرى، التي تتقاسم معها نفس الفضاء (الزماني والمكاني)، وهي في اختلافها وتعددتها هذا تمنح النص الحكائي السيري دينامية متجددة باستمرار، ورغم هذا الاختلاف الحاصل فيما بينها فهي تلتقي في كونها شخصيات غير نمطية، شخصيات دينامية متحولة على الدوام.

5 - تنقسم بنية الشخصيات العامة في سيرتي سيف بن ذي يزن وعنترة بن شداد - سطحيا - إلى أربعة بنيات هي:

1 - الراوي.

2 - شخصيات تاريخية.

3 - شخصيات حكاية عادية.

4 - شخصيات حكاية غريبة.

6 - لا نستطيع بحال من الأحوال أن نضع بعض الشخصيات في سيرتي "سيف بن ذي يزن وعنترة بن شداد" ضمن إطار أو نوع محدد من البنيات السابقة الذكر، وذلك راجع إلى ذلك التداخل الكبير الحاصل فيما بينها، حيث أننا نجد بعض الشخصيات التاريخية محملة بعناصر واقعية من جهة وعناصر خيالية أو غريبة من جهة أخرى والعكس صحيح.

7 - تنقسم الشخصيات في السيرتين - محل الدراسة - إلى أحادية الجنس وممسوخة. نقصد بالشخصيات أحادية الجنس: كل الشخصيات التي تنتمي إلى جنس واحد محدد. وتحدد بنيات هذه الشخصيات وفق المقومات البنيوية التالية: الجنس، المعتقد، الثبات والتحول والعمر والخلود. أما الشخصيات الممسوخة: فنقصد بها كل الشخصيات التي تنتمي إلى جنسين مختلفين على الأقل، ويمكن لنا أن نقسم هذا النوع من الشخصيات إلى قسمين أساسيين، الأول: شخصيات ممسوخة فطريا، والآخر: شخصيات ممسوخة صناعيا. فالشخصيات الممسوخة فطريا: هي كل الشخصيات المركبة من جنسين مختلفين على الأقل بدون تدخل أي طرف من الأطراف في هذا التركيب، أما الشخصيات الممسوخة صناعيا: هي كل الشخصيات المركبة من جنسين مختلفين على الأقل الناتجة عن تدخل أحد الأطراف في تكوينها بهذه الصورة كالحكماء والسحرة... الخ. وتحدد بنيات هذه الشخصيات وفق المقومات البنيوية التالية: التوجيه، نتائج الأفعال، نمط الحياة والأدوار.

8 - شخصيات السيرة الشعبية عامة، وشخصيات سيرتي "سيف و عنتره" خاصة متداخلة ومتفاعلة فيما بينها أيما تفاعل، بحيث يصعب علينا أن نحددها في إطار أو بنيات واحدة محددة، وهذا يعني أن هناك مجموعة من العلاقات المستمرة تربط فيما بينها، نستطيع أن نقسمها إلى نوعين: أفقية وعمودية، فالأفقية تتجسد من خلال تلك العلاقات التي تربط بين بنيات الشخصيات أحادية الجنس والشخصيات الممسوخة، وفيها نجد علاقة التبعية: التي تتجلى من خلال علاقتي السلطة والملكية. وكذا علاقة القرابة: التي تتجلى هي أيضا من خلال علاقتي القرابة العائلية ووحدة المعتقد، أما العمودية فإنها تتحقق ضمن كل بنية صغرى (ترايبية / نارية، طبيعية / صناعية). فالعلاقات الأفقية: تتجلى من خلال الصراع المبدئي الذي يكون إما داخلي أو خارجي بحسب السيرة، أو من خلال الصراع المساعد الذي يظهر ويؤجج الصراع المبدئي.

9 - يرتبط الفعل المركزي في سيرتي سيف بن ذي يزن و عنتره بن شداد بميلاد الفاعل المركزي فيهما.

10 - تتجلى مقومات وموجهات الفاعل المركزي في السيرتين - محل الدراسة - فيما يلي:

أ - الميلاد غير المرغوب فيه.

ب - الولادة غير الطبيعية.

ج - الاستقلال الذاتي التخالفي.

د - اليتيم المبكر بنوعيه: المعنوي والحقيقي.

هـ - الجاذبية.

و - المثالية.

ز - الكفاءة التخالفية.

ح - امتلاكه علامات عضوية مميزة.

11 - يتصل الفواعل الأساسيون اتصالا وثيقا ومباشرا بشخصية الفاعل المركزي في كلتا السيرتين - محل الدراسة -، حتى أنه يمكننا القول أن جميع أفعالهم تدور في فلكه. ذلك أنهم يلازمونه باستمرار من بداية السيرتين إلى غاية نهايتهما في جميع الأفعال التي يضطلع بتأديتها من جهة، كما أنهم يؤثرون فيه من جهة أخرى للقيام بها. وهذا ما يجعل الأحداث تتشعب على طول المتن الحكائي السيري.

12 - ويمكننا إدراج الفواعل الأساسيين في السيرتين -محل الدراسة - ضمن مجموعتين رئيسيتين، وذلك وفق طبيعة ردود أفعالهم ومواقعهم من الفاعل المركزي

أو تعارض وجهات نظرهم معه، الأولى: مجموعة الفاعل الأساسي المساعد.
والأخرى: مجموعة الفاعل الأساسي المعارض.

13 - يمكن لنا تحديد مقومات وموجهات الفاعل الأساسي المساعد من خلال ما يلي:

أ - التآخي (طبيعي / من الرضاة / الدين) بين الفاعل الأساسي المساعد والفاعل المركزي.

ب - السرعة الفائقة.

ج - الذكاء والقدرة على اصطناع الحيل من أجل غايات خيرة.

14 - يحتل الفاعل الأساسي المعارض المكانة الأبرز والأهم في السيرتين، وهذا راجع إلى تلك الأدوار التي يضطلع بالقيام بها على طول المتن الحكائي، إذ أنه يعتبر "المولد" الحقيقي لجميع الأفعال التي يقوم بها الفاعل المركزي وكذا الفاعل الأساسي المساعد، وتصبح هذه الأفعال مجرد ردود ناتجة عن الفعل الذي يقوم به الفاعل الأساسي المعارض.

15 - ومن خلال دراستنا للفواعل الأساسيين المعارضين في سيرة "سيف بن ذي يزن" و"عنترة بن شداد"، وجدنا أنه بإمكاننا إدراجهم ضمن ثلاثة مجموعات أساسية وذلك بحسب انتمائهم وأفعالهم هي: خارجيون، داخليون، وثانويون.

16 - تتحدد مقومات الفاعل الأساسي المعارض من خلال المقومات والموجهات التالية:

أ - المكانة المرموقة وأسبقية الظهور.

ب - الكفر والشرك.

ج - الانتحال وعدم الثبات.

د - الخوف من الموت.

هـ - الفطنة والذكاء الحادين، واستخدامهما من أجل غايات شريرة.

17 - موضوع التبابعة وأخبار العرب بشكل عام، هي أحد المواضيع المفضلة لرواية "الأخبار"، سواء كانت هذه الأخبار صحيحة تاريخياً أم هي مجرد أدب محض يعتمد على الخيال. وبغض النظر عن صاحب المصلحة في ترديد هذه الأخبار لفترات زمنية طويلة وترسيخها ضمن "الإطار الحضاري الإسلامي المدون"، فإن هذه الأخبار والقصص أفرزت شيئاً فشيئاً سيرة شعبية متكاملة تروى عن شخص يحمل اسم "سيف بن ذي يزن". ولا توجد لهذه السيرة جذور تاريخية أصلية وعميقة تسبق الإسلام، بقدر ما يمكن اعتبارها سيرة "إسلامية" كتبت على

مراحل وتداخلت فيها عناصر أسطورية متعددة حضاريا وجغرافيا تصدر في أغلبها عن مصادر تغلب الأسطورة على التاريخ.

18 - في العالم 525 ميلادي قامت مملكة أكسوم " الحبشة، أثيوبيا اليوم" بغزو جنوب الجزيرة العربية. إثر ذلك، قامت عدة ثورات ضد المحتل الحبشي كانت أبرزها ثورة "زيد بن كبشة" التي ذكرناها سابقا أنها عبارة عن تجمع قبلي يضم آل ذي يزين. ويبدو أن هذا التجمع قد لم شمل القبائل أو الأسر والأقوال والأنواء الذين يدينون باليهودية. فشلت كل هذه الثورات في الفترة الفاصلة بين عامي 572-575م، ثم تزعم اليزنيون تجمعا قبليا لطرد الأحباش من اليمن، و أرسلوا " أي اليزنيين " عدة رسل إلى عدة جهات طلبا للمساعدة.

نجح مبعوث التجمع القبلي إلى فارس في إقناع قادتها بالمساعدة. وتختلف المصادر التاريخية في تحديد شخصية هذا المبعوث، ولكن الثابت لدى الجميع أنه يزني، ولا بد أن يكون- وقفا للعرف السائد آنذاك- من أشرف آل ذي يزن، كما اختلف في تحديد اسم هذه الشخصية. واكتشفنا أن هنالك ثلاثة احتمالات لهذا الاسم: "شرحبيل"، أو "سيف بن النعمان بن عفير" كما طرحها الهمداني، أو "معد يكرب" كما عند الطبري وغيره فثبتنا اسم "سيف بن النعمان بن عفير اليزني".

وتم تتويج هذا المبعوث الذي أتى بالمساعدة الفارسية ملكا على اليمن. والثابت إذا أن هذا المبعوث حكم جنوب الجزيرة العربية، واختلف- مرة أخرى- في المدة التي قضاها في الحكم. والمدة التي قضاها في الحكم غير مهمة لنا في هذا الإطار ولكن المهم هو أن حاكم "اليمن" الجديد استقبل عدة وفود مهيئة، من ضمنها وفد قريش وفيهم "عبد المطلب بن هاشم" جد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، و"أمية بن عبد شمس" جد الأمويين بالشام والأندلس، و"خويلد بن أسد" والد "خديجة" أم المؤمنين... وآخرون.

19 - إذا أردنا أن نقارن بين شخصية عنتر بن شداد التاريخية والموجودة في السيرة فإننا نجد أنهما تلتقيان عند نقاط كثيرة يمكن حصرها فيما يلي في إيجاز:
أولا: أن عنتر عبد أسود ابن لأمة حبشية ولأب من أعيان بني عبس يدعى شداد.

ثانيا: أنه فارس القبيلة وشاعرها بدون منازع.

ثالثا: أنه خاض حروبا ومعارك كثيرة أشهرها حرب "داحس والغبراء" التي ملأت أحداث التاريخ ولم تخص لها السيرة إلا بعض الصفحات.

رابعا: أنه أحب ابنة عمه عبلة وقال فيها شعرا كثيرا فيه الصحيح وفيه المنحول وهو الأكثر.

خامسا: أنه مات بعد أن كبر، غير أن كيفية الموت هي التي اختلف فيها المؤرخون فيما بينهم إلا أنهم جميعا متفقون مع السيرة على أن القاتل هو "الأسد الرهيص".

هذه إذن باختصار نقاط الاتفاق إلا أن السيرة قد تعرضت إلى تضخيم كبير جعل من شخصية عنتره تعرف تحولات كثيرة ومنعرجات عديدة إلى حد أصبح الخيال هو الطاغى عليها، ذلك أن الذاكرة الشعبية أبت إلا أن تجعل من عنتره ذلك البطل الذي جمع فأوعى. فالراوي يحدثنا عن عنتره وهو لا يزال جنينا، ويشوقنا إلى المؤهلات البدنية والذهنية التي سيكون عليها المولود، وما أن يولد الطفل حتى يفاجأ القارئ / المروي له بما يلمسه فيه من صفات مذهلة تخرجه من المألوف والعادي لتجعله كائنا عجبيا يصارع السباع والأبطال البواسل وهو لا يزال يافعا، ثم تواصل السيرة في تضخيم الأحداث فتجعل عنتره في ثمانية مجلدات كاملة لا يعرف الهزيمة أبدا فيخوض معارك جبارة ويحضر وقائع شديدة لا يشك القارئ / المروي له في أن عنتره سينتصر في النهاية رغم عدم تكافؤ القوى.

أما عن زواجه فالأمر يختلف تماما عما ورد في كتب التراجم فقد أهمل جميع المؤرخين تقريبا مسألة زواج عنتره من عبلة، وليس هناك دليل في شعره ينص على أنه تزوج. إلا أن السيرة قد خصصت صفحات كثيرة تتحدث فيها عن الاستعداد الكبير لهذا الزواج وتصف الصعوبات التي اعترضت سبيل عنتره للحصول على عبلة، ثم تواصل السيرة في وصف الاحتفال فتشير إلى كثرة المدعوين وكلهم من الأعيان والأمراء، وتذكر جميع أسماء القبائل التي حضرت يوم الزفاف وقد أتت كلها محملة بالهدايا الثمينة.

أما موته فأسطورة أيضا من الأساطير، فقد أورد الأصفهاني ثلاث روايات. والغريب أن هذه الروايات الثلاث لم يأخذ بأي واحدة منها رواة السيرة فقد فضلوا أن يميئوا عنتره بسهم مسموم من أسهم خصمه اللدود الأسد الرهيص وكأنهم أرادوا أن يجعلوا من موته مجالا فسيحا للمجد البطولي والعظمة الحربية.

وقد كان لموت عنتره الأثر الكبير في نفوس العرب والأعاجم فقد "ندبته النوادب وبكت الحبايب على الحبايب وتباكت عليه الأخلاء ورثته الشعراء" وقيل أن هذا العزاء بقي سنة كاملة، وكان رواة السيرة أرادوا أن يحافظوا على هيبة بطلهم حتى بعد مماته.

هكذا يظهر لنا عنتره في السيرة وهو في ذلك يختلف عن عنتره التاريخ، وقد يتبادر إلى الذهن أن هذه الأخبار صحيحة وأن هذه الأحداث حقيقية لأنها متصلة ببطل يرتفع فينا وبنا، وقد حمل في طياته سمات العظمة وجمع صفات تبلغ حد الكمال.

20 - البطل الشعبي ركن أساسي في السيرة الشعبية، وهو في معظم الأحيان يستند إلى بطل تاريخي عاش فعلا إلا أنه يختلف عنه كثيرا، فالبطل الشعبي يستفيد أيضا من شخصيات أخرى ويخضع بشكل أساسي للضرورة الفنية التي تحدد له صفاته وتوجهاته وهو في السيرة الشعبية يحطم أبعاد الزمان والمكان والمنطق فيمتلك البطل الجاهلي ملامح إسلامية، ويذهب إلى أماكن لم يعرف عن الشخصية التاريخية أنها ذهبت إليها، ويكتسب أبعادا أسطورية وخرافية، والهدف الأساسي من كل ذلك أن يعبر عن هموم وأحلام الجماعة الشعبية العربية.

وفي الأخير، بقي أن نقول: أن السيرة الشعبية بحيوية شخوصها وتعدد خيوطها وتشعب أحداثها وواقعية أماكنها، شكلت رافعة تنوير وعامل تواصل وتوازن لمجتمع تقطعت أوصاله، وابتعد فيه الحكام عن مسؤولياتهم برعاية حاجات العامة، ومكنت المظلومين من رؤية بارقة أمل في النفق المظلم الذي حشرهم فيه الطغاة، وأظهرت للناس فضيلة العدل، كما أظهرت أيضا دواخل النفس البشرية وما يخلفه الظلم والاستبداد من رذائل وشرور وفوضى وبؤس، وسلطت الضوء على فضيلة التمرد على الظلم بشتى أشكاله، وأظهرت مقومات الحاكم العادل الذي يظهر من رحم الجماعة الشعبية، يحس بالأمها ويحسن مخاطبة أفرادها، بحيث يجمع شملهم حول هدف يحررهم من قبضة الطغيان ويصلح ما فسد، ويقوم العدل وينشر السلام في جميع الأصقاع.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أ - النصوص:

- مجهول، سيرة فارس اليمن ومبيد أهل الكفر والمحن الأمير سيف بن ذي يزن، المطبعة المحمودية، مصر، 1317 هـ.
- مجهول، سيرة عنتر بن شداد، المكتبة الشعبية، بيروت، لبنان، د ت.
- ديوان عنتر، دار صادر، بيروت، لبنان، د ت.

ب - المصادر:

- القرآن الكريم.
- الأصفهاني أبو الفرج، الأغاني، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د ت.
- ابن الأثير الجوزي أبو الحسن، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1979.
- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، مؤسسة باباي للنشر والتوزيع والطباعة، تونس، د ت.
- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، د م ط، د ت.
- ابن كثير عماد الدين أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن الكريم، دار المفيد، لبنان، د ت.

- المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 2، بيروت، 1966.

ج - المراجع:

- ابراهيم زكرياء، مشكلة البنية، دار مصر للطباعة، د ط، د ت.
- افرام البستاني فؤاد، منتخبات شعرية: عنتر بن شداد، سلسلة الروائع، منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، د ت.
- البستاني بطرس، أدباء العرب في الجاهلية و الإسلام، دار المكشوف ودار الثقافة، بيروت، لبنان، 1968.
- البكر منذر، دراسات في تاريخ العرب القديم: تاريخ الدول الجنوبية في اليمن، منشورات جامعة البصرة، العراق، 1980.
- الجابر محمد عابد، التراث والحداثة: دراسات ومناقشات، المركز الثقافي العربي، ط1، 1991.

- السواح فراس، الأسطورة والمعنى: دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، دار علاء الدين سورية، ط2، 2001.

- العربي علي، أضواء على السيرة النبوية: قراءة نقدية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1995.

- الياد ميرسيا، مظاهر الأسطورة، تر: نهاد خياطة، دار كنعان، دمشق، 1991.

- بارث رولان، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري للدراسة والترجمة والنشر، سوريا، ط1، 1993.

- باوزير محمد، اليمن القديم في القرآن الكريم والشعر الجاهلي وكتب المؤرخين والجغرافيين العرب القدامى، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2004.

- بحراوي حسن، بنية الشكل الروائي: الفضاء، الزمن، الشخصيات، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، 1990.

- بنكراد سعيد، شخصيات النص السردي: البناء الثقافي، منشورات جامعة المولى اسماعيل، كلية الآداب، المغرب، 1994.

- بونيت عز الدين، الشخصية في المسرح المغربي: بنيات وتجليات، منشورات جامعة ابن زهر، كلية الآداب، المغرب، 1992.

- بياجيه جان، البنيوية، تر: عارف منيمنة وبشير أوبري، منشورات دار عويدات، بيروت، لبنان، ط3، 1982.

- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، د.ت.

- حسين طه، في الشعر الجاهلي، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، ط1، 1997.

- خورشيد فاروق:

* - عالم الأدب الشعبي العجيب، كتاب الهلال، دار الهلال، 1988.

* - أدب السيرة الشعبية، الشركة العالمية للنشر، لونغمان، مصر، 1994.

* - أضواء على السيرة الشعبية، المكتبة الثقافية، القاهرة، 1964.

- خورشيد فاروق وذهني محمود، فن كتابة السيرة الشعبية، منشورات اقرأ، بيروت، لبنان، 1980.

- دلو برهان الدين، جزيرة العرب قبل الإسلام، ط1، الفارابي، بيروت، 1989.

- ديرلاين فريديريش فون، الحكاية الخرافية: نشأتها، مناهج دراستها، فنيتها، تر: إبراهيم نبيلة، مكتبة غريب، مصر، 1959.

- سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب، شرح ديوان عنتر، دار مكتبة الهلال، د ت.

- صالح احمد رشدي، الأدب الشعبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1971.

- عبد الحكيم شوقي، السيرة و الملاحم الشعبية، دار الحداثة، بيروت، لبنان، 1984.

- غنيم سيد محمد، سيكولوجية الشخصية، دار النهضة العربية، القاهرة، د ت.

- لحمداني حميد، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1991.

- مرتاض عبد المالك:

* - تحليل الخطاب السردي: معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية "زقاق المدق"، ديوان المطبوعات الجامعية، سلسلة المعرفة، الجزائر، 1995.

* - الميثولوجيا عند العرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

- منقوش ثريا، سيف بن ذي يزن بين الحقيقة والأسطورة والأمل، د ت، د م ن.

- موسى سليمان، الأدب القصصي عند العرب، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، لبنان، 1956.

- نوري حمودي القيسي، الفروسية في الشعر الجاهلي، مكتبة النهضة، بغداد، 1964.

- هامون فيليب، سيميولوجية الشخصيات الروائية، تر: سعيد بنكراد، دار الكلام، الرباط، 1990.

- يقطين سعيد:

* - ذخيرة العجائب العربية: سيف بن ذي يزن، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994

* - قال الراوي: البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1997.

- يونس عبد الحميد، دفاع عن الفلكلور، الهيئة العامة، مصر، 1973.

د - قواميس ومعاجم وموسوعات:

- ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب المحيط، دار صادر، بيروت، 1990.

- إدريس سهيل، عبد النور جبور، المنهل: قاموس فرنسي - عربي، دار الآداب، دار العلم للملايين، بيروت، 1983.

- الفيروز أبادي مجد الدين محمد يعقوب الشيرازي، القاموس المحيط، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دت.

- الموسوعة العربية الميسرة، دار الجيل، بيروت، القاهرة، تونس، ط2، 2001.

- بدوي أحمد زكي، معجم مصطلحات الدراسات الإنسانية والفنون الجميلة والتشكيلية، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط1، 1991.

- عبد الحكيم شوقي، موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، 1982.

هـ - دوريات ومجلات:

- احمد أبو زيدان، الواقع و الأسطورة في القص الشعبي، مجلة عالم الفكر، مجلد 17، العدد الأول، 1986.

- النجار محمد رجب، حكايات الشطار والغيارين في التراث العربي، سلسلة عالم المعرفة، عدد 45، الكويت، 1981.

- عطية أحمد محمد، مدخل لدراسة شخصية البطل الثوري في الرواية العربية، مجلة الأقلام، عدد 9، بغداد، 1975.

- قيسمون جميلة، الشخصية في القصة، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، عدد 13، 2000.

- مرسي أحمد، مفهوم الشر في الأدب الشعبي، مجلة عالم الفكر، عدد 1، الكويت، 1986.

- محمد حسن عبد الله، الحب في التراث العربي، مجلة عالم الفكر، عدد 36، محرم، صفر 1401هـ / ديسمبر، 1980.

و - مقالات أجنبية:

-**GIOVANNI CANOVA. ASPECTS DE LA TRADITION EPIQUE VIVANT EN EGYPTE ET SYRIE, ACTES DE LA 1 ERE TABLE RONDE INTERNATIONNALE SUR LA GESTE DES BENI HILAL. 1980. INSTITUT NATIONAL D'ARCHEOLOGIE ET D'ARTS. TUNIS.**

- **MADEYSKA DANUTA**. THE LANGUAGE AND STRUCTURE OF THE SIRA. QUADERNI DI STUDI ARABI. 9. 1991.

- **RICOEUR P.** MYTHE. ENCYCLOPÆIA UNIVERSALISE. VOL. 11. France.1980.

- **YASMIDA A.** EPOPEE. ENCYCLOPÆIA UNIVERSALISE. VOL. 6. France.1980.

الفهرس

الفهرس

مقدمة.....أ- هـ

تمهيد.....02

الفصل الأول: البنيات المحورية لأحداث

سيرتي سيف بن ذي يزن وعترة بن شداد.....72-20

أولاً: مفهوم البنية وخصائصها.....20

ثانياً: البنيات المحورية لأحداث سيرة سيف بن ذي يزن:.....23

أ - البنية المحورية الأولى: مرحلة ما قبل ميلاد البطل.....24

ب - البنية المحورية الثانية: مرحلة ميلاد البطل وتعرفه على مهامه.....32

ج - البنية المحورية الثالثة: مرحلة تخلص سيف من أمه الشريرة وزواجه الأول.....38

د - البنية المحورية الرابعة: مرحلة رحلة سيف لإعادة زوجته "منية النفوس".....40

هـ - البنية المحورية الخامسة: مرحلة رحلة "عبروض" لجلب بذلة بلقيس.....41

و - البنية المحورية السادسة: مرحلة تعمير مصر وجريان نهر النيل.....41

ز - البنية المحورية السابعة: مرحلة تتويج "عفاشة" ملكا على الجان.....41

ثالثاً: البنيات المحورية لأحداث سيرة عترة بن شداد:.....43

أ - البنية المحورية الأولى: مرحلة التكوين والفروسية.....43

ب - البنية المحورية الثانية: المرحلة الأسطورية.....61

ج - البنية المحورية الثالثة: المرحلة الملحمية.....67

د - البنية المحورية الرابعة: نهاية عترة بن شداد.....68

الفصل الثاني: بنيات الشخصيات

في سيرتي سيف بن ذي يزن وعترة بن شداد.....118 -74

أولاً: المستوى السطحي:.....74

أ - الراوي.....75

ب- الشخصيات التاريخية.....74

ج - الشخصيات الحكائية العادية (الورقية).....78

د - الشخصيات الحكائية الغريبة.....79

82	* - مستويات وصف الشخصيات.....
79	ثانيا: المستوى العميق:.....
79	أ - بنيات الشخصيات أحادية الجنس.....
81	ب - بنيات الشخصيات الممسوخة.....
87	ثالثا: الرؤى العلائقية بين بنيات الشخصيات أحادية الجنس والممسوخة.....
88	أ - الرؤى العلائقية الوصلية.....
90	ب - الرؤى العلائقية الفصلية.....
95	رابعا: بنيات الشخصيات الفاعلة:.....
95	1 - بؤرة الأفعال المركزية والفاعل المركزي:.....
97	* - مقومات وموجهات الفاعل المركزي.....
106	2 - بنية الأفعال الأساسية والفواعل الأساسيون:.....
107	2 - 1 - الفاعل الأساسي المساعد.....
108	* - مقومات وموجهات الفاعل الأساسي المساعد.....
111	2 - 2 - الفاعل الأساسي المعارض.....
113	* - مقومات وموجهات الفاعل الأساسي المعارض.....
	الفصل الثالث: الخصائص التاريخية لشخصيتي البطلين
120-173	سيف بن ذي يزن وعنترة بن شداد.....
120	تمهيد.....
125	أولا - الخصائص التاريخية لشخصية سيف بن ذي يزن:.....
127	أ - تبع.....
131	ب - حمير.....
136	ج - سيف بن النعمان بن عفير:.....
136	* - معطيات تاريخية.....
138	* - الثورة اليمينية ضد المحتل الحبشي.....
150	ثانيا - الخصائص التاريخية لشخصية عنترة بن شداد:.....
151	أ - عنترة الإنسان.....

ب - عنثرة الفارس.....161

ج - عنثرة الشاعر.....165

د - عنثرة العاشق.....166

خاتمة.....175

قائمة المصادر والمراجع.....186

الفهرس